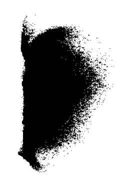
محمد عبد المنعم خفاجي



أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

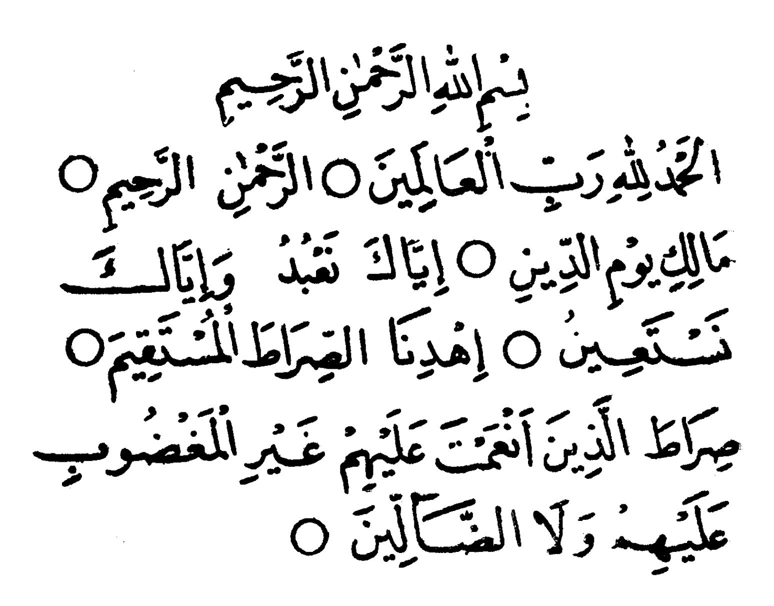
(٤)

الطبعة الأولى



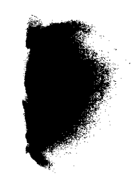
بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح – ت : ٥٠٨٥٢



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○



تصدير

اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ؛ ونعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، بك الحول والطول ، ومنك العون والهداية ؛ لك الحمد والثناء ، وإليك الدعاء والنداء ، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد .. فهذا هو الجزء الرابع من هذا التفسير الجديد لكتاب الله ، الذى يخرج فى ظلمات العصر المادى ، وبين سحب الضلالات الكثيفة المحيطة بالناس من كل جانب ؛ وخلال دعوات ينفخ فيها الشيطان ، ليصل دويها إلى كل أذن ، وليردد نداءها كل لسان ، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . وهى دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان ، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجودية والمادية ، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد فى دين الله ، والكفر بشرائع السماء ، والخروج على رسالات الأنبياء ، ويتمادى بعض هؤلاء الدعاة ، فينكرون وجود الله ، ويشككون فى القيم الإنسانية العليا ، ويحاربون الإيمان بالدين وبالنواميس الإلهية العظيمة ، ويفتخرون بما يدعون إليه ، فى الوقت الذى صمت فيه لسان الحق ، وسكت فيه دعاة الخير والهدى ، ونام الحراس على تراثنا الروحى ، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة .

فى وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة ، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس ، ولسان حق يدعو إلى مايدعو الإسلام وكتابه الكريم .

وتفسير تعاليم السماء ، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الحكيم ، وتقريب أصولها ، وشرح أهدافها ، وتوضيح مراميها ، وتقريب معانيها ؛ كل ذلك جهد مبذول ، أقدمه بين يدى هذا التفسير ، داعيا الله عز وجل أن يهدى به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وما توفيق إلا بالله ؟

تمهيد

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله أجمعين ، وبعد ...

فهذا الجزء من تفسير كتاب الله الحكيم ، وهو الجزء الرابع ، صورة ناطقة ، ومثل حى ، على ضرورة نشر هذا التفسير وأهميته معا . . وعند ما يأذن الله تعالى بالانتهاء من طبع أجزاء هذا التفسير ، التى تبلغ الثلاثين جزءا ، سوف يدرك الناس جميعا أن معجزة قد حدثت ، وأن عملا جليلا قد كان ، وخدمة صادقة مخلصة قد بذلت ، فى سبيل نشر هداية القرآن الكريم فى الآفاق ، وتقريب رسالته إلى الأسماع والقلوب ، وحمل دعوته إلى البشر جميعا ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، وليقف الجاحدون موقف المتأمل الواعى لدعوة الإسلام وكتابه الحكيم من جديد ..

(٢)

وكلما مضى بنا المجال فى البحث والدرس لكتاب الله ، كلما ازددنا إيمانا بعظمة القرآن وجلاله وإعجازه ، وبأنه منزل من السماء بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله ، وبأنه الكتاب الذى لا تستقيم أمور البشر إلا بهدايته ، ولا تنتظم أحوال العالم إلا بحكمته ، ولا تستعيد الإنسانية رشدها وأمنها وسلامها إلا بتعاليمه ، وما أصدق ما قال رسول الإسلام محمد بن عبد الله : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ؛ ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات » .

إن القرآن الكريم أعظم دليل على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يزال حتى اليوم سرا من الأسرار التي يتعذر فك طلاسمها، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يؤمن بأنه منزل من عندالله. والقرآن الكريم آية في البلاغة، ومع ذلك فهو في الوقت نفسه دستور رفيع للشريعة وللحياة جميعاً، إنه الدستور الأساسي لأصول الإسلام، وللأحكام الجنائية والمدنية فيه، بل وللشرائع التي عليها مدار حياة النوع الإنساني وترتيب شئونه، وهو القانون العام للعالم الإسلامي، القانون الذي شمل في ثناياه شتى القوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والسياسية والاجتماعية.

(٣)

والقرآن الكريم قبل ذلك وبعد ذلك هو أساس القومية الإسلامية للمسلمين، ومن ثم فإن أول واجب على كل مسلم أن يفهمه ويتدبر معانيه، ويتأدب بآدابه، ويتخلق بأخلاقه، ولقد روى عن سعد بن هشام أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها؛ فسألتها عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالت: «أما تقرأ القرآن، قلت: بلى؛ قالت: كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن»، وعند مايكتمل الوعي الجديد في نفوس المسلمين، سوف يفرضون بأنفسهم تعاليم الإسلام على أنفسهم، وعلى مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، وعلى كل شيء في حياتهم التي يحيونها؛ وسوف تندثر دعوات الإباحية والوجودية والمادية من بين صفوفهم، وسوف لا يجرؤ ضال أو جاحد أو مسنود بقوة الاستعمار وسلطانه: أن يرفع صوته داعيا إلى مادية أو إلحاد في الدين، ولن يكون هناك إلا صوت واحد يدوي في الآفاق: نحن عرب، ونحن مسلمون، ونحن حملة رسالة الإخاء والسلام إلى العالم جميعا..

(٤)

ونحن إذ نكتب هذا التفسير وننشره ، فإنما نريد أن تصل دعوة القرآن الكريم ورسالته إلى آذان البشر جميعا ، وإلى قلب الشباب المسلم وعقله فى كل مكان ، وإلى موطن العقيدة والإيمان عند كل مسلم يؤمن أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله إلى الناس كافة . .

وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

تفسير آيات الجـــزء الرابع

من كتاب الله الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٣ — كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ
عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ
فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

٩٤ — فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

٩٥ — قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ .

ثلاث آيات كريمة بدأ بها الله عز وجل الجزء الرابع من القرآن الكريم، الذى يشتمل على آيات كثيرة من سورة آل عمران ، وعلى آيات أخرى من سورة النساء .

وقد سبق أن ذكرنا أن سورة آل عمران هى السورة الثالثة من سور القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف الشريف ، وأنها مدنية نزلت بعد الهجرة بالمدينة المنورة ، وأنها سميت بآل عمران نسبة إلى عمران ، وهو أبو مريم عليها السلام ، ومريم أم المسيح عيسى صلوات الله عليه ، وقدجاء ذكرعمران فى السورة مرتين : فى قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ، وفى قوله : « إذ قالت امرأةعمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا » . ولا يصح أن يكون عمران هذا هو أبو موسى وهرون؛ لأن هذه السورة ليس فيها ذكر لموسى وهرون ، وإنما جاء فيها ذكر مريم وابنها المسيح عيسى ، وبين العمرانين كما سبق عشرات القرون والأجيال .



وقد قص الله جل جلاله فيها قصة مريم وابنها المسيح لغرابة أمرها ، وطرافة شأنها ، ودلالتها على قدرة الله الباهرة ، وعلى عظمته النادرة ، وعلى معجزاته الفائقة الساحرة ..

وفى السورة ذكر لغزوة بدر ، وقد وقعت فى السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة - ٦٢٤ ميلادية ، وقد تقدم من هذه السورة اثنتان وتسعون آية ، فيها تقرير وحدانية الله ورسالاته إلى الأنبياء ، وكتبه المنزلة على محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ، وفيها تقرير لعظمته وهيمنته ، وفيها ذكر لاصطفاء الله لبعض خلقه رسلا مبشرين ومنذرين ، وفيها كذلك تصوير جميل رائع لقصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وفيها حجاج للنصارى الذين عاندوا الإسلام ورسوله عليه السلام ، وفيها حجاج لأهل الكتاب عامة ، إلى غير ذلك مما تناولناه بإفاضة فى الجزء الثالث من هذا التفسير.

وهذا الجزء - الرابع - قد بدأه الله عز وجل بالرد على اليهود فيما زعموه وافتروه على الله، إذ قالوا لرسول الله صلوات الله عليه : إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم ، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها ، فلست على ملته ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم . كان ذلك حلالا لإبراهيم ،فقالوا له صلوات الله عليه : كل ما نحرمه اليوم كان حراما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا ، فنزلت هذه الآيات : « كل الطعام » الخ ، يريد الله عز وجل : كل المطعومات ، أو كل أنواع الطعام كان حلا ، أى حلالا أكله لبنى إسرائيل، أى أولاد يعقوب عليه السلام ، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، أى ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم ، بل كان الكل حلالا له ولبنى إسرائيل ، وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة ، فليس فى التوراة حرمتها .

واختلفوا فى الطعام الذى حرمه إسرائيل على نفسه ، وفى سببه ، فقال مقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام هو لحم الإبل وألبانها،وسبب ذلك أنه مرض

مرضا شديدا ، وطال سقمه ؛ فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك أحب طعام إليه فحرمه ، وقال ابن عباس والضحاك : هى العروق، وسبب ذلك أنه اشتكى عرق النسا (١) ، وكان قد نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم ، فتلقاه ملك من الملائكة فقال يايعقوب : إنك رجل قوى ، فهل لك فى الصراع ؟ فصارعه فلم يصرع واحد منهما صاحبه ، فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا ثم قال : أما إنى لو شئت أن أصرعك لفعلت ، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت ولدك ، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا ، فكان لاينام بالليل من الألم ؛ فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى أن لا يأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق ، فحرمه على نفسه ، وكان بنوه بعد ذلك مثله ، قال ابن عباس ولما أصاب يعقوب عرق النسا ، وصف له الأطباء أن يجتنب لحوم الإبل وألبانها فحرمها يعقوب على نفسه ، ثم اختلفوا فى حال هذا الطعام المحرم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة ، فقال السدى: حرم الله عليهم فى التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها ، وقال الضحاك : لم يكن شىء من ذلك حراما عليهم، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله عز وجل ، وكذبهم الله تعالى فقال تعالى « قل » أى لهم يا محمد «فأتوا بالتوراة فاتلوها » ليتبين لكم مدى صدق قولكم « إن كنتم صادقين » فيه ، فبهتوا ولم يأتوا بها . وفى إخباره صلى الله عليه وسلم عما فى التوراة دليل على نبوته قال تعالى « فمن افترى » أى ابتدع « على الله الكذب من بعد ذلك » أى ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب لا على عهد إبراهيم « فأولئك هم الظالمون » أى المتجاوزون الحق إلى الباطل وقوله تعالى «قل» أى لهم « صدق الله » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فى جميع ما أخبر به وأنتم الكاذبون « فاتبعوا ملة إبراهيم » أى ملة الإسلام التى أنا عليها حتى تخلصوا

(١) بفتح النون وألف مقصورة فى آخره : عرق يخرج من الورك ، فيستبطن الفخذ .

من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم ، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتحتجوا بالكلام المحرف على باطلكم ، وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله تعالى « حنيفا » أى مائلا عن كل دين إلى دين الإسلام ، وقوله تعالى « وما كان من المشركين » فيه إشارة إلى أن اتباع إبراهيم واجب فى التوحيد وخاصة فى أمر التوحيد الخالص ، وفى الاستقامة فى الدين ، وفى تجنب الإفراط ، وهو تحريف التوراة وعدم العمل بما فيها . . وفى هذا إشارة وتعريض بشرك اليهود وبعدهم عن الدين الحق ، وعن شريعة موسى الصادقة .

وفى هذه الآيات الثلاث تنبيه إلى كذب اليهود وافتراءاتهم على الله ، وإلى أن المفترين للكذب على الله من بعد ما جاءهم الكتاب وجاءتهم البينة والهدى والإرشاد من الله لا بد أن يكونوا ظالمين ممعنين فى الظلم ، ظاهرين فيه ، وأن يكون الظلم من شأنهم ، ومن ديدنهم .. وينبه الله عز وجل فى رفق وأدب جم إلى صدق رسالته على محمد وصدق ماجاء به القرآن ، وإلى وجوب الإيمان بملة إبراهيم التى تمثلت فى الإسلام دينا قيما ، وإبراهيم عليه السلام إنما كان حنيفا قيما ، ولم يكن من المشركين ، ولا كان يهوديا ولا نصرانيا ...

٩٦ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ .

٩٧ — فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ .

فى هاتين الآيتين رد على ما زعمه اليهود من مزاعم باطلة حين حولت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة ، والكعبة لإبراهيم بها صلة لاتنسى ، والإسلام هو الامتداد الكبير لشريعة إبراهيم عليه السلام ، ومحمد أولى الناس بإبراهيم وشريعته ، فكان اتخاذ الكعبة قبلة عامة للمسلمين أمراً معقولا فى غاية

الوضوح ، فهذه هى الكعبة التى رفع بناءها إبراهيم وإسماعيل ، وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه ، دعوة أبيه إبراهيم ، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه .

ويروى فى سبب نزول هاتين الآيتين أن اليهود قالت للمسلمين : بيت المقدس قبلتنا ، وهو أفضل من الكعبة وأقدم ، وهو مهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فنزل قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس » أى جعله الله متعبدا لهم ، وقد بناه إبراهيم ، وقيل : إن آدم كان قد بناه ثم دمره الطوفان .

قال البيضاوى : وهذا القول لا يلائم ظاهر الآية ، وقيل : أول من بناه إبراهيم ثم هدم ، فبناه قوم من جرهم ، ثم العمالقة ، ثم قريش «للذى» أى للبيت الذى « ببكة » لغة فى مكة ، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ، فلم يردها جبار بسوء إلا وقصمه الله ، وسميت مكة بالميم لقلة مائها ، وتدعى (أم رحم) لأن الرحمة تنزل بها ، وقوله تعالى « مباركا » أى ذا بركة لأنه كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده أو طاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وهدى للعالمين » لأنه قبلتهم ومتعبدهم ، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال تعالى : « فيه آيات بينات » إذ قد صار إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار ، وأن الصلاة فيه تضاعف ، وأن كل جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل ، وقوله تعالى « مقام إبراهيم » أى منها مقام إبراهيم ، وهو الحجر الذى قام عليه إبراهيم حين بناء البيت ، وقد حفظه الله مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين ، وهذا معجزة عظيمة .

وقوله تعالى « ومن دخله كان آمنا » عطف من حيث المعنى على مقام ، لأنه فى معنى آمن من دخله ، أى ومنها آمن من دخله ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام « رب اجعل هذا البلد آمنا » ، وفى الاقتصار على ذكر هاتين الآيتين وطى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وآمن من دخله وكثير سواهما . وروى عن الرسول عليه الصلاة

والسلام أنه قال : من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا . وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى : من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج فيقتل ، وكان عمر يقول : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ، وعند الشافعي رحمه الله تعالى لا يلجأ إلى الخروج بل يقتل للأمر في خبر الشيخين بقتل ابن خطل ، وكان قد ارتد وتعلق بأستار الكعبة ، وأما قوله « ومن دخله كان آمنا » وخبر « من دخل المسجد فهو آمن » فمعناه جمعا بين الأدلة : أن من دخله بغير جريرة ، وأما إذا ارتكب الجريمة فيستوفى منه بالاتفاق .

« ولله على الناس حج البيت » أي قصده للزيارة على وجه مخصوص ، وهو أحد الأركان في الإسلام ، قال صلى الله عليه وسلم : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان « من استطاع إليه » أي الحج والبيت « سبيلا » أي طريقا بدل من الناس مخصص له ، وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة ، رواه الحاكم وغيره « ومن كفر » أي بما فرض الله من الحج أو كفر بالله « فإن الله غني عن العالمين » أي الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادتهم ، وقيل: وضع (كفر) موضع (لم يحج) تأكيداً لوجوبه وتشديدا على تاركه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا رواه الترمذي ، وفي هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد على طلب الحج : منها قوله تعالى « ولله على الناس حج البيت » أي أنه حق واجب لله في رقاب الناس ، لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ، ومنها أنه ذكر الناس ثم إنه أبدل عنه « من استطاع إليه سبيلا » وفيه ضربان من التوكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ؛ ومنها ذكر الاستغناء ، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان لمن لم يحج ؛

ومنها قوله «عن العالمين» ولم يقل «عنه» وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت فى اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب؛ وروى أنه لما نزل قوله تعالى «ولله على الناس حج البيت» جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون، وكفر به خمس ملل وهم المشركون واليهود والنصارى والصابئون والمجوس قالوا: لانؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه فنزل «ومن كفر»، وعنه صلى الله عليه وسلم: حجوا قبل أن لاتحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع فى الثالثة، وروى: «حجوا قبل أن لاتحجوا».

٩٨ — قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ.

٩٩ — قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

بعد أن رد الله تعالى على اليهود وأفحمهم، عاد فخاطبهم خطاب توبيخ وزجر وسخط منبها إلى سوء صنيعهم واعتقادهم.

«قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» أى الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من رسالته ومن وجوب الحج وغيره، وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل، فهم كافرون بهما «والله شهيد» أى والحال أن الله شهيد «على ماتعملون» فيجازيكم عليه «قل ياأهل الكتاب لم تصدون» أى تصرفون «عن سبيل الله» أى دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام «من آمن» بتكذيبكم النبى صلى الله عليه وسلم وكتم نعته، وكانو يفتنون المؤمنين ويتحالفون

بصدهم عن دين الله ، ويمنعون من أراد الدخول فيه جهدهم ، وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروبات ليعودوا لمثله ، وإنما كرر الخطاب والاستفهام مبالغة فى التوبيخ ونفى العذر ، وإشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح فى نفسه مستقل باستجلاب العذاب ، وقوله تعالى « تبغونها » أى السبيل « عوجا » حال أى باغين طالبين لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة ، بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فى دين الإسلام عوجا عن الحق ، بمنع النسخ وبتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوهما . هذا ويقول بعض اللغويين : العوج بالكسر : فى الدين والقول والعمل ، وبالفتح : فى الجدار وكل شىء قائم « وأنتم شهداء » أى عالمون بأن الدين المرضى هو دين الإسلام كما فى كتابكم « وما الله بغافل عما تعملون » من الكفر والتكذيب ، وإنما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم .

فإن قيل : لم ختمت الآية الأولى بقوله تعالى «والله شهيد على ما تعملون» وهذه الآية بقوله « وما الله بغافل عما تعملون» ؟ فالجواب أنه لما كان النكير فى الآية الأولى على كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله « والله شهيد على ماتعملون » ولما كان فى هذه الآية على صدهم المؤمنين عن الإسلام ، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال تعالى « وما الله بغافل عما تعملون » ليناسب المقام .

١٠٠ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ .

١٠١ — وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

١٠٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ .

١٠٣ — وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ .

يروى فى سبب نزول هذه الآيات أنه مر شاس بن قيس اليهودى ـ وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فى مسجد لهم يتحدثون ، فغاظه ذلك حيث تآلفوا واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة وقال : مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث ـ وهو موضع بالمدينة ، وينشد بعض ما قيل فيه من الأشعار ، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس ففعل ، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ؛ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قال تعالى « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » أى شاس وأصحابه « يردوكم بعد إيمانكم كافرين » قال جابر : ما رأيت يوما قط أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم ؛ ثم قال الله تعالى على وجه التعجب والتوبيخ « وكيف تكفرون » أى ولم تكفرون ؟ « وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر والحال أن آيات الله وهى القرآن المعجز يتلى على لسان

النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « ومن يعتصم بالله » أي ومن يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه في مجامع أموره « فقد هدى » أي فقد حصل له الهدى لا محالة ، كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، كأن الهدى قد حصل . فهو يخبر عنه حاصلا ، ومعنى التوقع في (قد) ظاهر ؛ لأن المعتصم بالله متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده « إلى صراط » أي طريق « مستقيم » أي واضح « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » أي واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم ؛ وقال ابن مسعود بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ، ولما نزلت هذه الآية قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم يارسول الله : من يقوى على هذا ؟ فنسخ بقوله « فاتقوا الله ما استطعتم » وقال مقاتل : ليس في آل عمران منسوخ إلا هذا « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » أي موحدون ، والمعنى : ولا تكونن على حالة سوى الإسلام إذا أدرككم الموت ، فالنهي هنا يتوجه إلى القيد وحده .

« واعتصموا بحبل الله » أي بدينه وهو دين الإسلام ، استعار له الحبل من حيث أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من الردى ، أو بكتابه وهو القرآن لقول الرسول : القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم ، وقوله تعالى « جميعاً » أي مجتمعين عليه « ولا تفرقوا » أي ولا تتفرقوا بعد الإسلام بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب ، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضا ويحاربه « واذكروا نعمة الله » أي إنعامه عليكم التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف « إذ كنتم أعداء » في الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والبغضاء والحروب المتواصلة « فألف بين قلوبكم » بالإسلام وقذف فيها المحبة « فأصبحتم بنعمته إخوانا » متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد وهو الأخوة في الله ؛ وقيل : هم الأوس والخزرج : كانا أخوين

لأب وأم ، فوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل ، وتطاولت الحروب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ، وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم «وكنتم على شفا» أي طرف «حفرة من النار» أى حفرها ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا كفارا «فأنقذكم منها» بالإسلام ، والضمير للحفرة أو النار أو الشفا ، وأنثه لتأنيث ما أضيف إليه «كذلك» أي مثل ذلك البيان «يبين الله لكم آياته» أي دلائله وحكمه وعظاته «لعلكم تهتدون» أي لكي تزدادوا هدى وفلاحا ورشاداً .

فى الآيات السابقة حث على الألفة ونهى عن الفرقة ، وفيها بيان لفضل الله على قبائل العرب ، إذ جمع الإسلام بينهم ، وألف بين قلوبهم ، ووحد كلمتهم ، وأزال الإحن من صدورهم ، وجعلهم بنعمة الله إخوانا متحابين ، وأصدقاء متآلفين . وما أجل فضل الإسلام على المسلمين فى القديم والحديث ، وما أعظمه رابطة تجمع بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها : على الخير والهدى ، وعلى الحب والصفاء ، وعلى التعاون والتآخى والتآلف .

والدين بصفة عامة فطرة فى الإنسان ، تبعثه على التشبث بعقيدة يعتصم بها فؤاده فى المحن والشدائد والخطوب .

ولقد حار الإنسان فيمن يلوذ به فى الأعاصير ، حتى أيقن بأنه لا يصح أن يلاذ به إلا الله تعالى خالق الكون والحياة والناس أجمعين ، واهتدى بفطرته بعد حيرته إلى سبيل الخلاص بالإخبات لفاطر السموات والأرضين .

ولكن كيف يعبد الانسان الله ، وكيف يصلى له ، فى أثناء هذه الحيرة الإنسانية كان الله يرسل للناس رسله تترى ، فيعلمون الناس تعاليم السماء ، ولكن كانت تعاليمهم لا تلبث إلا قليلا ، لغلبة اندفاع الإنسان وراء خيالاته عليها ، وعدم استعداده للوقوف عند حدود إحساساته الفطرية . وإن شئت فقل بغلظ إنسانيته التى كانت تطالبه بأن تلمسه بيدها وتنظره بعينها .

استمر الإنسان فى هذا التدافع الدينى ألوفا من السنين كان فى أثنائها لاشغل له إلا الدين .

وبينما الناس فى هذه الحالة من التدافع والتجالد ، وإذا بصاخة عظمى دوت لها أرجاء الكرة الأرضية ، فشخص الناس إليها من كل مكان ، وإذا بها أمة صغيرة ، لا عهد لها بكتاب سماوى ، ولا دين نظامى ، ولا حكومة متسقة ، ولا رابطة عامة ، قامت تحمل للشعوب على يدها ترياق الهدوء والسكينة ، وإكسير الراحة والطمأنينة . ترد المتخالفين إلى أصل مشترك بينهم ، وترفع عن القلوب تلك الحجب التى أسدلها رؤساؤهم . فدعت هذه الأمة إلى الحقيقة بكل وسيلة ، وصاحت الأمم أن هلموا عباد الله إلى النور الذى لن يضل صاحبه ولن ينجو متجنبه ، تالية على رؤوس الأشهاد : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه ويهديهم إليه صراطا مستقيما » فأصغى إليها من سبقت له السعادة ، ولوى عنها من غلبت عليه الشقاوة ، واستنام الرؤساء لها حتى أدت المطلوب منها ، وأقامت علما يهتدى إليه من أراد أن يستقيم على تمادى القرون .

إن الدين : هو التعليم الإلهى ، والإرشاد السماوى ، يتنزل رحمة من الله بعباده ، فيرشدهم بعد الغواية ، ويبعدهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويردعهم عما يضرهم ، ويوجههم إلى ما فيه نفعهم . والدين : هو القوة التى أمد الله بها الناس ، فعدّلت من مزاجهم ، وكبحت من طغيانهم ، وردت غوائل بعضهم عن بعض .. جعلت للقوى حدودا لا ينبغى أن يتجاوزها ، وحفزت النفوس الواهنة الضعيفة إلى أن تستخدم قواها التى بثت فيها ، ونبهت الفكر الخامل إلى اجتناء الثمار التى مكنه الخالق منها ، والتى سخرها له ولمصلحته . فالدين ينبه الفكر ، وينظم الإرادة ، ويصد العدوان ، ويقف الطغيان ، فهو الرحمة العظمى لبنى الإنسان .

ولما كان الدين تعليما وإرشادا ، وتربية وتهذيبا ، وكان الإنسان فى مجموعه كالإنسان فى مفرده : قد نشأ على الفطرة الأولى ، حتى تداولته التجارب ، واكتنفته التصاريف ، واختلفت عليه الأحوال ، وكل حال منها يغرس فى نفسه حكما ينتفع به ، ويعلمه أمرا كان خفيا عنه ، كالطفل يولد لا يعلم شيئا ،

فلا يزال عرضة للحوادث ، ومرا للطوارىء المختلفة ، حتى يستكمل رشده ، ويبلغ أشده ، وهو فى كل طور مستعد لدرجة من التعليم والتهذيب والتربية .. كذلك كان الإنسان فى مجموعه له أطوار بحسب ما استعد له من المراتب فى القبول والكمال ، فيليق به فى كل حال ما يليق به فى غيرها . فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يمد النوع الإنسانى بضروب من التربية والتعليم قد استعد لها وصلحت له ، حتى يتم نضجه ، ويكمل استعداده ، فيعطيه التعليم النهائى الكامل والقانون المنظم العادل ، الذى يصلح لكل أمة فى كل زمان ومكان ، فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، من بداوة وحضارة : ذلك هو الدين الإسلامى .

ولقد تجلت هذه الرحمة الإلهية فى الدين الإسلامى بثلاثة مظاهر : بوضوح تعاليمه ، ومتانة براهينه ، وإنتاج فوائده وثماره .

أما وضوح تعاليمه ، فتراه فى العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . فهو فى باب العقائد لم يكلف الإنسان عنتاً ، ولم يرهقه اعتقاد ما لا يسوغه عقله . فما طلب منه أكثر مما دل عليه العقل السليم ، والنظر الصحيح فى الدليل القويم ، ففى العقائد الإلهية كلفه أن يعتقد أن لهذا العالم موجدا ، عالما ، حكيما ، كامل القدرة والإرادة ، منزها عن سمات النقص ، لا يشاركه فى الملك والتدبير والتصرف شىء ، ولا يشبهه شىء ، ولا يعزب عن علمه شىء ، ولا يخرج عن قدرته وتصرفه شىء ، وأنه المنفرد بالكمال ، المتوحد بالجلال . ولم يقسر النفوس على هذا الاعتقاد الصحيح ، بل وجهها إلى النظر فى أنفسها وما يحيط بها ، وبسط لها كيف تستفيد من ذلك النظر حتى تعلم العلم اليقينى من نفسها أن ما دعاها إلى اعتقاده قد أقام لها الدليل عليه ، وهداها إلى الاستيقان به والتثبت منه . ولو أنها نظرت هذا النظر الصحيح منفردة ، لاهتدت إليه من تلقاء نفسها ، وكلما ازدادت نظرا واعتبارا ، ازدادت نورا واستبصارا . ووجهها إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض . ووجهها إلى التفكر فى نفسها وخلقتها . وعلمها كيف تفكر فى النبات والحيوان والرياح والسحاب ، وما ينشأ عن ذلك وما فيه من النظام ، حتى استخرج من قرارة النفوس العلم

اليقيني واعتقادها الجازم أن هذه المظاهر الكونية التي ربط بعضها ببعض ، وأخذ كل منها في النظام الكوني العام محلا ليس له أن يتجاوزه . فربطت الأجزاء على تباعدها ، واتصلت مع افتراقها ، واتحدت في تكوين نظام كامل على عظيم تباينها . كل أولئك لا يمكن في نظر العقل أن يصدر إلا عن إرادة واحدة ، وتدبير محكم ، وعلم شامل ، ويدل جزما على أن المتصرف فيها يجب أن يكون واسع السلطان ، نافذ الحكم ، مبسوط القدرة ، سالما من المعارضة والمضادة ، والمشاركة ، والنظير : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فلو كان هناك قوة تضاهي قوته ونفوذ يعارض نفوذه لاصطدمت الإرادات ، وفسدت الأرض والسموات : «إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض» ، وما وراء ذلك من صفات الكمال التي وصف بها نفسه تجدها فرعا عن هذه الصفات ، تعلم بعلمها ، وتثبت بثبوتها ، أو هي من الكمال الذي لا يأبى العقل أن يتصل بالجلال الإلهي . فأرشد المؤمنين إليه على لسان أنبيائه ورسله .

هذا في الاعتقاد في الإلهيات . وأما الاعتقاد في أمر النبوات ، فهو من السهولة في الفهم والقرب إلى الذهن ، بحيث لا يتعثر امرؤ في اعتقاد أنه من الممكنات السائغات ، كما قال جل وعلا : «أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم» ؟ صدق الله العظيم ، ماذا في هذا من عجب ، ولا يعلو تناوله على النظر ! وقد ألف الناس في كل زمان أن يكون منهم لهم مرشدون ، بتفاوت العقل ورجحان الرأي ، فلم لا يكون لهم منهم نذير وبشير ، بمدد يمد الله به من اصطفاه من عباده ، ومزية يختصه بها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، نعم ، منصب النبوة منصب خطير ، ومقام كبير ، يتمنى كل واحد أن يكون له منه نصيب . فلا يبعد أن يدعيه من ليس أهلا له . فاقتضت الحكمة العظمى أن يتميز الرسول عن غيره بمظهر من مظاهر القدرة الإلهية ، لا يدانيه فيه غيره ، ولا يساويه أحد من الخلائق أجمعين ، فيظهر على يده من المعجزات ما يشهد

بصدقه ، ولا يكون مستندا إلى أسباب عادية وقوانين كونية يستطيعها كل من باشر أسبابها ، بل هي بمحض القدرة الإلهية والتصرف الرباني ، فتدل على صدق من أيده الله بها . ثم يحف الله هذا الفريق الذى اصطفاه لأن تكون الهداية على يديه بلطف منه ، فيعصمه من الكذب والخيانة ، ومخالفة ما جاء به عن ربه ، ويجعل له فى النفوس من المهابة والاحترام ما لا يكون معه لنفس عذر فى الاستنكاف من اتباعه . فهم عباد من عباد الله : أكرمهم برسالته، وأيدهم بآياته ، وعصمهم من مخالفة أمره ، وجعلهم القدوة الحسنة والمثل الصالح ، حتى قامت بهم الحجة ، واستنار بهم طريق الهدى . يجب لهم أن يكونوا صادقين ، أمناء ، معصومين ، سالمين من المنفرات ، مؤيدين بالمعجزات والآيات البينات هذا المعنى لا عسر فيه ولا عنت ، ولا إشكال فى فهمه ولا صعوبة .

وفى القرآن يقول الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وهذا نص صريح على أن الدين الحق هو الوقوف عند حد ما فطر عليه الإنسان فى صميم طبيعته وأن كثرة اللجاج وإعطاء الخيالات حق التلاعب فى أصول العقائد ليس من الدين النقى فى شىء ، بل من شطحات الظنون ونزعات الأهواء التى لم ينزل الله بها من سلطان ، قال الله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » علم الله أن النفوس تتوق إلى ما سترته عنها يد العيوب ، وتتشوف إلى كشف الغطاء عن كل محجوب ، وأن ذلك الميل قد يطرحها إلى محاولة البحث فى كنه ذاته ، وهو البحث الذى قصم روابط الملل بعد استحكامها ، ونكث فتل الوحدة من بينها ، فسد على متبعى شريعته الفطرية هذا الينبوع من الشر سدا محكما فقال « ليس كمثله شىء » . « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فكان هذا أكبر رادع لشهوات العقول عن التطاول إلى مقامه الرفيع ، بما لديها من وسائل واهية ومعلومات نسبية ضئيلة . وعلوم الإنسان على اختلاف أنواعها وقواه العقلية على كبر سلطانها ليست إلا نتائج تدافع القوة الإدراكية مع هذا العالم الأراضى المتلاشى . وإذا كان الأمر كذلك

أليس من الجنون المحض محاولة الوصول بهذا العلم المحدود وذلك العقل القاصر إلى تحديد صفات سر الأسرار الكونية التى لا نهاية لها ، وإدراك كنه ذاته العلية التى لا حد لها ؟ أى عاقل يثلج صدره على ما وصل إليه عقله من صفات الله تعالى ، وهو يرى بعينيه أن علم اللاهوت عند سائر الأمم متبع خطة التدرج فى الترقى على حسب ارتقاء العقل البشرى . قال «فلاماريون» فى كتابه المسمى : «الله فى الطبيعة» : «إن فكرة أسلافنا فى الله كانت فى كل زمان مناسبة لدرجات العلم التى حصلها النوع الإنسانى على التعاقب» - إذا كان الأمر كذلك وثبت أن كل وصف يستطيع العقل أن يصف الله به أحط من مقامه القدسى بمراحل ، بل من المؤكد أنه لا يلبث إلا قليلا ثم يصير لدى العقل المستقبل فى أخس درجات الخشونة بالنسبة لما يكون قد وصل إليه علمه من عظم قدر الله تعالى ، فكيف لا يرعوى الإنسان بعد ذلك كله ويعتقد أن كمال الله فوق كل كمال ، وأن التهجم على فتق الحجب التى تحجبنا عن ذاته بمسابير هذا العقل الاعتيادى القاصر جريمة لا تغتفر ، وأن الواجب على كل ذى فطرة سليمة أن يكتفى منه بما فى وجدانه من الإحساس بوجوده مقراً بالعجز عن تناول علم ذاته ؟ هذا هو التنزيه فى الإسلام ، الذى آب إليه أصحاب الديانة الفطرية الطبيعية ، بعدما أرتهم علومهم التجريبية أن ادعاء الإحاطة بسر هذه المادة المحسوسة جهل فاضح ، فما بالك بسر الأسرار ومشرق الأرواح والأنوار . قال الفيلسوف «فلاماريون» مندهشاً من عظمة الله تعالى ، ومستهجنا عقل من يتجارأ على تحديده «اللهم ما أكبرك : من ذا الذى تجاسر وسماك لأول مرة ، ومن ذلك المتكبر المجنون الذى حاول لأول مرة أن يعرفك بتعريف : يا ألله ، يا ألله ؛ يا قوة غير متناهية ؛ يا رحمة غير محدودة ؛ يا لا نهاية سامية ؛ يا من لا تدرك ذاته العقول» أليس هذا التنزيه الذى يفخر به علماء العصر الحاضر ، ويعدونه علامة لرقى العقل الإنسانى ، وخطوة جديدة للفلسفة الدينية ، أليس هو إلا ترديداً لقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . «العجز عن درك الإدراك إدراك» ، وقول على كرم الله وجهه : هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام

لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناوله علم ذاته ، ردعها وهى تجوب فى مهاوى سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت معترفة أنه لا ينال بالاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » .

هذه هى عقيدة المسلمين فى تنزيه خالقهم عن مشاكلة المخلوقين، وقد رأيت أنها النقطة التى آب إليها النوع الإنسانى بعد ماطاف على كل دور خيالى، وارتطم بكل عقبة فى سبيل العودة إليها .

هذا شأن الإسلام من حيث طهارة العقيدة وملاءمتها لما يعده أساطين فلسفة العصر ديناً فطرياً طبيعياً لملاءمته لحاجات النفوس وانطباقه على نواميس الخليقة . أما آثار هذا الدين على همم معتقديه من حيث الترقيات المادية ، فما لم يرو لنا تاريخ الأديان مثلها لأى دين من الأديان . جاء هذا الدين إلى تلك الأمة الصغيرة وهى من معاداة المدنية بمكان ، ظنت معه أن حالة البداوة هى أرقى أحوال الإنسانية، وغالت فى ذلك، فعدت سكنى القصور والاعتصام بالحصون من بعض مسبات الفرس والروم ، فلم يمض عليها غير بضع وعشرين سنة حتى دبت فيها روح جديدة ، وسرت فى عروقها حياة غير التى كانت لديها من قبل ، ولم يدر عليها قرن بعد تلك الحركة حتى استولت على صولجان العظمة والسلطة ، ووطئت بلاداً لم تكن تعرف اسمها وارتقت فى الوجود مكاناً أقر به جميع فلاسفة الغرب ، قال العلامة (دروى) أحد وزراء المعارف السابقين فى فرنسا فى تاريخه : « بينما أهل أوربا تائهون فى دجى الجهالة ، لا يرون الضوء إلا من سم الخياط ؛ إذ سطع نور قوى من جانب الأمة الإسلامية : من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك، حيث كانت مدائن بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت فى الأمم ، واغتنم منها أهل أوربا فى القرون

المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية لا حصر لها » . وقال فى سجيتهم فى كافة المحاولات الإنسانية : « وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الأوقات ، ثم لما امتدت سلطنتهم من البرينية ـ وهى جبال بين فرنسا وأسبانيا إلى جبال هماليا التى بأقصى شمال الهند ـ صاروا أكبر تجار الأرض . وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها ؛ إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف فى مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة ، فسيرتهم فى ذلك ـ العامل بها إلى الآن أهل روضة أسبانيا ـ صالحة أن نجعلها أسوة نقتدى بها فى فلاحتنا الفرنساوية . وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعاً لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة ، حتى صاروا من أحذق أربابها » .

وقال فى سعة سلطانهم : « قد امتد ملكهم فى ظرف مائة سنة من ظهور الإسلام مثل ما يمتد عظيم الخلقة فاتحاً ذراعيه لا لتقاط شىء ، فبلغ من أقصى الهند إلى جبال (بيريليه) الكائنة بين فرنسا وأسبانيا ، وقدر امتداد هذا الملك من ألف وسبعمائة إلى ألف وثمانمائة فرسخ ، ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية » . وقال « سديو » فى تاريخه : « بعد ظهور النبى صلى الله عليه وسلم الذى جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً ، ظهرت للعيان أمة كبيرة ، مدت جناح ملكها من نهر تاج فى اسبانيا إلى نهر الجانج فى الهند ، ورفعت على منار الإشادة أعلام التمدن فى أقطار الأرض ، أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها فى القرون المتوسطة » ثم قال « إنهم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم ، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التى عثروا عليها ، بل اجتهدوا فى توسيع دوائرها ، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول فى عجائبها » ثم استشهد بقول « اسكندر همبولد » : « إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطىء نهر الفرات إلى الوادى الكبير باسبانيا ، وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم ، لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم

أثرت فى الدنيا تأثيراً لا يعتبه بغيره ، فكانوا فى طبيعتهم مخالفين لبنى إسرائيل الذين لا يطيقون مخالطة أحد من الناس ، فإنهم خالطوا غيرهم من غير أن يختلطوا به ، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ، ولا ينسون أصلهم الذى خرجوا منه ، وما أخذت أمة الجرمانيا من التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب ، فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم ، فحيثما حلوا حل معهم فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة ، وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التى هى أساس بنى عليه (المنسينفر والتربودو) أشعارهم » .

والإسلام ـ بعد ذلك كله ـ يأمر بالتراحم والتعاطف ، وينهى عن التدابر والتشاحن ؛ وينبهنا إلى ما بيننا من رابطة يجب تقديسها ، فقال جل وعلا فى سورة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم » ، فانظر إلى ما بدأ به من تقرير الأخوة بين المؤمنين : يرتب عليها الأمر بالإصلاح بينهم ، معبراً عنهم بعنوان الأخوة ، ترغيباً فى الإصلاح وحثاً عليه ، ثم يردفه بالأمر بتقوى الله ، لينبههم إلى أن هذا من تقوى الله ، ويرتب عليه أنه باب لرجاء الرحمة العامة ، تشمل المصلح ومن أصلحه ؛ ثم ينبههم بعد ذلك إلى اقتلاع أسباب الفساد التى تتسرب إلى الناس وهم فى غفلة من عواقبها ، وهى سخرية بعضهم من بعض . فكم تورط ساخر فى سخرية يتلهى بها ولا يفطن لعواقبها ، فإذا بها تجر إلى شر مستطير وفساد كبير .

وما أجمل ما يعلل النهى عن السخرية بما يعود على المؤمن بمحاسبة نفسه ، والنظر إلى ما فيها من نقص يجب أن يعنى بتكميله ، بدل الخوض فى عيوب

خيره والسخرية منه ! وذلك يتجلى فى قوله عز وجل : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » . ثم يردف هذا بسد الباب وإغلاق منافذ الشر، الضيقة فى مبدئها، المتسعة فى نهايتها ؛ فنهى عن اللمز، والتنابز بالألقاب ، وعد ذلك فسوقاً ممقوتاً لا ينبغى صدوره من مؤمن ، وجعله من الظلم البين ، بل جعل عدم التوبة منه مما يقذف به فى زمرة الظالمين ، أو يجعله كأنه هو الحقيق وحده بلقب الظالمين . وبعد ذلك أخذ على النفوس مسالك التردى فى تلك الهاوية : بإبعادهم عن الاسترسال فى الظنون السيئة ، واتباع الهواجس الشيطانية . كل ذلك وهو ينبه فيهم قوة الإيمان ، ويرشدهم إلى طريق الانتفاع بإيمانهم حيث يبدأ كل أمر من ذلك بالنداء « يا أيها الذين آمنوا » أفترى بعد هذا وضوحاً فى تعليم الإسلام ، سواء أكان فى تربية النفوس على التزام العبادة ، أم فى تعويدها الأخلاق الفاضلة ، أم فى تنفيرها من الرذائل الضارة ؟ إنك لا تكاد تجد أمراً بشىء أو نهياً عن شىء إلا وقد اقترن بما يحببه إلى النفوس ، ويرغبها فيه بأجلى بيان وأوضح أسلوب. انظر إلى الترغيب فى الأمر بالمعروف بالحسنى ، تجد قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ، وفى نهيه عن إساءة الأدب مع المخالفين مهما كبر إجرامهم ، حيث يقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » تجد التأديب الصحيح فى الأسلوب الفصيح ، والنصح الصريح .

هذا هو الإسلام فى نقائه وصفائه ، وهو هو الرابطة الضخمة بين المسلمين عامة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو الذى وحد بين شعوب العرب ، وبين شعوب الشرق حتى اليوم ؛ وحد بينها فى كل شىء ، حتى فى الأحاسيس والعواطف والآمال والآلام . ولقد عاش المسلمون كافة طول عصور التاريخ أمة واحدة وحكومة واحدة فى أغلب الأمر ، وفى كثير من العصور ؛ ويجب أن تقام دعائم الوحدة الإسلامية من جديد بين المسلمين ، وأن تنشأ الولايات المتحدة الإسلامية ، على نمط الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، وأن تكون القومية الإسلامية هى العامل الأول فى حياة المسلمين ، وما القومية العربية

التى تنادى بها اليوم إلا جزء من القومية الإسلامية ، فهى تأخذ من القومية الإسلامية : الوحدة فى اللغة والجنس والتاريخ والدين ، تأخذ منها كل خصائص هذه القومية ومميزاتها ، ولكن لا تنتمى إلى هذا الرباط المقدس الأبدى ، رباط الإسلام الكريم . . الذى يجب أن نعود إليه من جديد ، ولو قد فعلنا ذلك لكان المجد والتاريخ والحضارة والقوة وكل شىء بين أيدينا ورهن أمرنا ؛ ولكن قاتل الله العصبيات الحقيرة ، والنفوس المريضة ، والتخاذل الأليم الذى يعيش فيه المسلمون اليوم . . إن مشروع الولايات المتحدة الإسلامية لو ظهر لكان خير اعتصام بحبل الله ، ولكان جمعا لشعوب المسلمين فى ظلال وحدة قوية ملؤها الحب والإخاء والصفاء والتعاون ، ولكن إذا فاتنا ذلك اليوم ، فنرجو أن يكون فى الغد القريب ، وأن نستعيض عنه مؤقتا بولايات متحدة عربية ، تكون دولة واحدة ، وحكومة واحدة ، وجيشا واحداً ، يدافع عن حمى العرب والمسلمين ، ويلوذ بظله الحائرون المستعبدون المضطهدون المستعمَرون من العرب ، حتى يكتب لهم الله الفوز والنصر والفلاح والتوفيق .

١٠٤ — وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

١٠٥ — وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

١٠٦ — يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

١٠٧ — وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

١٠٨ — تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ .

١٠٩ — وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

ست آيات كريمة ترشد إلى وجوب الوحدة والتعاون والإخاء على الحق والعدل والمساواة ، وعلى البر والخير والرحمة والمودة والصفاء ، وعلى المثل الكريمة والقيم الباقية ، وعلى العلم والمعرفة والثقافة ، وعلى أكرم معانى الحياة وأرفعها ، وترشد هذه الآيات إلى مضار الفرقة ونتائجها ، وإلى سخط الله منها ومن الداعين إليها ، ويتوعد الله عز وجل بالعذاب الشديد فى الآخرة هؤلاء الداعين إلى الخلاف والخصومة والفرقة بين الناس .

وفى آخر هذه الآية تمجيد لآيات الله وقدرته وسلطانه فى العالمين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ولتكن منكم أمة » أى طائفة « يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف ترتب الأمر فى إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة ، وعلى هذا فالمخاطب به الكل على الأصح ويسقط بفعل البعض ، وهو على هذا فرض كفاية ، فإن يتركوه أصلا أثموا جميعا ، ويجوز أن يكون المعنى : وكونوا أمة تأمرون كقوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف « وأولئك » أى الداعون الآمرون الناهون « هم المفلحون » أى الفائزون بكمال الفلاح ، روى الإمام أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر : من خير الناس ؟ قال : آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله وخليفة كتابه ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع

فلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم . وروى أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية ، يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها إذا استقى مر بالماء على الذى من أعلاها فتأذوا به ، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : مالك؟ فقال : تأذيتم بي ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يده أنجوه وأنجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم .. وعن حذيفة : يأتى على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وعن سفيان الثورى : إذا كان الرجل محبا فى جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن .

والأمر بالمعروف تابع للمأمور به ، إن كان واجبا فواجب ، وإن كان مندوبا فمندوب ، وأما النهى عن المنكر أى الحرام فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح ، والأظهر أن العاصى يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره ، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر ، وإنما يجب الأمر والنهى على المكلف إذا لم يخش ضررا ، ويجب أن يدفع بالأخف فالأخف ، فإن قيل : الدعاء للخير عام فى التكاليف من الأفعال والتروك ، فهو شامل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فما فائدة ذكر ذلك ؟ أجيب بأنه من عطف الخاص على العام إيذانا بفضله كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » عن دينهم « واختلفوا » فيه وهم اليهود والنصارى « من بعد ما جاءهم البينات » أى الآيات والحجج الموجبة

للاتفاق على كلمة واحدة وهى كلمة الحق،وقيل: هم مبتدعة هذه الأمة ، وهم المشبهة والجبرية والحشوية وأشباههم. وقوله تعالى « وأولئك لهم عذاب عظيم » وعيد للذين تفرقوا وتهديد للمشبهة بهم « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » هو يوم القيامة ، فن كان من أهل نور الحق وُسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت ، وسعى النور بين يديه وعن يمينه . ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسم بسواد اللون وكسوفه ، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب « فأما الذين اسودت وجوههم » فهم الكافرون ، فيلقون فى النار ويقال لهم توبيخا « أكفرتم بعد إيمانكم »،واختلفوا فى كيف كفروا بعد إيمانهم ، فقال أبى بن كعب : أراد به الإيمان يوم الميثاق، وعلى هذا هم جميع الكفرة ، وقال الحسن : هم المنافقون تكلموا بالإيمان بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم ، وعن عكرمة أنهم أهل الكتابين آمنوا بأنبيائهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا به ، وقال قتادة : هم أهل البدع ، وقال أبو أمامة : هم الخوارج، ولما رآهم فى دمشق دمعت عيناه. وقال : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، قيل له : فما شأنك قد دمعت عيناك ؟ قال : رحمة لهم ، كانوا من أهل الإسلام فكفروا ، ثم قرأ هذه الآية ، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثير فأعاذك الله منهم . وقوله تعالى : « فذوقوا العذاب » أمر إهانة « بما كنتم تكفرون » أى بسبب كفركم أو جزاء كفركم « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله » أى جنته ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق بجهده فى طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله .

فإن قيل: كان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم ، فالجواب أن القصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم ، وفائدة قوله تعالى : « هم فيها خالدون » بعد قوله « ففى رحمة الله » أنه أخرج مخرج الاستئناف والتأكيد،كأن قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقال « هم فيها خالدون » لا يظعنون عنها ولا يموتون « تلك » أى هذه الآيات الواردة فى الوعد والوعيد « آيات الله نتلوها عليك »

يا محمد « بالحق » أى متلبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء « وما الله يريد ظلما للعالمين » أى يستحيل الظلم منه ، لأنه لايجب عليه شيء بل هو المالك على الإطلاق ، كما قال الله تعالى ، ولله مافى السموات وما فى الأرض » أى ملكا وخلقا « وإلى الله ترجع » أى تصير « الأمور » أى فيجازى الناس كافة على ما عملوا من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

١١٠ — كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ .

١١١ — لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .

١١٢ — ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ .

ثلاث آيات كريمة ، وجه الخطاب فيها إلى أمة الإسلام ، وأتباع محمد عليه السلام ؛ وتضمنت أولاها تشريفا وتكريما لهذه الأمة العظيمة ، التى حملت لواء الإسلام ، ونشرت دعوة محمد عليه السلام فى كل البقاع والأقطار والأرجاء ، وتضمنت كذلك دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بشريعة محمد وأتباعه ، والعمل برسالته ، كما تضمنت الثانية وعدا إلهيا كريما بمنع ضرر الكافرين عن المؤمنين ، وبإلقاء الرعب فى قلوب أهل الكتاب من المسلمين ،

واحتوت الثالثة على تصوير ما لحق ويلحق بأهل الكتاب من الكافرين والمعادين للإسلام من الذلة الملازمة لهم ، ومن الهوان اللاحق بهم ، ومن سوء المصير بسبب جرائمهم وجرائرهم وكفرهم وإصرارهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وعصيانهم ، واعتدائهم على حرمات الله . .

ثلاث آيات كريمة حرى بكل مسلم أن يتأملها ، ويتدبر معناها ، ويعى فحواها ، ويفتخر بمفاخره فيها ، ويجتهد فى طاعة الله والعمل بشريعة الإسلام التى هى مصدر عزه وفخره ومجده .

يقول الله عز وجل فى أولى هذه الآيات «كنتم» يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى علم الله تعالى «خير أمة أخرجت» أى ظهرت «للناس» وقيل: كنتم فى الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين بذلك ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «ألا وإن هذه الأمة توفى سبعين أمة هى آخرها وأكرمها على الله تعالى» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : «مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره ؟» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون من هذه الأمة» .

وقوله تعالى «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» استئناف بين به كونهم خير أمة ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم .. وقوله تعالى «وتؤمنون بالله» يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن نؤمن به ؛ لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به : من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه ، فكأنه غير مؤمن بالله ، وأخر «تؤمنون بالله» وحقه أن يقدم ، لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانا بالله وتصديقا به وإظهارا لدينه ، واستدل بهذه الآية على أن إجماع هذه الأمة حجة ، لأنها تقتضى كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر ، فلو أجمعوا على باطل كتحريم

شيء هو في نفس الأمر معروف كان أمرهم على خلاف ذلك « ولو آمن أهل الكتاب » بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم « لكان » الإيمان « خيرا لهم » مما هم عليه ، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرياسة واستتباع العوام « منهم المؤمنون » كعبد الله بن سلام وأصحابه « وأكثرهم الفاسقون » أى المتمردون في الكفر « لن يضروكم » أى اليهود يا معشر المسلمين بشيء « إلا أذى » أى ضررا يسيرا، مثل السب والطعن في الدين والتهديد ونحو ذلك « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » أى منهزمين ، ولا يضروكم بقتل أو أسر « ثم لا ينصرون » عليكم بل لكم النصر عليهم، وفي هذا تثبيت لمن أسلم منهم لأنهم كانوا يؤذونهم بأنهم كانوا لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى إلى ضرر يبالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل ، ورفع الفعل هنا « ينصرون » ليفيد أن نفي النصر وعد مطلق كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها أو أبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، كما أخبر عن حال بني قريظة والنضير ويهود خيبر. ومعنى التراخي في ثم هنا ليفيد أن التراخي في الرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار « ضربت عليهم الذلة » أى الصغار في النفس والمال والأهل وذل التمسك بالباطل والجزية « أينما ثقفوا » أى حيثما وجدوا، فلا عز لهم ولا اعتصام في سائر أحوالهم « إلا » أى في حال اعتصامهم « بحبل من الله » أى بذمة من الله أو كتابه « وحبل من الناس » أى بذمة من المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ، أي لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية أو دين الإسلام « وباءوا » أي رجعوا « بغضب من الله » أي مستوجبين له « وضربت عليهم المسكنة » كما يضرب البيت على أهله ، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها - وفسر أكثر المفسرين المسكنة بالجزية - وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه ، « ذلك » أى الكفر والقتل وضرب الذل والمسكنة والتبوؤ بالغضب « بأنهم » أى بسبب أنهم « كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون

الأنبياء بغير حق ذلك ، أى الكفر والقتل ، بما عصوا وكانوا يعتدون ، أى بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله ، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر ، والإصرار على الكبائر يفضى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وفى الإسلام ومنزلته من الشرائع السماوية ورد الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : جاءت ملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم :إنه نائم وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : فالدار الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله عز وجل ، ومحمد فرق بين الناس .

وفى شرح الإسلام وبيان بساطة مبادئه وسموها ، وخلق صاحب الرسالة الأعظم ، ورد الحديث الشريف عن ابن عباس رضى الله عنه أن أبا سفيان ابن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء [1] ؛ فدعاهم وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، فدعا بالترجمان فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قال أبو سفيان فقلت : أنا أقربهم . فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألنى

---

(١) هى بيت المقدس .

عنه أن قال : كيف نسبه فيكم؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه؟ قلت : نعم ؟ قال : فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال مناو ننال منه، قال : فماذا يأمركم؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان : قل له : إنى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله وسألتك هل كان فى آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسين[1] ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا. ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» قال: قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا فقلت لأصحابي: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بنى الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام.

وإلى هنا ينتهى الربع الأول من الجزء الرابع من أجزاء القرآن الكريم، وقد احتوى على تكذيب الله عز وجل لليهود فى افترائهم وبهتانهم وكذبهم على الله وادعائهم أن محمدا ليس على شريعة إبراهيم ، وأنهم هم الذين ساروا على شريعته ؛ كما تضمن الرد عليهم فى ثلبهم للمسلمين حين حولوا وجوههم فى القبلة إلى الكعبة والبيت الحرام، لأن الكعبة هى أول بيت للعبادة وضع للناس ، ولأنه قد باركه الله وجعله هدى للعالمين ، وفيه مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا .. فهذا شأن الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ، وهذا دين إبراهيم كان هو الإسلام ، وهذه هى الكعبة رفع إبراهيم وإسماعيل قواعدها ، وطهراها للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وهذا هو نبى الإسلام محمد بن عبد الله كان دعوة أبيه إبراهيم ، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .

واحتوى هذا الربع كذلك على فرض شريعة الحج فى الإسلام ، ثم تضمن حجاجا لأهل الكتاب وإفحاما لهم، وردا عليهم ، وتوبيخا لهم على كفرهم وصدهم الناس عن سبيل الله ودينه القويم، وفيه تحذير للمؤمنين بالاحتراس من كيد الكافرين،

---

(١) أى الفلاحين وعامة الشعب ، أى عليك مسئولية بقائهم على ما هم عليه ومسئولية عدم إيمانهم .

والحذر من مكائدهم ومكرهم وفتنهم ، وفيه كذلك دعوة المؤمنين بالاعتصام جميعا بحبل الله ودينه وكتابه الحكيم ، وبشكر الله عز وجل على سابغ نعمه وعميم كرمه ، وعلى إنقاذه للعرب وجمعهم تحت كلمة واحدة وراية واحدة ، بعد أن كانوا أعداء متفرقين متحاربين ، وفيه كذلك دعاء للمسلمين بأن يحرصوا على الدعوة للخير ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ففى ذلك سعادة لهم وفوز وفلاح فى دنياهم وأخراهم ، وأن يبتعدوا عن الخلاف والتفرق وخاصة فى الدين ، ولا يكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا وانقسموا شيعا وأحزابا من بعد ما جاءتهم البينات ، ومن أجل ذلك استحقوا عذابا شديداً من الله فى الآخرة ، التى يفوز فيها المؤمنون ، ويخسر فيها الكافرون . ثم اشتمل هذا الربع أيضا على تمجيد شأن الإسلام والمؤمنين به ، وعلى التنويه بهم ووصفهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ثم وصفهم الله عز وجل بأوصاف ثلاثة : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله . وقد سبق أن دعا الله عز وجل فى هذا الربع المؤمنين أو جماعة منهم إلى الدعوة إلى الخير ، وفى مقدمة هذا الخير دين الإسلام ، وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك لعظم أمر هذه الصفات الثلاث ، ولكبير منزلتها وشأنها عند الله .. وفى هذا الربع دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بشريعة الإسلام ، ورفع ضررهم الكبير عن المسلمين والإسلام ، والتنبؤ لهم بمصير مظلم تضرب عليهم فيه الذلة والمسكنة ، ويلازمهم غضب الله ، بسبب كفرهم بالدين الحق ، وقتلهم الأنبيائهم بغير حق ، وعصيانهم واعتدائهم على شرائع الله وحرماته .

والدعوة إلى الخير التى وردت فى هذا الربع تشمل الدعوة إلى الدين الحق ، وإلى كل خير عام ينفع الانسان فى أولاه وأخراه . وذلك سبب لحفظ كيان العقيدة فى النفوس بالعقل والحجة والبرهان .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شرطان أساسيان لحفظ نظام المجتمع والأمة سليما بعيدا عن التدهور والانهيار ، وهما كثيرا ما تسببا فى ردع الطغاة

عن طغيانهم ، والظالمين عن ظلمهم ، وفى الدعوة إلى الحق والخير وصالح الأفراد والجماعات والشعوب .

وقد اشتمل هذا الربع كذلك فيما اشتمل عليه ـ على نداءين من الله عز وجل للمؤمنين ؛ وأول هذين النداءين قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنو إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الخ ؛ وثانى هذين النداءين قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » الخ .. والنداء الأول تحذير من الله للمؤمنين بأن لا يستمعوا إلى أهل الكتاب، وأن لا يطيعوهم ، لأنهم لا يريدون للإسلام والمسلمين إلا شرا ، أما النداء الثانى فدعوة إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى العمل الصالح المصحوب بخوف الله وخشيته ، والحذر من غضبه وعذابه الشديد .

١١٣ — لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

١١٤ — يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

١١٥ — وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ .

١١٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

١١٧ — مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

خمس آيات كريمة ، فيها تصوير لطائفتين من أهل الكتاب : طائفة مؤمنة ، وأخرى كافرة ، طائفة آمنوا بالله وباليوم الآخر وبمحمد ، وطائفة كفروا واغتروا معتزين بأموالهم وأولادهم .

أما الآية الأولى من هذه الآيات الخمس فهي قوله عز وجل «ليسوا سواء» أي ليس أهل الكتاب مستوين في أحوالهم ، وفي إيمانهم وكفرهم . وقوله تعالى : «من أهل الكتاب أمة قائمة» أي مستقيمة ثابتة على الحق ، وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام ، قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . . «ويتلون آيات الله» أي يقرأون كتاب الله «آناء الليل» أي في ساعاته «وهم يسجدون» أي يصلون ، لأن التلاوة لا تكون في السجود ، واختلف المفسرون في معناها ، فقال بعضهم : هي قيام الليل ، وقال ابن مسعود : هي صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها ، لما روى أنه صلوات الله وسلامه عليه أخرها ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم .

ثم وصف الله تعالى تلك الأمة القائمة بصفات أخرى فقال « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك» أي الموصوفون بما ذكر «من الصالحين» أي ممن صلحت أحوالهم عند الله ، واستحقوا رضاه وثناءه ، أما الأمة الأخرى فهي غير قائمة ، بل منحرفون عن الحق غير متعبدين بالليل ، مشركون بالله ، ملحدون في صفاته ، متباطئون عن الخيرات ، فترك هذه اكتفاء بذكر أحد الفريقين .

وقوله تعالى «وما يفعلوا من خير فلن يكفروه» أي يعدموا ثوابه بل يجازون عليه ، أي الأمة القائمة ، وقوله تعالى «والله عليم بالمتقين» بشارة لهم وإشعارا بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل ، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى «إن الذين كفروا لن تغني» أي تدفع «عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله» أي من عذابه «شيئاً» وخص الأموال والأولاد بالذكر ؛ لأن الإنسان يدفع

عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ، وأولئك أصحاب النار ، أى ملازموها ،هم فيها خالدون، أى ماكثون أبدا ،مثل، أى صفة ،ماينفقون ، أى الكفار ، فى هذه الدنيا ، أى فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ونحوها ،كمثل ريح فيها صر ، قال أكثر المفسرين : فيها برد شديد ، وحكى عن ابن عباس أنها السموم الحارة التى تقتل ، وقيل فيها صر أى صوت ، أصابت حرث، أى زرع، قوم ظلموا أنفسهم، أى بالكفر والمعاصى،فأهلكته ، عقوبة لهم ، لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ ، والمعنى : مثل إهلاك ماينفقون كمثل إهلاك ريح الزرع فلم ينتفعوا به ، فكذلك نفقة هؤلاء ذاهبة لا ينتفعون بها ،وما ظلمهم الله، بضياع نفقاتهم ،ولكن أنفسهم يظلمون، أى بالكفر الموجب لضياعها ، ويجوز أن يعود الضمير لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم الله تعالى بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة .

١١٨ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ .

١١٩ — هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

١٢٠ — إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

ثلاث آيات بليغة فى التحذير من اتخاذ الأصدقاء والناصحين من غير المسلمين وخاصة فى شئون الإسلام والدين .. فإنهم لايقصرون فى الفساد والبوار والهلاك للمسلمين ، بل كثيرا مايودون ضررهم ، وكثيرا ماتنطق ألسنتهم بعبارات البغضاء للدين وأهله ، والإسلام وأمته . والذى كمن فى صدورهم أكبر مما ظهر على ألسنتهم عند إعمال العقل والرأى ..

وقوله تعالى فى الآية الأولى « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة » أى أصفياء وأصدقاء تطلعونهم على سركم ثقة بهم ، شبهوا ببطانة الثوب ، كما شبهوا بالشعار ، قال عليه الصلاة والسلام فى الأنصار : « الأنصار شعار ، والناس دثار » والشعار : مايلبس فوق الجسد ، والدثار : فوقه .. وقوله تعالى « من دونكم » أى من دون المسلمين ، أى غيركم من الكفار والمنافقين .. « لايألونكم خبالا » أى لايقصرون لكم فى طلب الفساد . والإلواء : التقصير ، وتقول : لا آلوك نصحا : على تضمن معنى المنع أو النقص ، والمعنى : لأمنعك نصحا ولا أنقصك منه شيئا .. « ودوا » أى تمنوا « ما عنتم » أى عنتكم ، والعنت هو شدة الضرر ، وما ـ هنا : مصدرية .. « قد بدت البغضاء » أى ظهرت الموجدة والضغينة والحقد « من أفواههم » أى شفاههم وألسنتهم . وفى كلامهم بالوقيعة فيكم واطلاع المشركين على سركم لايتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم ، وعن قتادة : قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضا على ذلك « وما تخفى صدورهم » من العداوة والغيظ « أكبر » أى أعظم مما بدا ؛ لأن ظهوره لم يكن عن روية واختيار « قد بينا لكم الآيات » أى الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين ، وموالاة المؤمنين ومعادات الكافرين « إن كنتم تعقلون » مابين لكم ؛ فلا توالوهم « ها أنتم أولاء » ها للتنبيه وأنتم كناية عن المخاطبين ، وأولاء إسم للمشار إليهم وهم المؤمنون ، وقوله تعالى « تحبونهم » أى هؤلاء الذين نهيتكم عن مصادقتهم للأسباب التى بينكم من القرابة أو الرضاع أو المصاهرة أو المصالح المالية المشتركة أو غيرها « ولايحبونكم » لمخالفتهم لكم فى الدين ، بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبدون محبتهم لأهل

البغضاء «وتؤمنون بالكتاب كله» أى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفى هذا توبيخ شديد للمؤمنين، بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم، ونحو هذا قوله تعالى «فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» «وإذا لقوكم قالوا آمنا» أى نفاقا وتغريرا «وإذا خلوا» أى خلا بعضهم ببعض «عضوا عليكم الأنامل» أى أطراف الأصابع «من الغيظ» أى شدة الغضب لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم، ويعبر عن شدة الغضب بعض الأنامل كناية أو مجازا وإن لم يكن ثم عض فيوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام «قل موتوا بغيظكم» أى ابقوا إلى الممات بغيظكم، فلن تروا مايسركم فى المؤمنين، وقوله تعالى «إن الله عليم بذات الصدور» أى بما فى القلوب، وهذا يحتمل أن يكون من مقول القول السابق، أى وقال لهم كذلك: إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفون من عض الأنامل غيظا، ويجوز أن يكون خارجا عن القول بمعنى: قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعى إياك على أسرارهم؛ فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم «إن تمسسكم» أى تصبكم أيها المؤمنون «حسنة» أى نعمة، كنصر وغنيمة وخصب فى معاشكم وتتابع الناس فى دينكم «تسؤهم» أى تحزنهم «وإن تصبكم سيئة» أى إساءة، كهزيمة وجدب واختلاف يكون بينكم «يفرحوا بها» المعنى أنهم متناهون فى عداوتكم، فلم توالونهم؟ فاجتنبوهم، ووصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؛ لأن المس مستعار بمعنى الإصابة، فكأن المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» ويجوز أن يكون القرآن الكريم قد عبر بالمس للدلالة على أن حصول أقل نعمة للمؤمنين يسوء الكفار، والشىء إذا مسك فقد انتفعت به نفعا أقل مما لو أصابك وحصل فى يديك «وإن تصبروا» على أذاهم «وتتقوا» الله فى موالاتهم وفى غير الموالاة «لا يضركم كيدهم شيئا» بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين. وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أنه يجب أن يستعان على كيد الأعداء بالصبر والتقوى، وقد قالت الحكماء: إذا أردت أن تكبت عدوك ومن يحسدك فازدد فضلا فى نفسك.. «إن الله بما يعملون محيط» أى عالم فيجازيهم به.

فى هذه الآيات الثلاث تحذير للمؤمنين من اتخاذ الناصحين والمستشارين من الكفار وأهل الكتاب ، فإنهم أكثر تمنيا لضرر المسلمين ولسوء أحوالهم ، وفى هذا عظة للسلمين الذين يستعينون بالمستشارين الأجانب فى شئون السياسة وفى شئون الاقتصاد وفى شئون كثيرة ، وكثيرا مايكون هؤلاء المستشارون من الأمم المستعمرة التى لاتريد الخير للسلمين . . وكثيرا مايطلع هؤلاء المستشارون على أوضاعنا الداخلية وينقلونها لأممهم ، فتطلع أولا بأول على كل أسرارنا وشئون حياتنا ، وتجتهد فى العمل على تأخيرنا ، وفى إبداء النصح والشورى لنا بما يعود علينا بالضرر والوبال والدمار وسوء المصير . وفرق بين هذا وبين الاستعانة بالخبراء الأجانب فى مشكلة من مشكلاتنا الصناعية أو الاقتصادية مثلا ، فالضرورة تبيح لنا ذلك بقدر ، وبشرط عدم الثقة الكاملة بهؤلاء الخبراء ، وبشرط عدم إطلاعهم على أسرارنا ، وعدم ترك وثائقنا تحت بصرهم وفى أيديهم ؛ وكثيرا ماكان الخبراء الأجانب ضدنا ، وكثيرا ماكتبوا تقارير هى خلاف الحقيقة ، فيجب أن لا نركن إليهم كل الركون ، فقد كان الخبراء الأجانب فى مصر يقولون : إن الصناعة لا يمكن أن تقوم فى بلادنا ، وكثيرا مانصحونا بنصائحهم ، التى فيها تأخرنا وضعفنا وانحطاطنا . إن أبناء المستعمرين لا يمكن أن يكونوا صادقى النية فى خدمتنا ولا فى الإخلاص لنا ، فيجب التحفظ من قبلهم ، والاحتراس من كيدهم ؛ والعجب لكثير من الأمم الإسلامية ، التى تفتح دواوينها للخبراء وتضع وثائقها وأسرارها بين أيديهم ، وتعتمد عليهم اعتمادا كثيرا فى كل شئونها ، ثم تطلب لنفسها السلامة والنجاة لا ، لايمكن أن يكون ذلك وعين المستعمر ترقبنا ، وتأخذ بخناقنا ، وتدمر نهضتنا ، وتعرقل تقدمنا ورخاء شعوبنا .

هذا وكتاب الله الكريم يضع للمؤمنين الحدود الفاصلة بين من يصح مخالطتهم والتعاون معهم من المخالفين لنا فى الدين ومن لا يصح لنا ذلك معه ، كما يبين مدى هذا التعاون وحدوده ، وهو لم يجعل مجرد المخالفة فى الدين سببا من أسباب الحرب والخصام ، أو من أسباب التقاطع وعدم التعاون ، وإنما

جعل السبب فى ذلك العداء الذى يدفع المخالفين إلى إيذاء المسلمين وفتنتهم عن دينهم، وإخراجهم من ديارهم وأوطانهم ، وسلب حقوقهم ، وخنق حرياتهم ، والاعتداء عليهم ؛ ولذلك يقرر الإسلام حسن معاملة المخالفين الذين لم يكن لهم من عداوة المؤمنين مايدفعهم إلى البغى والعدوان ، « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

١٢١ — وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٢٢ — إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

١٢٣ — وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

١٢٤ — إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ .

١٢٥ — بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

١٢٦ — وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

١٢٧ — لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ .

١٢٨ — لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ .

١٢٩ — وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

تسع آيات كريمة ، تذكر المؤمنين والرسول صلوات الله عليه بأسرار هزيمة أحد ، وتذكرهم بالنصر الكبير الذى نالوه فى بدر ، هذا النصر الذى كان بشرى وطمأنينة للمؤمنين ، وكان شرا وهزيمة وكبتا للكافرين .

قال الله تعالى : « وإذ » أى واذكر يا محمد الوقت الذى حدث فيه هذا الفضل الإلهى عليك وعلى المسلمين . وذكر الوقت ذكر لما حصل فيه ، لشكر الله أولا ، وللعظة والاعتبار والتدبر والإفادة من التجارب ثانياً .. « غدوت من أهلك » أى من منزل أهلك ، من حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها « تبوئ » أى تنزل « المؤمنين مقاعد » أى مراكز يقفون فيها « للقتال والله سميع » لأقوالكم « عليم » بأحوالكم ؛ روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ؛ فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، ودعا عبدالله بن سلول ـ ولم يدعه قط قبلها ـ فاستشاره ، فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخل علينا إلا وأصبنا منه فكيف وأنت فينا ، فدعهم ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس[1] وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأى ، وقال بعض أصحابه : اخرج بنا إلى هؤلاء المعتدين حتى لا يرون أنا قد جبنا عنهم وضعفنا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى قد رأيت فى منامى بقدا مذبحة حولى فأولتها خيراً ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة

(١) المحبس بكسر الباء : مكان لا ماء فيه ولا طعام .

وتدعوهم ، فقال رجال من المسلمين قد فاتهم يوم بدر ، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : أخرجنا إلى أعدائنا ، فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته أى درعه ، فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه ! ، وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، وأصبح من الشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، ونزل فى عروة الوادى وجعل ظهره من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال : انضحوا علينا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا « إذ » بدل من إذ قبله « همت طائفتان منكم » هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وهما جناحا العسكر « أن تفشلا » أى تجبنا عن القتال وترجعا ، روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى زهاء ألف رجل ، ووعدهم النصر إن صبروا ، وكان المشركون ثلاثة آلاف ، فلما بلغوا عند جبل أحد بالمدينة انعزل ابن أبى المنافق وثلاثمائة ، وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى وقال : أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم ، قال ابن أبى : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » فهم الجبان باتباعه فثبتهم الله ، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الزمخشرى : والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، وكما لا تخلو النفس فى الشدة من بعض الهلع ، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ، ويوطنها على احتمال المكروه « والله وليهما » أى ناصرهما « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى ليثقوا به دون غيره فينصرهم كما نصرهم ببدر .

ونزل ـ لما هزموا فى أحد ـ تذكرة لهم بنعمة الله « ولقد نصركم الله ببدر » وهو ما بين مكة والمدينة ، وهو اسم ماء كان لرجل يسمى بدرا فسمى به ، وقوله تعالى « وأنتم أذلة » أى بقلة العدد والسلاح والمال ، فإن قيل : كيف قال تعالى « وأنتم أذلة » وقد قال الله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فالجواب أنه بمعنى القلة وضعف الحال وقلة السلاح والمال كما مر ، فإن نقيض

ذلك هو العز وهو القوة والغلبة ، وروى أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، ولم يكن فيهم إلا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالا ، وربما كان الجمع يركبون جملا واحداً ، والكفار كانوا نحو ألف مقاتل ، ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة « فاتقوا الله » فى الثبات وعدم المخالفة « لعلكم تشكرون » أى نعمه التى أنعم بها عليكم .

وقوله تعالى « إذ تقول للمؤمنين » أى توعدهم تطمينا ـ ظرف لنصركم ، وقوله تعالى « ألن يكفيكم أن يمدكم » أى يعينكم « ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » أى من عند الله ، وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم مع قوة العدو وكثرته .

وقوله تعالى « بلى » إيجاب لما بعد لن ، أى بلى يكفيكم ، فإن قيل قد قال تعالى فى سورة الأنفال : « إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » ، فكيف قال هنا : بثلاثة آلاف ؟ فالجواب أنه أمدهم أولا بألف ثم صارت ثلاثة ، ثم صارت خمسة ، كما قال تعالى « إن تصبروا » أى على لقاء العدو « وتتقوا » أى الله فى المخالفة « ويأتوكم » أى المشركون « من فورهم » أى وقتهم « هذا » والفور العجلة والسرعة ، ومنه فارت القدر : اشتد غليانها وسارع ما فيها إلى الخروج « يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » اسم فاعل أو اسم مفعول أى معلمين ، وقد صبروا واتقوا ، وأنجز الله وعده لهم بأن قاتلت معهم الملائكة مؤيدين ، وعن عروة بن الزبير كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك ، وعن الضحاك : معلمين بالصوف الأبيض فى نواصى الدواب وأذنابها ، وقال أكثر المفسرين : إن الملائكة لم تقاتل فى غير يوم بدر ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : تسوموا فإن الملائكة قد تسومت « وما جعله الله » أى الإمداد أو النصر المفهوم من السياق « إلا بشرى » أى بشارة « لكم » أى بالنصر « ولتطمئن » أى ولتسكن « قلوبكم به » فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ، كما كانت السكينة لبنى إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم « وما النصر إلا من عند الله » لا من العدة والعدد ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة فى نصرهم

إلى مدد الملائكة ، وإنما أمرهم ووعدهم بشارة لهم وربطا على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر « العزيز » الذى لا يغالب « الحكيم » الذى ينصر ويخذل من يشاء بوسيط وبغير وسيط على مقتضى الحكمة والمصلحة « وقوله تعالى « ليقطع » متعلق بنصركم . أى ليهلك « طرفا » أى طائفة « من الذين كفروا » بالقتل والأسر ، وهو ما كان فى يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم «أو يكبتهم» أى يذلهم بالهزيمة ،والكبت شدة غيظ أو وهن يقطع فى القلب « فينقلبوا » أى فيرجعوا « خائبين » أى لم ينالوا ما راموه ، وأو للتنويع لا للترديد .

ونزل لما كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه فى أحد ، وقال : كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم « ليس لك من الأمر شىء » ، بل الأمر كله لله ، فاصبر إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم . وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن صفوان ابن أمية ، فنزلت هذه الآية . وقال قوم : نزلت فى أهل بئر معونة فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم ، أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل ، فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا ، وقنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسبى ، وقوله تعالى « أو يتوب عليهم أو يعذبهم » عطف على قوله «أو يكبتهم» ، و « ليس لك من الأمر شىء » اعتراض ، والمعنى أن الله مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا « فإنهم ظالمون » بالكفر ، وقيل إن « أو يتوب عليهم » بمعنى : إلى أن يتوب عليهم « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » أى ملكا وخلقا « فله الأمر كله ، والمقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله « ليس لك من الأمر شىء » ، والمعنى : إنما يكون ذلك لمن له الملك وليس هو لأحد إلا الله « وظاهر ما ذكر يدل على أن ذلك ورد للمنع من أمر كان صلى الله عليه وسلم

يريد أن يفعله ، وذلك الفعل إن كان بأمر الله فكيف يمنعه منه ، وإن كان بغير أمره فكيف يصح مع قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » ؛ ولكن الحق أن ذلك كان من ترك باب الأفضل والأولى ، فلا جرم أن أرشده الله تعالى إلى اختيار الأولى ، ونظيره قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله » فكأنه قال تعالى أولا : إن كان لابد أن تعاقب ذلك الظالم فلتكتف بالمثل ، وإن تركته كان ذلك أولى ، ثم أمره أمرا جازما بتركه فقال « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

وقوله تعالى « يغفر لمن يشاء » أى المغفرة ، أى لمن يشاء الله الغفران له ؛ أو للعبد الذى يشاء هو — أى العبد — المغفرة لنفسه ، « ويعذب من يشاء » أى تعذيبه ، أى لمن يشاء الله عذابه ، أو للعبد الذى يشاء هو — أى العبد — العذاب لنفسه ، ويفسر هذا قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » ثم قال صلوات الله وسلامه عليه ؛ « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » .

ولما كان لله عز وجل أن يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، إلا أن جانب المغفرة والرحمة غالب لا على سبيل الوجوب ، بل على سبيل التفضل والإحسان ، قال : « والله غفور » أى لأوليائه « رحيم » أى بعباده ، فلا يبادر بعذابهم .

فى هذه الآيات ذكر الله عز وجل رسوله الكريم بما حدث للمسلمين من الهزيمة فى أحد بسبب عصيانهم لرسول الله ، ومخالفتهم لقائدهم الحكيم ، ثم طالبهم بشكره على نصره لهم فى بدر ، هذا النصر العظيم الذى كان معجزة المعجزات والذى أقام للإسلام وطنا قويا مرهوب الجانب فى الحجاز ، والذى أعز الله به الإسلام والمسلمين ؛ وكان مقدمة لانتصار الرسول والمسلمين فى معاركهم مع المشركين والكفار ، ثم لانتصار خلفاء الرسول فى المعارك الكبرى التى حدثت بين الإسلام والمسيحية ، والوثنية . إنه لنصر خلدته الأيام ، ومضت بذكره الأعوام ، ودل على مستقبل الإسلام ، ووضع لبنة قوية

ودعامة متينة لصرح العزة المحمدية، والكرامة الإسلامية . بدر وأحد : يومان خالدان فى التاريخ الإسلامى ، لا ينساهما أحد ، ولا يستطيع أن يغض عنهما الطرف باحث فى نشأة الإسلام وحياة المسلمين ، ففى بدر نصر الإسلام والرسول نصرا مؤزرا ، وفى أحد منى المسلمون بالهزيمة بسبب مخالفتهم لأوامر قائدهم الأعظم ، ورسولهم الحكيم . . فى بدر قوة مؤمنة تكافح من أجل سلام دائم ضد وثنية متربصة وضد بحر لجى من الشرك والاستعباد والطغيان ؛ وفى أحد صراع ضخم بين دعاة السلام ودعاة الحرب ، بين أنصار الحق والعدالة وحريات الأفراد والمجتمعات والشعوب ، وبين جماعات فارغة تعيش فى الظلام، وتقتات بالأوهام ، وتريد أن تحجر على الإنسانية لتعيش كما كانت تعيش فى عصور البطش والقوة ، وفى ظلال شريعة الغاب والناب . فلقد كانت هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة مبدأ عهد جديد ، نال فيه الاسلام من التأييد والانتشار ما أقلق راحة قريش ، وزاد حنقهم عليه ، فمنعوا المسلمين من الحج ، وصادروا أموالهم ، وأغروا شعراءهم على هجو الرسول فنصب للرد عليهم ثلاثة ، منهم حسان بن ثابت الأنصارى ، وكان يقول له : شن الغارة على بنى عبد مناف ، فتالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام .

ولقد كان لشعرهم أثره فى ذلك الوقت على أنه لم يكن يكفى وحده لمقاومة تيار قريش، والدفاع عن أرواح المسلمين وكرامتهم، فلم يكن بد من سل السيف إلى جانب اللسان حتى يعملا معا عملا مجديا ، فاللسان للهداية والسيف للحماية .

وكما كان محمد صلى الله عليه وسلم سياسيا محنكا ، كان إلى جانب ذلك فارسا صنديدا ، خاض غمار الحروب مذ كان يافعا ، فقد حضر مع قومه فى صباه (حرب الفجار) و (حلف الفضول) ، وكان يهيء فيها النبال لأعمامه.

وقد أذن الله له بالقتال فى السنة الثانية من هجرته ، بعد أن حرمه عليه ، فى نيف وسبعين آية ، فبلغت غزواته سبعا وعشرين ، ووقع القتال منها فى تسع، بخلاف السرايا التى كان يبعث بها قواده ، وعدتها ثمان وأربعون ، ووقعت بدر التى انتصف المسلمون فيها من أعدائهم بالسيف لأول مرة ، يغذوهم الإيمان

العامر ، والعقيدة الراسخة ، وتحفزهم حمية الإسلام لإعلاء كلمة الحق ، والاستشهاد فى ميدانه .. ودار بينهما القتال؛ فانتصر المسلمون على قلتهم وهزموا قريشا ، فقتلوا من صناديدها سبعين، منهم أبو جهل ألد أعدائه ، وأسروا مثلهم واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا ، وانتهت فى ١٧ من رمضان سنة ٢هـ - ٦٢٤ م . ولما عاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل فداء بعض الأسرى بالمال ، والبعض ممن يعرف القراءة والكتابة بتعليم عشرة من الأنصار ، ولما بلغ خبر هذه الهزيمة أبا لهب عم النبى وأحد مناوئيه مات كمدا بعد سبع ليال .

وكبر على قريش أن تتلقى تلك الطعنة القاسية ممن كان بينهم بالأمس مضطهدا ضعيفا ، فتحركت فى نفوسهم عوامل الحقد والانتقام ، واجتمعوا فى ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان ، ومعه زوجته هند وجملة نساء، يضربن الدفوف تحريضا لهم على القتال ، والأخذ بثأر قتلى بدر ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم ونزل بجوار أحد ، وهو جبل شمال المدينة ، ثم أوقف خمسين رجلا ممن يجيدون الرمى على الجبل وأوصاهم قائلا : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » . ثم دار القتال يوم ١١ من شوال سنة ٣هـ - ٦٢٥م، وفيه قاتل المسلمون قتالا شديدا ، حتى كاد يتم لهم النصر، لولا أن طمع الرماة فى الغنيمة ، ففارقوا مكانهم ، وجاءت من خلفهم جماعة المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وأوقعت بهم شر إيقاع ، وأصابت حجارتهم النبى نفسه حتى وقع وكسرت رباعيته وشج فى وجهه ، وكانت عدة قتلى المسلمين سبعين رجلا ، والمشركين اثنين وعشرين ، ثم تحصن المسلمون فى الجبل ، ورأت قريش أنها أخذت بثأر قتلاها فكفت عن القتال . وفى هذه الغزوة مثلت هند وصاحباتها بالشهداء ، فجدعن الأنوف والآذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت هند بطن حمزة عم النبى ، ولاكت كبده ولم تسغها .

١٣٠ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

١٣١ — وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .
١٣٢ — وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

ثلاث آيات كريمة ، فيها دعوة إلى ترك الربا ، ونهى عنه ، وحث على تقوى الله ، وعلى الحذر من عذابه وسعير نار الآخرة ، وفيها حض على طاعة الله والرسول ، وما أروع ما رتب الله عز وجل الفلاح والفوز على هذه الطاعة ، فطاعة الله ورسوله — دون شك — هى سبب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وهى سبب كل خير يناله الإنسان ، ومصدر كل سعادة يحصلها ، وكل مجد يدركه .

وهذه الآيات تتصل بما قبلها اتصالا وثيقا ، وتدخل فى الموضوع بسبب ظاهر ، فإنه لما شرح الله عزوجل عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح فى أمر الدين والجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والتحذير فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً » وهو جمع ضعف ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك ، وهو الوصف ، بقوله تعالى « مضاعفة » بأن تزيدوا فى المال عند حلول الأجل وتؤخروا الطلب ، والتخصيص بالأضعاف المضاعفة بحسب الواقع ؛ إذ كان الرجل منهم مربى إلى أجل ثم يزيد فى الدين زيادة أخرى ، حتى يستغرق بالشىء الطفيف مال المديون ، وإلا فالربا حرام بلا مضاعفة ، بل هو من الكبائر مطلقا « واتقوا الله » بترك ما نهيتم عنه « لعلكم تفلحون » أى تفوزون ، ثم خوفهم الله تعالى فقال : « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى أفعالهم ، وكان بعض العلماء يقول : هذه أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه ، وفى الآية تنبيه على أن النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » أى فى الدنيا والآخرة ؛ وكما رتب الله عز وجل الفلاح على طاعة الله ورسوله فيما سبق ، رتب هنا على طاعة الله والرسول الرحمة التى

ينالها المؤمنون من عباده ، دليلا على أن طاعة الله سبب كل خير ، والوسيلة إلى كل مجد يناله الإنسان ؛ وذكر طاعة الله مقرونة بطاعة الرسول ، لأن طاعة الرسول من طاعة الله .

وبذلك ينتهى الربع الثانى من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، هذا الربع الذى تضمن التمييز بين طائفتين من أهل الكتاب : طائفة جمعت إلى إيمانها بكتابها ودينها الإيمان بالإسلام ، وطائفة كفرت برسالة محمد واغترت بمالها وجاهها ووقفت عقبة كأداء فى سبيل الإسلام . كما تضمن الإشارة إلى عدم جدوى أموالهم التى ينفقونها فى هذه الحياة الدنيا عليهم ، وإلى أنها لا تنفعهم شيئا ، ولا تدفع عنهم عذابا . . ونهى الله عز وجل المسلمين عن اتخاذ بطانة لهم من غير دينهم ، على نحو ما يفعل ملوك العرب اليوم ، من اتخاذ المستشارين الأجانب واصطناعهم ، ووضع مفاتيح النفوذ والسيطرة فى أيديهم ؛ ويبين الله تبارك وتعالى أن هذه البطانة السوء ، إنما تسعى لهدم الإسلام وتدمير قوة المسلمين ، وأنها تضمر فى نفسها الشر والعداء لأمة محمد عليه السلام ، وتفرح بالمحن تصيب المؤمنين ، وتحزن للخير ينالهم ، كما وقع للمشركين الذين طاروا فرحا لهزيمة محمد وأصحابه فى أحد ، ناسين هزيمتهم الكبرى فى بدر ، التى أعز الله بها الإسلام والمسلمين .. وينهى الله نهيا قاطعا عن الربا والتعامل به ، داعيا إلى تقوى الله وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وآية الربا التى وردت فى هـذا الربع هى أول آية نزلت فى تحريم الربا . والمقصود فى الآية هو هذا النوع من الربا الذى كان معروفا فى الجاهلية ، وهو ربا النسيئة ، وقد أجمع المسلمون على تحريمه . أما ربا الفضل فنى دخوله فيما حرمه القرآن أو عدم دخوله كلام بين العلماء . وللإسلام من تحريم الربا جانب إنسانى ، هو خلق التعاون والتعاطف بين الأغنياء والفقراء ، وجانب اقتصادى عملى أساسه تداول المال كيلا يكون دولة بين الأغنياء فحسب ، ولو طبق النظام الاقتصادى الإسلامى فى مجتمعنا ، لذهبت حجة القائلين بضرورة الربا فى محيطنا الإسلامى وهو ما نأمله ونرجوه .

١٣٣ — وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .
١٣٤ — ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ
وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .
١٣٥ — وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ
فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟
عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .
١٣٦ — أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ .

أربع آيات كريمة ، فيها دعوة إلى المبادرة بطاعة الله وامتثال أوامره ، وفيها بيان لصفات المتقين ، ولجزائهم الأوفى عند الله فى الآخرة .

ولما ذكر الله عز وجل الوعيد أتبعه بالوعد ، ترهيبا عن المخالفة ، وترغيبا فى الطاعة ، قال محمد بن إسحاق بن يسار : الآية الأولى معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم به يوم أحد ، و « لعل » و « عسى » فى أمثال ذلك دليل على عزة التوصل إلى ما جعل خبرا لهما ، ومن تأمل هذه الآيات وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة ، والتمنى على الله . .

وقوله تعالى « وسارعوا » أى بادروا وأقبلوا .. « إلى مغفرة من ربكم » أى إلى ما تستحق به المغفرة، كالإسلام والتوبة وأداء الفرائض والجهاد والتكبيرة الأولى والأعمال الصالحات ، « وجنة » أى وسارعوا كذلك إلى جنة « عرضها السموات والأرض » أى عرضها كعرضهما ، كقوله تعالى « عرضها كعرض السماء والأرض » ، وجمعت السماء وأفردت الأرض لأنها سبع سموات ، والأرض نوع واحد ، وذكر العرض للمبالغة فى وصف الجنة بالسعة لأن

العرض دون الطول ، يقول تعالى : هذه صفة عرضها فكيف طولها ، قال الزهرى : وإنما وصف عرضها ، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله تعالى ، وهذا على سبيل التمثيل ، لا أنها كالسموات والأرض لاغير ، بل معناه كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم، كقوله تعالى «خالدين فيها مادامت السموات والأرض » أى عند ظنكم ، وإلا فهما زائلتان . وروى أن جماعة من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين تكون النار ، وإذا جاء الليل فأين يكون النهار ، وسئل أنس عن الجنة : فى السماء أم فى الأرض ؟ فقال : وأى أرض وسماء تسع الجنة ، قيل : فأين هى ؟ قال : فوق السموات السبع تحت العرش ، وقال قتادة : كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع ، والنار تحت الأرضين السبع « أعدت » هيئت « للمتقين » أى للذين يتقون الله بفعل الطاعات وترك المعاصى ، وفى ذلك دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ، وقيل: إن الجنة والنار يخلقان بعد قيام الساعة، ثم وصف الله تعالى المتقين بصفات، فقال« الذين ينفقون » أى فى طاعة الله «فى السراء والضراء» أى فى العسر واليسر والأحوال كلها، لأن الإنسان لايخلو عن مسرة أو مضرة، فأول ماذكر من أوصافهم الموجبة للجنة: السخاء والجود - ولو بالقليل . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله قريب من النار ، والجاهل سخى أحب إلى الله من العالم البخيل «والكاظمين الغيظ» أى الممسكين عليه ، والكافين عن إمضائه مع القدرة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء . وروى : من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ، وروى: ليس الشديد بالصرعة، لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب. «والعافين عن الناس » أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ينادى مناد يوم القيامة : أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلايقوم إلا من عفا . وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه ،

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت .

وقوله تعالى « والله يحب المحسنين » يجوز أن تكون اللام فيه للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون ، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء ، وقوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة » أى ذنبا قبيحا كالزنا « أو ظلموا أنفسهم » أى بما دون الزنا كالقبلة ، وقيل الفاحشة مايتعدى إلى الغير ، وظلم النفس ما ليس كذلك « ذكروا الله » أى ذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم « فاستغفروا لذنوبهم » بالندم والتوبة ، واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال عطاء: نزلت فى أبى سعيد التمار، أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية ، وقال مقاتل والكلبى : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين ، أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف ، فخرج الثقفى فى غزاة واستخلف الأنصارى على أهله ، فاشترى لهم اللحم ذات يوم ، فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها وقبل يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه ، فلما رجع الثقفى لم يستقبله الأنصارى، فسأل امرأته عن حاله فقالت: لا أكثر الله فى الإخوان مثله ، ووصفت له الحال ، والأنصارى يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا، فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنه راحة وفرجا ، وقال الأنصارى : هلكت ، وذكر القصة ، فقال أبو بكر : ويحك أما علمت أن الله يغار للغازى مالا يغار للمقيم ، ثم أتيا عمر ، فقال عمر مثل ذلك، ثم أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال مثل مقالتهما ، فنزلت هذه الآية .. وقوله تعالى « ومن » أى لا أحد « يغفر الذنوب إلا الله » استفهام بمعنى النفى والمراد به وصفه سبحانه وتعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة « ولم يصروا على ما فعلوا » أى ولم يقيموا على قبيح فعلهم بل

أقلعوا عنه ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ، وروى : لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، وقوله تعالى « وهم يعلمون » حال من « يصروا » أى ولم يصروا على فعلهم عالمين به .

وقوله تعالى « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار » إشارة إلى الفريقين ، وقوله تعالى « خالدين فيها » أى مقدرين الخلود فيها ، إذا دخلوها . هذا ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون . كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم . فقول الزمخشرى فى الكشاف « وفى هذه الآيات بيان قاطع على أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات : متقون وتائبون ومصرون وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ، ومن خالف فى ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه » ، إنما هو جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة إذا مات مصرا لا يدخل الجنة ، والصحيح : أن كل من مات على الإسلام يدخل الجنة ، وهو تحت المشيئة ، إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه ؛ وقوله تعالى « ونعم أجر العاملين » أى ونعم أجر العاملين ذلك ، أى المغفرة والجنات ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد مؤمن أذنب ذنبا فيحسن الطهور ، ثم يقوم فيصلى ، ثم يستغفر الله إلا غفر له ، وروى : أى عبد أذنب ذنبا فقال : يارب أذنبت ذنبا فاغفر لى فقال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بها فغفر له ، فمكث ماشاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فقال : يارب أذنبت ذنبا آخر فاغفر لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت له ، فليعمل ما شاء أى ويستغفر فأغفر له ، وروى أنه تبارك وتعالى قال : يا ابن آدم ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ، ابن آدم إنك إن تلقنى بملء الأرض خطايا لقيتك بملئها مغفرة بعد أن لا تشرك بى شيئاً ، وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى . وعن بعض الزهاد : طلب الجنة بلا

عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور. وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة : جوزوا الصراط بعفوى، وادخلوا الجنة برحمتى، واقتسموها بأعمالكم .

١٣٧ — قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

١٣٨ — هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

١٣٩ — وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

١٤٠ — إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٤١ — وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

١٤٢ — أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

ست آيات كريمة تضمنت ما تضمنت من وجوب الاعتبار بمصائر الأمم السالفة ، وبنهاية الكافرين والمكذبين ، ومن التنويه بالقرآن الكريم وإرشاده ، ومن تسلية الرسول والمسلمين، وتخفيف آلامهم من أثر الهزيمة فى أحد ،وبيان أثر هذه الهزيمة فى تمحيص المؤمنين .

ومعنى قوله تعالى « قد خلت » أى مضت . « من قبلكم سنن » هى جمع سنة ، وهى الطريقة التى يكون عليها الإنسان ويلازمها ، ومنه سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أى قد مضت من قبلكم طريق فى الكفار بإمهالكم ، ثم أخذهم بالعذاب الشديد . « فسيروا » أى أيها المؤمنون . « فى الأرض

فانظروا كيف كان عاقبة ، أى آخر أمر « المكذبين ، أى للرسل من الهلاك ، فلا تحزنوا لغلبتهم ، فإنما نمهلهم لوقتهم . .

وقوله تعالى « هذا » أى القرآن الكريم « بيان للناس » أى عامة «وهدى» أى من الضلالة . « وموعظة للمتقين » أى خاصة « ولا تهنوا » أى تضعفوا عن قتال الكفار بما نالكم من القتل والجرح فى يوم أحد . « ولاتحزنوا » أى على ما أصابكم ، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وقتل من الأنصار سبعون رجلا : « وأنتم الأعلون » أى وحالكم أنكم أعلى شأناً منهم ، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم فى الجنة ، وأنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار ، أولأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ، أو هى بشارة لهم بالعلو والغلبة ، أى وأنتم الأعلون فى العاقبة « وإن جندنا لهم الغالبون » .

وقوله تعالى « إن كنتم مؤمنين » متعلق بالنهى بمعنى لا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بالله وقلة المبالاة بأعدائه أو متعلق بالأعلون . أى إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة « إن يمسسكم قرح » أى جهد من جرح ونحوه يوم أحد « فقد مس القوم » أى الكفار « قرح مثله » يوم بدر ، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا، فأنتم أولى أن لا تضعفوا . فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، وقيل: بل مسهم قرح مثله يوم أحد ؛ فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم « وتلك الأيام » الأيام تطلق على الزمن المخصوص ، وتطلق على المعارك والحروب « نداولها » أى لهذا يوم ولهذا يوم ، والصحيح أن المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة أى نصرفها « بين الناس » قال البغوى : فيوماً عليهم ويوماً لهم ، فكان النصر للسلمين على المشركين يوم بدر ، حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ، وأديل تارة للكافرين على المسلمين وهو يوم أحد، حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم جعل عبد الله بن جبير على الرجالة يوم أحد ، وكانوا خمسين رجلا ـ فقال : إن

رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، فهزموهم ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : والله لنأتين فلنصيبن من الغنيمة ، فكر عليهم المشركون ، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنى عشر رجلا وأصاب المشركون منهم سبعين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر كثيرا من الأسرى وسبعين قتيلا ؛ فقال أبو سفيان : أفي القوم محمد ؟ ثلاث مرات ـ فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ ثلاث مرات ـ ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثلاث مرات ـ ثم رجع إلى أصحابه وهو يقول : أما هؤلاء فقد قتلوا ، فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسوءك ، قال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، ثم أخذ يرتجز : اعل هبل اعل هبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبوه ؟ فقالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبوه ؟ قالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، وفي حديث ابن عباس قال أبو سفيان : يوم بيوم ، وإن الأيام دول والحروب سجال ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه . لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، وإنما كانت الدولة يوم أحد للكفار على المسلمين ، لمخالفتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم « وليعلم الله الذين آمنوا » أي أخلصوا إيمانهم من غيرهم ، وظاهر هذه الآية أن الله تعالى إنما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم ، وذلك في حقه تعالى محال ، ونظير هذا الإشكال قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » ، وقوله تعالى : « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ، وقوله « لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا » ، وقوله « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم » ، وقوله : « إلا لنعلم من يتبع الرسول » ، وقوله « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ،

فظاهر هذه الآيات تدل على أنه تعالى إنما صار عالما بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها ، وأجاب المتكلمون عنه ، بأن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها، فثبت أن التغير فى العلم محال . إلا أن إطلاق العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور ، يقال : هذا علم فلان ، والمراد معلومه، وهذه قدرة فلان، والمراد مقدوره فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم ، وإذا عرف هذا فهذه الآية محتملة لوجوه : أحدها ليظهر المخلص من المنافق والمؤمن من الكافر، وثانيها : ليعلم أولياء الله ، وأضاف العلم إلى نفسه تفخيما ، وثالثها : ليحكم بالامتياز ، فأوقع العلم مكان الحكم بالامتياز ، لأن الحكم لا يحصل إلا بعد العلم ، ورابعها : ليعلم ذلك واقعا كما كان يعلم ما سيقع « ويتخذ منكم شهداء » أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم المستشهدون يوم أحد ، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الإسم يوم القيامة بما وجد منهم من الثبات والصبر على الشدائد ، كما قال تعالى : لتكونوا شهداء على الناس ، وقوله تعالى « والله لا يحب الظالمين » قال ابن عباس : أى المشركين ، كقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » ، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة ، وإنما ينصرهم أحيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين « وليمحص الله الذين آمنوا » أى يطهرهم من الذنوب بما أصابهم « ويمحق » أى يهلك « الكافرين » أى إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك ، مما هو أصلح لهم ؛ وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم .

« أم حسبتم » أى بل أحسبتم ، وأم مقدرة ببل ومعنى الهمزة الدلالة على الإنكار . . « أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » أى فى الشدائد والمحن والخطوب . والمعنى أن الجنة لا تنال إلا بالتضحيات ، وبعد امتحان عسير مرير ، وبعد تقديم العمل الذى يوصل إليها من الجهاد والصبر والتضحية والاستشهاد فى سبيل الله والحق ومثل الحياة الرفيعة ؛ ومن مثل الجهاد الرفيعة فى أحد استشهاد حمزة رضى الله تعالى عنه .

وقد ورد عن عبيد الله بن عدى أنه قال لوحشى: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الخيار ببدر، فقال لى مولاى جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر، فلما أن خرج الناس خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: ياسباع ياابن أم أنمار، أتحاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب، قال وكنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منى رميته بحربتى فأضعها فى ثنته حتى خرجت من بين وركيه، فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا فقيل لى: إنه لايهيج الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآنى قال: أأنت وحشى؟ قلت نعم، قال أنت قتلت حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ماقد بلغك، قال: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى؟ قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج مسيلمة الكذاب، فقلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقتله فأكافىء به حمزة، قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، فإذا رجل قائم فى ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، فرميته بحربتى، فأضعها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه، قال ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

١٤٣ — وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ.

١٤٤ — وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ.

١٤٥ — وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن

يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ

١٤٦ — وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلصَّٰبِرِينَ

١٤٧ — وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ .

١٤٨ — فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .

ست آيات بليغة ، فيها عزاء لصحابة رسول الله ، من أجل هزيمتهم فى أحد ، وفيها تقرير الاستهانة الموت ، وفيها الحث على الصلابة والقوة وشدة العزيمة، ونفى الضعف والاستكانة والوهن، وعلى الصبر وتعود الكفاح واللجوء إلى الله فى الشدائد ، وفيها بيان للثواب العظيم فى الدنيا والآخرة لمثل هؤلاء الصابرين الصامدين المكافحين .

وفى هذه الآيات حكم جليلة منها : قوله تعالى : وسيجزى الله الشاكرين. والله يحب الصابرين والله يحب المحسنين . وفى شرح كل حكمة من هذه الحكم الثلاث وبيان مغزاها ، ما يأخذ الكثير من الوقت دون الوصول إلى تجلية هذا الإعجاز ، وهذا السحر مع هذا الإيجاز .

وهذه الآيات تتمة لحديث الآيات الثلاث السابقة : « إن يمسسكم » حتى قوله تعالى « ويعلم الصابرين » ، وما أقرب روح هذه الآيات من قوله تعالى فى سورة البقرة ، فى تثبيت وتشجيع رسوله صلى الله عليه وسلم، وتشجيع المؤمنين

على الثبات والصبر بإزاء الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، عند ما أنكروا آياته وعادوه ، فقد خاطبه وخاطب المسلمين بقوله تعالى «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله» .

وقد تطابق المفسرون على أن المعنى أنهم « بلغ منهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ، وأضاف المفسرون بيانهم بأن معناه طلب النصر وتمنيه واستطالة زمان الشدة، ثم قالوا: وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم ، لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم؛ فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجروا، كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها » . واقرأ قوله تعالى في سورة يوسف : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » ومعلوم أن اليأس لا يكون إلا بعد انعدام الأمل، ولذلك قال علماء الدين في تفسير هذه الآية الكريمة : إن انتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم مدته وتمادت حتى استشعروا القنوط . ولا قنوط إلا بعد فوات الأمر المرجو أو الظن بمجرد فواته .

قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون » أي تتمنون « الموت » أي الحرب ؛ فإنها من أسباب الموت أو الموت بالاستشهاد في سبيل الله ، والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا ، لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة ، فألحوا يوم أحد على الخروج « من قبل أن تلقوه » أي تشاهدوه وتعرفوا شدته « فقد رأيتموه » أي الحرب أو الموت حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم «وأنتم تنظرون» أي تتأملون الحال كيف هي، فكيف انهزمتم.. «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» فسيخلو كما خلت الرسل بالموت أو القتل ، ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل ، فالتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولي على الأمر في الكمال ، وقد أكرم الله تعالى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جل وعلا ، هما : محمد وأحمد .

وقوله تعالى « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » إنكار لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل ، بعد علمهم بخلو الرسل، قيل: وبقاء دينهم متمسكا به ؛ فإن قيل: قوله تعالى فإن مات أو قتل ، شك وهو على الله محال ، فالجواب أن المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له فى ضعف الدين ووجود الارتداد ، قال ابن عباس وأصحاب المغازى : لما رأى خالد بن الوليد الرماة يوم أحد اشتغلوا بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية ، صاح فى خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزمهم وقتلوهم، ورمى عبد الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر، فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة ليعلوها ، وكان قد ظاهر بين درعين فلم يستطع، فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجب طلحة. .ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا، وبقرت هند كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، وأقبل عبد الله بن قميئة يريد قتل النبى صلى الله عليه وسلم فذب عنه مصعب بن عمير ، وهو صاحب راية النبى صلى الله عليه وسلم، فقتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجع وقال : إنى قتلت محمدا وصاح صارخ : ألا إن محمدا قد قتل ، فانكفأ الناس، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىّ عباد الله إلى عباد الله ، فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ، ورمى سعد بن أبى وقاص ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانة فقال : ارم فداك أبى وأمى ، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، فكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول : انثرها لأبى طلحة، وكان إذا رمى شرف النبى صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله، وأصيبت يد طلحة بن عبد الله فيبست ــ وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان

يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت أحسن مما كانت ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول : لا نجوت ، لا نجوت ؛ فقال القوم : يا رسول الله ألا نعطف عليه رميا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه حتى إذا دنا منه ـ وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : عندى فرس أعلفها كل يوم أقتلك عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله ـ فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمت ثم استقبله فطعنه فى عنقه وخدشه خدشة ، فخرعن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ، وهو يقول : قتلنى محمد ؛ واحتمله أصحابه وقالوا : ليس عليك بأس قال : بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم ، أليس قال لى : أقتلك ، فلو بصق على بعد تلك المقالة لقتلنى فلم يلبث إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له « سرف » . قال ابن عباس : اشتد غضب الله على من قتله نبي . واشتد غضب الله على من رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وفشا فى الناس أن محمدا قد قتل ، قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان ؛ وبعض الصحابة جلسوا والقوم بأيديهم ، وقال أناس من أهل النفاق : إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول . قال أنس بن مالك ياقوم : إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون فى الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ماقاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك ممن جاء به هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس ، فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك . وقال : عرفت عينيه تحت المغفر يزهران ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلى : أن أمسك ، فانحازت إليه طائفة من أصحابه ، فلامهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم على الفرار فقالوا : يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرغبت قلوبنا ، فولينا مدبرين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فإن قيل : إنه تعالى بين فى آيات كثيرة أنه عليه الصلاة والسلام لايقتل قال : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقال « والله يعصمك من الناس » وقال : « ليظهره على الدين كله » وإذا علم أنه لايقتل فلم قال أو قتل ؟ فالجواب أن هـذا ورد على سبيل الإلزام ، فإن موسى عليـه السلام مات ولم ترجع أمته عن دينه ، والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل ولم يرجعوا عن دينه ، فكذا هاهنا « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » بارتداده ، وإنما يضر نفسه « وسيجزى الله الشاكرين » على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » أى بقضائه ومشيئته ، أو بإذنه لملك الموت فى قبض روحه ، وقوله تعالى « كتابا » مصدر أى كتب الله ذلك « مؤجلا » أى مؤقتا لايتقدم ولا يتأخر فلم انهزمتم ، والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لايقطع الحياة ؟ ونزل فى الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة « ومن يرد » أى بعمل لأجل « ثواب الدنيا نؤته منها » ما نشاء مما قدرناه له ، كما قال تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » ، ونزلت كذلك فى الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا « ومن يرد » أى بعمله « ثواب الآخرة نؤته منها » أى من ثوابها « وسنجزى الشاكرين » أى الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب له . وقال صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . وقوله تعالى «وكأين» أصله «أى» دخلت الكاف عليها فصارت مركبة من كاف التشبيه ومن أى ، وجد فيها بعد التركيب معنى التكثير .

وقوله تعالى « من نبي » تمييز لكأين لأنها مثل كم الخبرية ، وقوله تعالى « قاتل » بفتح القاف وقرىء بضمها ، وقوله تعالى « معه ربيون » هو هو جمع ربي وهو العالم المتقي ، منسوب إلى الرب ، وإنما كسرت راؤه تغييرا في النسب ، وقيل : لاتغيير فيه وهو منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة ، وقوله تعالى « كثير » هو وصف مفرد لأن معناه جمع « فما وهنوا » أي جبنوا « لما أصابهم في سبيل الله » من الجراح ، وقيل : أنبيائهم وأصحابهم « وما ضعفوا » عن الجهاد « وما استكانوا » أي خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل : قتل نبيكم « والله يحب الصابرين » على الشدائد ، فيثيبهم ويعظم أجرهم « وما كان قولهم » عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم وكونهم ربانيين « إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا » أي تجاوزنا الحد ، « في أمرنا » بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضما لأنفسهم « وثبت أقدامنا » أي بالقوة على الجهاد « وانصرنا على القوم الكافرين » أي فهلا قلتم وفعلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم « فآتاهم الله ثواب الدنيا » أي بالنصر والغنيمة والعز وحسن الذكر « وحسن ثواب الآخرة » أي بالجنة والنعيم المقيم ، وخص ثوابها بالحسن إشعارا بفضله ، وإنه لمعتد به عند الله « والله يحب المحسنين » أي فيكثر لهم الثواب .

١٤٩ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ .

١٥٠ — بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ .

١٥١ — سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٥٢ — وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ
أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

هذه الآيات الشريفة الأربع تمثل نتائج معركة أحد تمام التمثيل ، وتمثل محاولات الكافرين والمنافقين لزعزعة المسلمين وزلزلة أقدامهم ، وبعث الخوف والهلع في نفوسهم ، وتمثل هذه التصورات الفاسدة التي كان يحاول الكافرون إلقاءها في قلوب المسلمين ، من حثهم على العودة إلى دين الشرك والوثنية ، ومن مثل التشكيك في أن محمداً رسول من عند الله ، ومن مثل بعث اليأس في قلوب المسلمين ، وسوى ذلك كله .

وتمثل كذلك فضل الله على المسلمين ، ودفاعه عن الإسلام ، ورعايته لهذا الدين القويم ، وصرفه المشركين عن تطويق المدينة والقضاء على مقر الرسالة المحمدية وعاصمة الإسلام .

وقد نزلت هذه الآيات في سياق الكلام عن غزوة أحد ، وكان المشركون وعلى رأسهم أبو سفيان ، والمنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي وأتباعهما ، قد جعلوا يبثون فتنتهم في ضعاف الإيمان ويقولون لهم : لو كان محمد رسولا من الله ما وقعت له هذه الواقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس ، يوما له ويوما عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه .. والكلام شامل لجميع المؤمنين المخاطبين ، ولجميع الكفار الذين ينهى الله عز وجل عن طاعتهم .. وقد تضمنت هذه الآيات :

١ — نهى الله المؤمنين عن طاعة الكافرين ، لأن طاعتهم انقلاب على الأعقاب ، وخسران في الدنيا والآخرة . وهذه حقيقة لا بد أن يذكرها المسلمون اليوم ، وأن يعوها وعياً كاملا ، وهي خير تذكير لرؤساء المسلمين الذين يلقون بأنفسهم في أحضان الاستعمار والمستعمرين ، ويسلمون للأمم الاستعمارية مقاليد شعوب الإسلام عن طريق الأحلاف والمعاهدات أو شركات الاحتكار الاستعمارية ، أو عن طريق استئجار القواعد الحربية في بلاد المسلمين ، أو غير ذلك من الوسائل .

٢ — تقرير ولاية الله للمؤمنين، وكفالته إياهم بالنصر وهو خير الناصرين، وهنا نقول: إنه يجب أن نكون مؤمنين حقا وصدقا، حتى يكون الله مولانا وينزل نصره علينا.

٣ — وعد الله تعالى بإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين بسبب إشراكهم.

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا» أى اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به. وقال على: يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم، ولو كان محمد نبيا ماهزم.

«يردوكم على أعقابكم» أى يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وإلى الشر بعد الخير .. «فتنقلبوا خاسرين» أى للدنيا والآخرة، أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء فى الدنيا الانقياد إلى العدو وإظهار الحاجة إليه، وأما خسران الآخرة فالحرمان من الثواب المؤبد، والوقوع فى العقاب المخلد الدائم إلى ما شاء الله.

«بل الله مولاكم» أى ناصركم وحافظكم على دينكم، وهو ولى نعمتكم لا هؤلاء الكافرون والمنافقون . . «وهو خير الناصرين» فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره، فهو الذى يثيب المجاهدين على جهادهم، ويجزى الصابرين على صبرهم، ويعطى الشاكرين أجر شكرهم.

«سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب» أى الخوف، وذلك أن الكفار لما هزموا المؤمنين فى أحد، أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوا ميدان المعركة وفروا منهم من غير سبب، وإلا لاقتحموا المدينة ودمروها وأزالوا كل أثر للإسلام . . يروى أن أبا سفيان صعد الجبل ونادى: يا محمد موعدنا موسم بدر لعام قابل إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله، وقيل: إنهم لما ذهبوا متوجهين إلى مكة، فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا وقالوا: مامنعنا شيئا، قتلنا أكثرهم ولم نبق منهم إلا الشريد، وتركناهم، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم «بما أشركوا» أى بسبب إشراكهم «بالله مالم ينزل به سلطانا» أى حجة على عبادته

وهو الأصنام ، أى لاليس لهم حجة أصلا ، وأصل السلطنة القوة « ومأواهم النار وبئس مثوى » أى مأوى « الظالمين » أى الكافرين هى « ولقد صدقكم الله وعده » قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة من أحد، وقد أصابهم ما أصابهم، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا؟ هذا وقد وعدنا الله النصر، فأنزل الله هذه الآية . لأن النصر كان للمسلمين فى الابتداء ، كما قال تعالى « إذ تحسونهم » أى تقتلونهم من (حسه) إذا بطل حسه « بإذنه » أى بإرادته « حتى إذا فشلتم » أى جبنتم على القتال « وتنازعتم » أى اختلفتم « فى الأمر » أى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمقام فى سفح الجبل للرمى حين انهزم المشركون، فقال بعضكم: نذهب فقد نصر أصحابنا ، وقال آخرون: لاتخالفوا أمر النبى فاثبتوا مكانكم ، فثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة ، ونفر الباقون للنهب ، وهو المعنى بقوله « وعصيتم » أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتركتم المركز لطلب الغنيمة « من بعد ما أراكم » أى الله « ما تحبون » من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ، أى منعكم نصره حين ذلك، ويجوز أن يكون المعنى : صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة ، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا مكانهم ولا يبرحوا ، سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم،ثم اشتغل بعضهم بالغنيمة كما قال تعالى « منكم من يريد الدنيا » وهم التاركون المركز للغنيمة « ومنكم من يريد الآخرة » وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا، وقوله تعالى « ثم صرفكم» أى ردكم بالهزيمة «عنهم» أى الكفار- عطف على ما قبله ، وقوله تعالى « ليبتليكم» أى ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره ، « ولقد عفا عنكم » أى ما ارتكبتموه من مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وميلكم إلى الغنيمة تفضلا منه تعالى .. وظاهر الآية يدل على أن هذا الذنب الذى ارتكبه الصحابة من الصغائر لصحة العفو عنه من غير توبة، لقيام الدليل على أن أصحاب الكبائر إذا لم يتوبوا لم يكونوا

من أهل العفو والمغفرة من الله ، ولكن مما لاشك فيه أن مخالفة صريح نص رسول الله صلوات الله عليه من كبائر الذنوب ، وخاصة لما ترتب على هذه المخالفة من نتائج خطيرة ومن هزيمة شاملة ، فلا بد إذن أن يكون هؤلاء الذين قد كانوا سببا فى الهزيمة قد أعلنوا التوبة أو أضمروها . «والله ذو فضل على المؤمنين» أى يتفضل عليهم بالعفو ، أو ذو فضل عليهم فى جميع الأحوال ، سواء كانت الدولة لهم أم عليهم ، إذ أن الابتلاء رحمة من الله . .

وإلى هنا ينتهى الربع الثالث من هذا الجزء ، وقد اشتمل على صفات المتقين وبيان جزائهم عند الله ، كما اشتمل على ضرورة اتعاظ المسلمين بالشعوب التى سبقتهم ، وبمصارع الأمم الكافرة التى مضت ، وفيه تمجيد للقرآن الكريم وتنويه بهدايته للناس عامة ، وللمتقين منهم خاصة . واشتمل هذا الربع بعد ذلك على ذكر هزيمة المسلمين فى أحد ، وعلى تسلية الرسول وأصحابه فيما أصابهم ، وتثبيت قلوبهم ، وتقوية صفوفهم ، وإبعاد وساوس الشيطان والكافرين عنهم ، وعلى بيان عفو الله عز وجل عنهم بسبب مخالفتهم لأمر نبيهم

وهذا الربع الثالث حافل بالعظات البليغة ، والحكم الرائعة ، والتوجيهات الصائبة الحكيمة .

١٥٣ — إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ
أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

١٥٤ — ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ

كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

١٥٥ — إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

١٥٦ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

١٥٧ — وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

١٥٨ — وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

ست آيات كريمة ، تحتوى على تصوير هزيمة المسلمين فى أحد وأسبابها ، وعلى الحث على ترك الأمور كلها لله ، وسواء مات الإنسان فى غير معركته ، أو قتل فى المعركة ، فإن الجميع آجالهم وأعمارهم وجزاؤهم بيد الله . ومصيرهم كذلك إلى الله الذى إليه يحشرون .

قوله تعالى « إذ » أى اذكروا إذ « تصعدون » أى تبعدون فى الأرض هاربين « ولا تلوون » أى تعرجون « على أحد » أى لا يقف أحد لأحد أى لا ينتظره « والرسول يدعوكم » أى يقول : إلىَّ عباد الله ، إلىَّ عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكر فله الجنة « فى أخراكم » أى من ورائكم « فأثابكم » أى

جازاكم « غما » بالهزيمة « بغم » أى بسبب غمكم الرسول بالمخالفة ، وقيل : الباء بمعنى على ، أى مضاعفا على غم فوت الغنيمة . والغم : الحزن، وكانت الأحزان هناك، كثيرة أحدها: غمهم بما نالهم من العدو فى الأنفس والأموال ، وثانيها: غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها ، وثالثها: غمهم بما وصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورابعها : غمهم بسبب التوبة التى صارت واجبة عليهم، لأنهم إذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم إلا بترك الهزيمة والعود إلى المحاربة بعد الانهزام ، وذلك من أثبت الأشياء ، لأن الإنسان بعد انهزامه يضعف قلبه ويجبن ، فإذا أمر بالمعاودة : فإن فعل خاف القتل ، وإن لم يفعل خاف عقاب الآخرة ، وخامسها: غمهم حين سمعوا أن محمدا قد قتل، وسادسها: غمهم حين أشرف عليهم أبو سفيان ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه، فقال: أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوه، وفرح صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به ، فأقبلوا على المشركين يذكرون الفتح ومافاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب ، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم ، فأنساهم هذا مانالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لاتعبد فى الأرض، ثم بدت أصحابهم فرموهم بالحجارة حين أنزلوهم ، وإذا عرفت ذلك فلا يضر اختلاف المفسرين .

وقال القفال : وعندى أن الله تعالى ما أراد بقوله « غما بغم » اثنين، وإنما أراد مواصلة الغموم والأحزان ، أى إن الله عاقبكم بغموم كثيرة ، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم ، فكأنه تعالى قال : أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زاجرا لكم عن الإقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى .

وقوله تعالى « لكيلا تحزنوا على مافاتكم » أى من الغنيمة « ولا ما أصابكم »

أى من القتل والهزيمة « والله خبير بما تعملون » أى عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها « ثم أنزل عليكم » يا معشر المسلمين « من بعد الغم أمنة » أى أمنا ، والأمن والأمنة بمعنى واحد، وقيل: الأمن يكون مع زوال سبب الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف ، وكان سبب الخوف هاهنا قائما . وقوله تعالى «نعاسا» بدل من « أمنة » ، «يغشى طائفة منكم » وهم المؤمنون « وطائفة » وهم المنافقون « قد أهمتهم أنفسهم » أى حملتهم على الهزيمة ، فلا رغبة لهم إلا إنجاؤها دون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يناموا، فإن الذين كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان : أحدهما الجازمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كانوا قاطعين بأن الله ينصر هذا الدين، وأن هذه الواقعة لا تؤدى إلى الاستئصال، فلاجرم كانوا آمنين ، وبلغ ذلك الأمن إلى حين غشيهم النعاس ، فإن النوم لايجىء مع الخوف ، قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه ، وقال ثابت عن أبى طلحة قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت ما أرى أحداً من القوم إلا ويميل من النعاس ، قال الزبير : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف، فأرسل الله علينا النوم ، والله إنى لأسمع قول معتب ابن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم ، يقول : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ؟ والفريق الثانى هم المنافقون ، كانوا شاكين فى نبوته صلى الله عليه وسلم ، وما حضروا إلا لطلب الغنيمة ، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم ، قال ابن مسعود : النعاس فى القتال أمنة ، والنعاس فى الصلاة من الشيطان. وذلك لأنه فى القتال لا يكون إلا من الوثوق بالله والفراغ من الدنيا، ولا يكون فى الصلاة إلا من غاية البعد من الله ، فإن قيل : مافائدة هذا النعاس، فالجواب أن له فوائد ، الأولى: أن السهر يوجب الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط ، والثانية أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله تعالى النوم على الباقين لئلا يشاهدوا قتل غيرهم فيشتد خوفهم ، والثالثة : أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة

فى تلك المعركة من أدل الدلائل على أن الله تعالى يحفظهم ويعصمهم ، وذلك مما يزيل الخوف من قلوبهم ويورث الأمن .

وقوله تعالى « يظنون بالله غير الحق » أى أن لا ينصر الله محمدا ، أى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يحق أن يظن به « ظن » أى كظن «الجاهلية» حيث اعتقدوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل أولا ينصر ، وقوله تعالى : « يقولون » أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم « هل لنا » أى ما لنا ، استفهام ومعناه الإنكار « من الأمر » أى النصر الذى وعدناه «من شىء» أى شىء و(من) صلة زيدت للتأكيد ، وقيل : إن عبد الله بن أبى لما شاوره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الواقعة أشار إليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن بعض الصحابة ألحوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يخرج إليهم ، فغضب ابن أبىّ من ذلك فقال : عصانى وأطاع الولدان ، ثم لما كثر القتل فى بنى الخزرج ورجع ابن أبى قيل له : قتل بنو الخزرج فقال: هل لنا من الأمر من شىء؟ يعنى إن محمداً لم يقبل قولى حين أشرت بأن لا نخرج من المدينة ، والمعنى: هل لنا أمر يطاع؟ فهو استفهام على سبيل الإنكار « قل » لهم يا محمد « إن الأمر كله لله » أى الغلبة الحقيقية لله ولأوليائه، فإن حزب الله هم المفلحون ،والقضاء له يفعل مايشاء ويحكم ما يريد .

وهذه الآية تدل على أن جميع المحدثات خلقها الله تعالى بقضائه وقدره ،لأن المنافقين قالوا: لو أن محمداً قبل منا رأياً ونصحا لما وقع فى هذه المحنة، فأجابهم الله تعالى بأن الأمر كله لله ، وهذا إنما ينتظم إذا كانت أفعال العباد بقضائه وقدره ، إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب رافعا لشبهة المنافقين، وقوله تعالى « يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » أى يظهرون ، أى يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون النصر ، مبطنين الإنكار والتكذيب ، وقوله تعالى « يقولون » بيان لما قبله « لو كان لنا من الأمر شىء » أى كما وعد محمد وزعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان الاختيار إلينا لم نخرج ، كما كان رأى ابن أبى وغيره « ما قتلنا هاهنا » أى لما غلبنا ، ولما قتل من قتل منا فى هذه المعركة « قل » لهم « لو كنتم فى بيوتكم » وفيكم من كتب الله عليه القتل « لبرز »

أى خرج «الذين كتب» أى قضى «عليهم القتل» منكم «إلى مضاجعهم» أى مصارعهم فقتلوا ولم ينجهم قعودهم، لأن قضاءه تعالى كائن لا محالة، فإنه قدر الأمور ودبرها فى سابق قضائه، لا معقب لحكمه، وقوله تعالى «وليبتلى» أى ليختبر «الله ما فى صدوركم» أى قلوبكم من الإخلاص والنفاق. وهذا علة لفعل محذوف تقديره: فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد ليبتليكم. وقوله تعالى «وليمحص ما فى قلوبكم» فيه وجهان: أحدهما: أن هذه الواقعة تخرج ما فى قلوبكم من الوساوس والشبهات وتظهرها، والثانى: أنها تصير كفارة لذنوبكم فيمحصكم من تبعات المعاصى والسيئات. فإن قيل: قد سبق ذكر الابتلاء فى قوله تعالى «ثم صرفكم عنهم ليبتليكم» فلم أعاده هنا؟ والجواب أنه أعيد إما لطول الكلام بينهما، وإما لأن الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين. والابتلاء الثانى بسائر الأحوال «والله عليم بذات الصدور» أى بما فى القلوب قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد، وتنبيه على أنه غنى عن الابتلاء وإنما يبتلى ليظهر للناس حال المؤمنين من المنافقين «إن الذين تولوا منكم» عن القتال «يوم التقى الجمعان» أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين، ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة عشر رجلا، ستة من المهاجرين وأبو بكر وعمر وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص «إنما استزلهم الشيطان» أى طلب منهم الزلل بوسوسته «ببعض ما كسبوا» من الذنوب بترك المركز والحرص على الغنيمة، ومخالفة النبى صلى الله عليه وسلم وأطاعوا الشيطان فمنعوا التأييد وقوة القلب حتى انهزموا «ولقد عفا الله عنهم» لتوبتهم واعتذارهم «إن الله غفور» الذنوب «حليم» لا يعاجل بعقوبته المذنب كى يتوب «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا» أى المنافقين وهم ابن أبى وأصحابه «وقالوا لإخوانهم» أى فى شأنهم، ومعنى إخوانهم أشباههم فى النفاق والكفر. وقيل: فى النسب «إذا ضربوا فى الأرض» أى ساروا فيها لتجارة وغيرها فماتوا «أو كانوا غزًّى» أى غزاة جمع غاز فقتلوا «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» أى لا تقولوا كقولهم «ليجعل الله ذلك» القول فى

عاقبة أمرهم « حسرة في قلوبهم » أى لأنهم إذا ألقوا تلك الشبهة على المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم ، فتحصل الحسرة فى قلوبهم، وقيل: إن اجتهادهم تكثير الشبهات وإلقاء الضلالات يعمى قلوبهم فيقعون عند ذلك فى الحسرة والخيبة وضيق الصدر ، وهو المراد بقوله تعالى « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » ، وقوله تعالى « إذا ضربوا » مع « قالوا » حكاية الحال الماضية، ومعناه: إنك تقدر نفسك كأنك موجود فى ذلك الزمان الماضى، أو تقدير ذلك الزمان كأنه موجود الآن ، وهذا كقولك : قالوا ذلك حين يضربون ، والمعنى حين ضربوا، إلا أنك جئت بلفظ المضارع استحضاراً لصورة ضربهم فى الأرض ، وقوله تعالى « والله يحيي ويميت » رد لقولهم أى هو المؤثر فى الحياة والممات لا الإقامة والسفر ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازى ويميت المقيم والقاعد « والله بما تعملون بصير » بالياء على الغيبة ردا على الذين كفروا وقرىء بتاء الخطاب ردا على قوله « ولا تكونوا » ، وهو خطاب للمؤمنين ، وفيه تهديد لهم على أن يماثلوهم « ولئن قتلتم » اللام هى الموطئة لقسم محذوف « فى سبيل الله » أى الجهاد « أو متم » أى أتاكم الموت فى سبيل الله ، وجواب القسم قوله تعالى « لمغفرة من الله » وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده لكونه دالا عليه « ورحمة » أى من الله فحذف صفتها لدلالة الأولى عليها ، ولا بد من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره « لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم » والمغفرة هى الرحمة فلم كررها ونكرها ؟ ، قيل : إنه إنما نكرها إيذانا بأن أدنى وأقل شىء خير من الدنيا وما فيها ، وهو المراد بقوله « خير مما تجمعون » أى من الدنيا ، وأما التكرير فغير مسلم، لأن المغفرة مرتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر ، فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا ؟ فالجواب أن الذى يجمعونه فى الدنيا قد يكون من الحلال الذى يعد خيرا ، وأيضا هذا ورد على حسب قولهم واعتقادهم أن تلك الأموال خيرات، فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التى يظنونها خيرات « ولئن متم أو قتلتم » على أى وجه اتفق هلاككم « لإلى الله » لا إلى غيره

« تحشرون » فى الآخرة فيجازيكم و « متم » بكسر الميم وقرىء بالضم ، وقرأ حفص «يحشرون» بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ، وقد تقدم الموت على القتل فى الأول والأخير ، وقدم القتل على الموت فى المتوسط ، فما الحكمة فى ذلك ؟ وأجيب بأن الأول لمناسبة ما قبله من قوله « إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى » فرجع الموت لمن ضرب فى الأرض والقتل لمن غزا ، وأما الثانى فلأنه محل تحريض على الجهاد، فقدم الأهم الأشرف، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

١٥٩ – فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ .

١٦٠ – إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

آيتان كريمتان تتحدثان عن أخلاق الرسول العظيم من رحمة ولين ورفق بأصحابه ، ومن حرص على التعاون والشورى والاستماع لأصحابه ، ومن إيمان وتوكل على الله ؛ وأن هذه الأخلاق النبوية ، والشمائل المحمدية ، هى التى تجعل الرسول حريا بأن يعفو عن أخطاء المخطئين ، وأن يستغفر للمذنبين ، وأن يتجاوز عن المقصرين منهم ، ممن كانوا سببا فى الهزيمة ، وممن قالوا وتحدثوا ووقعوا فيما وقعوا فيه حول هزيمة أحد ومعركتها الرهيبة .

هى الأخلاق المحمدية ، وهى المفاخر الإسلامية الجليلة ، التى صاغها القرآن الكريم عقود مدح لنبى الإسلام ، ورسول القرآن . . وعفا محمد وصفح عن المخطئين والمقصرين والمنافقين ، وترك لهم الحرية ، لم ينصب المشانق لهم ؛ ولم يقم المذابح فى الطرقات للقضاء عليهم ، ولم يلق بهم فى ظلمات

السجون ، إنما كان رحمة للمقصرين ، وسلاما للمخلصين ، ورؤوفا بالمؤمنين .

ووضع القرآن الكريم بأصل الشورى الذى أشاربه فى الآية الأولى من هاتين الآيتين ، مبدأ الديمقراطية الإسلامية ، ووضع أصل الحكم فى الإسلام ، وأنه يجب أن ينبنى على الديمقراطية وعلى الشورى وعلى التعاون وعلى الإخاء ؛ ومن الشورى ينبع الحكم النيابى ، الذى هو اليوم أساس الدساتير الحديثة .. كل هذا ألزم به القرآن محمدا عليه السلام ، وصنعه الرسول ونفذه ، فى عهد الهمجية والوحشية والاستعباد ، وفى عصور الفوضى والظلام والوثنية . وعفا الرسول وصفح ، وجعل مبدأه طول حياته أن يستشير أصحابه فى كل شىء ، وأن يرجع إلى آرائهم فى السياسة وشئون المجتمع ، وفى أمور الاقتصاد ، وفى الحرب والسلم ، وفى كثير من المواقف والمشكلات .

فليتذكر أعداء الإسلام كيف كان رسول الإسلام يعامل أصحابه ، وليعرفوا كيف كان أخلاق صاحب الرسالة ، وحامل أعباء الدعوة الإسلامية . أين ، أين ضعاف القلوب ، عميان البصائر ، الذين صغرت نفوسهم وسفلت أخلاقهم ، بما دب إلى عروقهم من دماء غير طيبة ؛ من الذين يحلو لهم الطعن فى الإسلام ورسول الإسلام ؟ أين ، أين أنصاف العلماء الذين يبخسون قومهم مفاخرهم التليدة المجيدة ، ولا يرون لهم من فضيلة فى هذه الحياة الدنيا ، حتى ولا التى يشهد لهم بها أهل أوروبا ؟ والذين يتقولون الأقاويل على محمد رسول الله؟ أين ، أين الذين أغواهم الشيطان فصاروا لا يرون للإسلام أثرا فى الحضارة والعمران ، وإذا حدثناهم به ، وأتيناهم بالدليل الساطع ، يتلوه البرهان الناصع ، قالوا : هذا محال ، وبعيد الاحتمال؟ ، أين ؟ أين أولئك المتحذلقون المتنطعون الذين يقنعون بقشور العلم ، ويتقممون بفتات موائد الإفرنج ، فيخرجون على الإسلام ، وعلى العروبة ، بكل منكر ونكير . . ويصفون الإسلام بأنه دين رجعى ؟ أين هؤلاء وهؤلاء ليأتونا بمثل هذه المآثر أو بما يدانيها ، عن أى قائد من قواد الأمم الأخرى ، فى أى عصر من أعصار التاريخ ، منذ ظهور الإنسان إلى هذه الساعة التى نعيش فيها اليوم فى عصر الذرة ؟ يمينا بالله

لو صدرت مثل هذه المآثر فى أية أمة من الأمم القديمة لا تخذت صاحبها إلها أو نصف إله ، أما المسلمون فقد اكتفوا بما جاء عن ربهم ، وهو أنه - أى النبى - بشر مثل كل الناس ، ولكن الله ميزه بالرسالة إلى جميع الناس ، وأنه جعله خاتم الأنبياء والمرسلين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين

وفى الآية الثانية يذكر الله عز وجل أن نصر الله هو دعامة كل توفيق ، وأن من كان معه نصر الله لن يستطيع أحد خذلانه ، ومن خذله الله لن يضع له الناس النصر ، فالله هو الناصر وهو المعين ..

قوله تعالى « فبما رحمة من الله » أى فبسبب رحمة الله برسوله ، وتنشئته له على الأخلاق السامية ، والآداب النبوية الجليلة .. « لنت لهم » أى ما كان لينه صلوات الله عليه للمؤمنين والصحابة إلا برحمة من الله ، ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم ، حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه .. « ولو كنت فظا » أى سيء الخلق .. « غليظ القلب » أى جافياً « لانفضوا » أى تفرقوا « من حولك » أى عنك ، وذلك لأن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول الكريم تكاليف الله تعالى وشريعته إلى الخلق ، وذلك لا يتم إلا بميل قلوبهم وسكون نفوسهم إلى صاحب الرسالة ، وإلى مقام الرسول الأعظم ، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيما بهم ، كريما يتجاوز عن ذنوبهم ، ويعفو عن سيئاتهم ، ويخصهم بالبر والشفقة ، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق ، وغلظ القلب ، ويكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء ، كثير القيام بإعانة الفقراء . وحمل القفال هذه الآية على معركة أحد ، قال : « فبما رحمة من الله لنت » يوم أحد ، حين عادوا إليك بعد الانهزام ، ولو كنت فظا غليظ القلب فأنحيت عليهم بالملامة على ذلك الانهزام لانفضوا من حولك ، هيبة منك ، وحياء ، بسبب ما كان منهم من الانهزام ، فكان ذلك مما يطمع العدو فيك وفيهم « فاعف » أى تجاوز « عنهم » أى ما أتوه « واستغفر لهم » ذنبهم حتى أشفعك فيهم ، فأغفر لهم ، واختلفوا فى معنى قوله تعالى «وشاورهم فى الأمر » على وجوه أحدها : أن ذلك يقتضى شدة محبته لهم ، فلو لم يفعل

ذلك لكان ذلك إهانة لهم ، فيحصل سوء الخلق والفظاظة ، وثانيها : أنه عليه الصلاة والسلام وإن كان أكمل الناس عقلا إلا أن عقول الخلق متناهية فى كمالها ، فقد يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر ببال آخر ، لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام : أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم ؛ وثالثها : قال الحسن وسفيان ابن عيينة : إنما أمر بذلك ليقتدى به فى غير المشاورة وتصير سنة ، ورابعها : أنه عليه الصلاة والسلام شاورهم فى وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج ، وكان ميله أن لا يخرج فلما خرج وقع ما وقع ، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك ، لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم شيء ، فأمره الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ، ليدل على أنه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة، وخامسها : أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأياً ، ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له .

وذكروا أيضا وجوها أخرى ، وفى هذا القدر كفاية ، واتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لا يجوز للرسول أن يشاور الأمة فيه ، لأن النص إذا جاء بطل الرأى « فإذا عزمت » أى قطعت الأمر على إمضاء ما تريد بعد المشاورة « فتوكل على الله » أى ثق به لا بالمشاورة . فليس التوكل إهمال التدبير بالكلية ، بل بمراعاة الأسباب ، مع تفويض الأمر إلى الله تعالى « إن الله يحب المتوكلين » عليه فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح « إن ينصركم الله » أى يعينكم على عدوكم كيوم بدر « فلا غالب لكم » أى فلا أحد يغلبكم « وإن يخذلكم » بترك نصركم كيوم أحد « فمن ذا الذى ينصركم من بعده » أى بعد خذلانه أى لا أحد ينصركم ، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل ، وتحريض على ما يستحق به النصر من الله ، وتحذير عما يستجلب خذلانه « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى فيخصونه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه ؛ لأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه .

١٦١ — وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر ، فقال بعض المنافقين : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها ، وقال مقاتل : نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة ، وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئاً فهو له ، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ؟ فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: بل ظننتم أنا نغل فى الغنيمة ولا نقسم لكم ، وقال محمد بن إسحاق بن بشار : هذا والوحى يقول : ما كان لنبي أن يكتم من الوحى رغبة أو رهبة . كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفيه سب دينهم وسب آلهتهم ، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم غنم فى بعض الغزوات وجمع الغنائم وتأخرت القسمة لبعض المواضع ، فجاء قوم وقالوا : لا تقسم غنائمنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لو كان لكم مثل أحد ذهبا ماحبست عليكم منه درهما ، أتحسبون أنى أغلكم مغنمكم ؟ فنزلت ، ومعنى قوله تعالى « وما كان لنبي أن يغل » أى وماصح لنبى أن يخون فى الغنائم ، فإن مقام النبوة تنافى الخيانة « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » قال أكثر المفسرين : إن هذه الآية على ظاهرها، قالوا وهو نظير قوله تعالى فى مانع الزكاة « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم « لا ألفين أحدكم يجىء على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء فينادى: يا محمد يا محمد ، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك، قال المحققون: وفائدته إذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته ، وعن ابن عباس أنه قال : يمثل له ذلك الشىء فى قعر جهنم ، ثم يقال له: انزل إليه فخذه، فينزل

إليه، فإذا انتهى إليه حمله على ظهره ، فإذا بلغ موضعه وقع فى النار، ثم يكلف أن ينزل إليه فيخرجه ، ففعل ذلك به ، وعن أبى هريرة : قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد ، فقال الناس: هنيئا له الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا والذى نفسى بيده . إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من الغنائم ثم لم يصبها المقاسم تشتعل عليه نارا ، فلما سمع ذلك الناس ، جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شراك من النار أو شراكان من نار ، وقال أبو مسلم : ليس المقصود من الآية ظاهرها ، بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى « إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أوفى الأرض يأت بها الله » ، فإنه ليس المقصود نفس هذا الظاهر ، بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فكذا هاهنا ، فالمقصود تشديد الوعيد ، وتقرير أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول، ويقدره عليه يوم القيامة ويجازيه ، لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية . وعن أبى حميد الساعدى قال : استعمل رسول الله صلوات الله عليه رجلا من أسد على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا ، فيقول : هذا لكم وهذا اهدى إلى ؟ فهلا جلس فى بيت أمه أو بيت أبيه ، فينظر أيهدى إليه أم لا ، فوالذى نفسى بيده لا يأخذ منها أحد شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء[1] ، ثم رفع يديه ، وقال : اللهم هل بلغت ؟ هل بلغت ؟ .

وقوله « ثم توفى كل نفس ما كسبت » أى تعطى جزاء ما كسبت أى عملت ، والمراد : من غل فى الغنيمة وغيرها ، فإذا كان كل كاسب مجزيا بعمله ، فالذى يغل فى الغنيمة مع عظم جرمه أولى بذلك : « وهم لا يظلمون » أى شيئا فلا ينقص من المطيع شىء من ثوابه ، ولا يزداد العاصى على عقوبته عقوبة .

---

(١) فى رواية : تيعر ، والثغاء : صوت الشاة .

١٦٢ — أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

١٦٣ — هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

١٦٤ — لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

ثلاث آيات كريمة تتحدث عن الرسول الكريم وأصحابه : من مؤمنين مخلصين ، ومن مؤمنين خالفوا أمره فى أحد ، ومن منافقين متربصين للإسلام .

وقوله عز وجل : « أفمن اتبع رضوان الله » الهمزة فيه للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف ، والتقدير : أفمن اتقى فاتبع رضوان الله « كمن باء » أى رجع « بسخط من الله » بسبب المعاصى « ومأواه جهنم وبئس المصير » أى المرجع هى أى جهنم ، واختلف فى المراد من هذه الآية ، فقال الكلبى والضحاك : أفمن اتبع رضوان الله فى ترك الغلول كمن باء بسخط من الله فى فعل الغلول ؟ وقال الزجاج : لما حمل المشركون على المسلمين ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى أن يحملوا على المشركين ، ففعله بعضهم وتركه آخرون ، فقوله « أفمن اتبع رضوان الله » ، وهم الذين امتثلوا أمره « كمن باء بسخط من الله » ، وهم الذين لم يقبلوا قوله ، وقيل : أفمن اتبع رضوان الله — وهم المهاجرون — كمن باء بسخط من الله — وهم المنافقون — وقيل : أفمن اتبع رضوان الله بالإيمان به والعمل بطاعته كمن باء بسخط من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته ؟ . وكل واحد من هذه الوجوه صحيح ، ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لأن اللفظ عام ، فيجب أن يتناول الكل ، وإن كانت الآية نزلت فى واقعة معينة ، لكن عموم اللفظ لا يبطل بخصوص السبب . هذا والفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع ، فإنه قد يوافق المبدأ . وقوله تعالى « هم درجات » أى الفريقان درجات . ولا بد من تأويل فى الإخبار

بالدرجات عن «هم» لأنها ليست إياهم، فيجوز أن يكون جعلوا نفس الدرجات مبالغة، والمعنى أنهم متفاوتون فى الجزاء على كسبهم، كما أن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة أى هم مثل الدرجات فى التفاوت، ويجوز أن يكون على حذف مضاف أى ذو درجات، أى أصحاب منازل ورتب فى الثواب والعقاب «عند الله»؛ فلمن اتبع رضوان الله الثواب ولمن باء بسخطه العقاب «والله بصير بما يعملون» أى عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها «لقد من الله على المؤمنين» أى أنعم على من آمن مع النبى صلى الله عليه وسلم، ووجه هذه المنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، لقوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فإن قيل: لم خصهم بالنعمة مع أن البعثة عامة؟ أجيب بأنهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى «هدى للمتقين» «إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم» أى من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة، ويكونوا واقفين على أحواله فى الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، وكانت بعثته منهم شرفا لهم، لا ملكا ولا أعجميا وقرىء شاذا «من أنفسهم» بفتح الفاء أى من أشرافهم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم، وقد خطب أبو طالب لما تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها، وقد حضر معها بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حفظة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. ولم أذكر فى التفسير قراءة شاذة إلا هذه، لكونها فى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم «يتلو عليهم آياته» أى القرآن بعدما كانوا جهالا لم يسمعوا الوحى «ويزكيهم» أى يطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والأعمال «ويعلمهم الكتاب» أى القرآن «والحكمة» أى السنة، بعد ما كانوا من أجهل الناس وأبعدهم من دراية العلوم، كما قال تعالى «وإن كانوا من قبل» أى قبل بعثته صلى الله عليه وسلم «لفى ضلال مبين» أى بين ظاهر.

١٦٥ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .
١٦٦ — وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .
١٦٧ — وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ
فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .
١٦٨ — الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ
فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .
١٦٩ — وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ
عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .
١٧٠ — فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

ست آيات بليغة تتحدث عن هزيمة أحد ، وعن الشهداء ومنزلتهم عند الله ، وعما يجب على المسلم الكريم أن يكون عليه حين المحنة ، ووقت اشتداد الخطوب ، وفى الأزمات والشدائد والأحوال . من صبر كريم ، وثبات قوى ، ومن إيمان وتفويض وتوكل على الله . رب الناس ، ورب النصر ، ومقدر الأقدار .

قوله تعالى « أو لما » أى حين « أصابتكم مصيبة » أى هزيمة كهزيمة أحد وقتل سبعين منكم « قد أصبتم مثليها » أى فى بدر إذ قتلتم من المشركين سبعين وأسرتم سبعين .. « قلتم » أى متعجبين مستغربين .. « أنى » أى من أين لنا .

بـ هذا ، أى القتال والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، والجملة الأخيرة فى موضع الاستفهام الإنكارى . . « قل ، لهم وهو من عند أنفسكم » أى مما اقترفته أنفسكم بمخالفتكم أمر الرسول ، وتركتم المركز الحربى الممتاز الذى وضعكم فيه رسول الله لحماية ظهر الجند الإسلامى ، فإن الوعد بالنصر كان مشروطا بالثبات فى مكانكم ، وإطاعتكم لأوامر قائدكم .

وقيل : هو من عند أنفسكم أى بسبب أخذكم الفداء من أسارى قريش بعد معركة بدر ، وبسبب ترككم للمشركين حتى استعدوا لكم استعدادا عسكريا جديداً وهزموكم فى أحد .. « إن الله على كل شىء قدير » أى فيقدر على النصر وعلى منعه ، وعلى أن تهزموا أعداءكم تارة ، ويهزمكم أعداؤكم تارة أخرى . وقيل : معنى قوله تعالى « قد أصبتم مثليها » هو هزيمة المؤمنين للمشركين يوم بدر وهزيمتهم إياهم أيضا يوم أحد - أول الأمر ، والمراد بالمصيبة الهزيمة ..

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان » أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد ، من القتل والجراح والهزيمة « فبإذن الله » أى فهو كائن بقضائه وإرادته « وليعلم المؤمنين » معنى : وليعلم الله كذا ، أى يميز أو يظهر للناس ما كان فى علمه « وليعلم الذين نافقوا » قال الواحدى : يقال : نافق الرجل فهو منافق إذا أظهر كلمة الإيمان وأضمر خلافها ، قيل : هو مشتق من نافقاء اليربوع لأن جحر اليربوع لها بابان : القاصعاء : والنافقاء ، فإن طلب من أيهما كان يخرج من الآخر ، فقيل للمنافق : إنه منافق ، وهو اسم إسلامى لأنه صنع لنفسه طريقين: إظهار الإسلام وإضمار الكفر ، فن أيهما طلب خرج من الآخر .. وقوله تعالى « وقيل لهم » عطف على نافقوا أى وليعلم الذين قيل لهم انصرفوا عن القتال وقالوا : لن نلقى أنفسنا فى القتل فرجعوا ، وهم عبدالله بن أبى وأصحابه ، وكانوا ثلاثمائة من الألف الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعالوا قاتلوا فى سبيل الله » الكفار « أو ادفعوا » عنا ، أى إن كان فى قلبكم حب الإيمان فقاتلوا للدين ، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم ، وقال السدى وابن جريج : ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا

جمعنا ، لأن الكثرة أحد أسباب الهيبة . وروى عن سهل بن سعد الساعدى وقد كف بصره : لو أمكننى لبعت دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم و بين عدوهم ، قيل : وكيف وقد ذهب بصرك ؟ قال لقوله تعالى « أو ادفعوا » أراد أكثر سوادهم ، واختلفوا فى القائل : فقال الأصم : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى القتال ، وقيل أبو جابر الأنصارى قال لهم : ذكركم الله أن لاتخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو « قالوا لو نعلم » أى نحسن « قتالا لاتبعناكم » فيه ، قال تعالى تكذيبا لهم « هم للكفر يومئذ » أى يوم إذ قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم « أقرب منهم للإيمان » أى لانقطاعهم وارتدادهم وكلامهم ، فإن ذلك أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم ، وقيل : المعنى : هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الإيمان . بما أظهروه من خذلانهم للمؤمنين ، وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر وفضلوا هنا على أنفسهم باعتبار حالين ووقتين ولولا ذلك لم يجز « يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، فهم وإن كانوا يظهرون الإيمان باللسان لكنهم يضمرون فى قلوبهم الكفر « والله أعلم بما يكتمون » أى عالم بما فى ضمائرهم ، وبما يخلو به بعضهم إلى بعض . فإنه يعلم ذلك مفصلا بعلم واحد وأنتم تعلمونه مجملا بأمارات « الذين قالوا لإخوانهم » أى لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم فى النسب أو فى سكنى الدار أو فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى « وقعدوا » أى قالوا : قاعدين عن القتال « لو أطاعونا » فى القعود « ما قتلوا » كما لم نقتل ، واختلف فى القائل ذلك فقال أكثر المفسرين : هو ابن أبى وأصحابه ، وقال الأصم : هذا لا يجوز لأن ابن أبى خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فى يوم أحد ، وهذا القول واقع ممن تخلف ، وفيه نظر ، لاحتمال أن المراد بالقعود : القعود عن القتال لا عن الخروج إلى القتال « قل » لهم « فادرأوا » أى ادفعوا « عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » فى أن القعود ينجى من الموت ، لأنكم إن دفعتم

القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه . وروى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا ، فإن قيل : ما وجه هذا الاستدلال ، فإن التحرز عن القتل ممكن ، وأما التحرز عن الموت فغير ممكن ، فالجواب أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلا فرق بين الموت والقتل ، وفى قوله تعالى « فادرأوا عن أنفسكم الموت » استهزاء بهم ، أى إن كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرأوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا .

ونزل فى شهداء أحد ـ كما رواه الحاكم ـ وكانوا سبعين رجلا : أربعة من المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شاس وعبد الله بن جحش ، وسائرهم من الأنصار «ولا تحسبن» أى ولا تظنن «الذين قتلوا فى سبيل الله » أى لأجل دينه ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل أحد «أمواتا بل أحياء عند ربهم » ليس المراد ـ بالعندية ـ القرب المكانى لاستحالته ، ولا بمعنى فى علمه وحكمه ، لعدم مناسبة المقام له ، بل بمعنى القرب تشرفا ورتبة : قال البيضاوى : وقيل نزلت فى شهداء بدر ، أى وكانوا أربعة عشر رجلا : ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ، وهو خطأ ، إنما نزل فيهم آية البقرة «يرزقون» رزقا روحيا ، وقيل رزقا ماديا ، كما قال تعالى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة « ويستبشرون » أى يفرحون بالذين لم يلحقوا بهم « من إخوانهم الذين تركوهم أحياء فى الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد ، لعلمهم أنهم إذا استشهدوا والحقوا بهم . ونالوا من الكرامة ما نالوا ، فلذلك يستبشرون « من خلفهم » أى الذين من خلفهم زمانا أو رتبة « أن » أى بأن «لاخوف عليهم» أى الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم « ولا هم يحزنون » فى الآخرة ، والمعنى أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمور الآخرة ، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، لايكدرون بخوف وقوع محذور ، ولا بحزن فوات محبوب . وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم ، بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة ، والجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل

الشهداء . وإصابة فضلهم ـ كحال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لإخوانه ، لأن الله تعالى مدحهم على ذلك .

وأخرج الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ـ وفى لفظ : قالوا من يبلغ إخواننا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هؤلاء الآيات . وأخرج الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وغيرهما من حديث جابر ابن عبد الله رضى الله عنه ، قال : لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياجابر مالى أراك منكسرا ؟ » فقلت يارسول الله استشهد أبى وترك عيالا وديناً فقال « ألا أبشرك بما لقى الله به أباك »؟ قلت بلى ، قال « ماكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وأحيا أباك فكلمه كفاحاً وقال : يا عبدى تمنّ على أعطك . قال : يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية . قال الرب تعالى: قد سبق منى أنهم لا يرجعون . قال أى ربى فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله هذه الآية » ، قالوا « ولا تنافى بين الروايتين لجواز وقوع الأمرين ونزول الآية فيهما معاً ، وأقول : إن الآية متصلة بما قبلها متممة له ، فإذا صح الخبران فهما من جملة وقائع غزوة أحد التى نزل فيها هذا السياق كله ، والمعنى : لا تحسبن يامحمد أو أيها السامع لقول المنافقين ، الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه ، فيؤثرون الدنيا على الآخرة . « أطاعونا ماقتلوا » ، أن من قتلوا فى سبيل الله أموات قد فقدوا الحياة وصاروا عدما .

ويرجح الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار أن حياة الشهداء فى الآخرة حياة غيبية ، لا نبحث عن حقيقتها ولا نزيد فيها على ماجاء به خبر الوحى شيئا ، فلا نقول كما قال بعض متكلمى المعتزلة: إن المراد بقوله « بل أحياء » أنهم سيكونون أحياء فى الآخرة ، فإن ظاهر الآية أنهم أحياء مذ قتلوا ، ولا تخصيص فى قولهم

الشهداء ولا يتفق مع مايأتى ، ولا بقول من قال : إنهم أحياء بحسن الذكر وطيب الثناء ، كما يقال « من خلف مثلك ما مات » . ولا بقول من قال : إنهم أحياء بأجسادهم كحياتنا الدنيا ، يأكلون ويشربون وينكحون فى قبورهم كسائر أهل الدنيا ، ولا بقول من يقول : إن أجسادهم ترفع إلى السماء ، قال الإمام الرازى فى القائلين بأنها حياة جسدية ما نصه : « والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم : إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ، ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها . ومنهم من قال : يتركها فى الأرض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها . ومن الناس من طعن فيه وقال : إنا نرى أجساد هؤلاء الشهداء قد تأكلها السباع ، فأما أن يقال : إن الله يحييها حال كونها فى بطون هذه السباع ويوصل الثواب إليها . أو يقال : إن تلك الأجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله ويؤلفها ويرد الحياة إليها ويوصل الثواب إليها ، وكل ذلك مستبعد . ولأنا قد نرى الميت المقتول باقيا أياما إلى أن تنفسخ أعضاؤه وينفصل منه القيح والصديد ، فإن جوزنا كونها حية متنعمة عاقلة عارفة لزم القول بالسفسطة » .

وقال محمد عبده : وتطرف جماعة فزعموا أن حياة الشهداء كحياتنا هذه فى الدنيا ، يأكلون أكلنا ويشربون شربنا ويتمتعون تمتعنا ، وهو قول لا يصدر عن عاقل ؛ لأن من الشهداء من يحرق بالنار ومن تأكله السباع أو الأسماك . وقال بعضهم : المراد أن أجسادهم لا تبلى ولم يزد على ذلك ، ولكن هذا لم يثبت ، على أن الجسد لا ثمرة له إذا خرجت منه الروح . وجملة القول أن بعضهم يقول : إن هذه الحياة مجازية ، وبعضهم يقول : إنها حقيقية ، ومن هؤلاء من يقول : إنها دنيوية ، ومنهم من يقول : إنها أخروية ولكن لها ميزة خاصة ، ومنهم من يقول : إنها واسطة بين الحياتين . والمختار عدم البحث فى كيفية هذه الحياة .

١٧١ — يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

١٧٢ — ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

١٧٣ — ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ .

١٧٤ — فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ .

١٧٥ — إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

خمس آيات كريمة فى التنويه بفضل الذين صمموا على الوقوف فى وجه الشرك والمشركين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد ، ولم يرهبهم كثرة المشركين ، ولا استعدادهم للقتال ، ولم يثن من عزمهم أنهم هزموا فى أحد وأثخنوا بالجراح . وقوله تعالى : « يستبشرون بنعمة من الله وفضل » لما بين الله تعالى أن الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بين هنا أنهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم ، ولذلك أعاد لفظ الاستبشار ، والاستبشار مزيد الفرح ، ومزيد السرور ، وقد سبق أن ذكر الله عز وجل فرحهم بما حصلوا عليه فى الدنيا ، وهنا يذكر فرحهم بالنعم العظيمة التى ينالونها فى الآخرة ، والفرق بين النعمة والفضل أن النعمة هى الثواب ، والفضل هو التفضل الزائد . ولفظ « يستبشرون » هنا تأكيد للفظ الأول « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » لما ذكر إيصال الثواب العظيم إلى الشهداء بين أن ذلك غير مخصوص بهم ، بل كل مؤمن يستحق شيئا من الأجر والثواب ، فإن الله تعالى يوصل ثوابه إليه ولا يضيعه ، وقوله تعالى « الذين استجابوا لله والرسول » أى دعاءه « من بعدما أصابهم القرح » بأحد « للذين أحسنوا منهم » بطاعته « واتقوا » مخالفته « أجر عظيم » هو الجنة ، وروى أن أبا سفيان وأصحابه

لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان ، وقال : لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، وكان بأصحابه القرح . فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، روى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ثم إن المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى ، وذلك لكثرة الجراحات فيهم ، وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة ، فمر برسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعى بحمراء الأسد ، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله قد أعفاك فيهم ، ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء . وقد أجمعوا الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك يا معبد؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط . قال : ويلك ما تقول؟ قال : أقول والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا ، فنزلت هذه الآية « الذين » بدل من الذين قبله أو نعت « قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أى الجموع ليستأصلوكم « فاخشوهم » روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر للعام القابل إن شئت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مرّ الظهران ، فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمراً فقال : يا نعيم إنى واعدت محمداً أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى أن لا أخرج إليه ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة ولأن يكون

الخلف من قِبلهم أحب إلىّ من أن يكون من قبلى، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنى فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يد سهيل ابن عمرو ويضمنها، فقال له نعيم: يا أبا يزيد أتضمن لى ذلك وأنطلق إلى محمد وأثبطه؟ فقال: نعم، فخرج نعيم حتى أتى إلى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبى سفيان، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبو سفيان بموسم بدر الصغرى أن نقتتل بها. فقال: الرأى رأيتم، أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله لا يفلت منكم أحد إلا شريداً، فكره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى ولو لم يخرج معى أحد؛ فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولم يلتفتوا إلى ذلك القول، كما قال تعالى: «فزادهم» ذلك القول «إيمانا» أى تصديقا بالله ويقينا «وقالوا حسبنا الله» أى كافينا أمرهم «ونعم الوكيل» أى المفوض إليه هو؛ وساروا حتى وافوا بدراً الصغرى؛ فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون: جمعوا لكم - يريدون أن يرهبوا المسلمين - فيقول المسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل، وهذه هى الكلمة التى قالها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه حين ألقى فى النار، وواصلوا السير حتى بلغوا بدراً، وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام؛ فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان ثمان ليال، ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحداً من المشركين، ووافوا السوق وكان معهم تجارات فباعوها وربحوا فى تجارتهم، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، كما قال تعالى «فانقلبوا» أى انصرفوا «بنعمة من الله» أى بعافية لم يلقوا عدوا «وفضل» أى تجارة وربح. وهو ما أصابوا فى السوق «لم يمسسهم سوء» أى لم يصبهم أذى ولا مكروه، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق، قالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق. هذا والناس الأول المثبطون، والآخرون أبو سفيان

وأصحابه . فإن قيل المثبط هو أبو نعيم فكيف قيل الناس ؟ أجيب بأنه من جنس الناس ، كما قيل :فلان يركب الخيل ـ وماله إلا فرس واحد ، ولأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يثبطون مثل تثبيطه ، بل قيل : إنهم كانوا جماعة ، إذ مر بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة ، فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم ، فإن قيل : كيف زادهم ذلك إيمانا ؟ أجيب بأنهم لما سمعوا ذلك وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيمان والإيقان بتناصر الحجج ، ولأن خروجهم على أثر ما سمعوا من تثبيط إلى وجه العدو طاعة عظيمة ، والطاعات تزيد الإيمان ، فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا : يارسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزدد إيمانا . وعنه رضى الله تعالى عنه : لو وزن إيمان أبي بكر رضي الله تعالى عنه بإيمان هذه الأمة لرجح به . والمعنى : فزادهم قول الناس لهم إيماناً بالله وثقة به ، من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خوفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع واعتمدوا على نصره ومعونته وإن قل عددهم وضعف جلدهم ، فإنه هو العزيز القوى وذلك من شأن المؤمنين كما جاء فى الآية الثانية من الآيتين التاليتين . وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن أقدموا وهم عدد قليل قد أثخنوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير ، فالزيادة كانت ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا ـ فى الإذعان النفسى ، والشعور القلبى ، وتبعتها الزيادة فى العمل ، بعد ذلك القول الدال على ما انطوت عليه النفس من اليقين بوعد الله ووعيده ، والشعور بعزته وسلطانه ، ولولا ذلك لم يكن لهم حول ولا قوة على تلك الاستجابة ، والإقدام على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان ، فمن يقول : إن الإيمان النفسى لا يزيد ولا ينقص ، فقد نظر إلى الاصطلاحات اللفظية لا إلى نفسه فى إدراكها وشعورها وقوتها فى الإذعان وضعفها . قالوا : إن التصديق لا يعتد به ولا يكون إيماناً صحيحاً إلا إذا وصل

إلى درجة اليقين ، فإذا نزل عن مرتبة اليقين كان ظنا أو شكا . وليس الظن إيماناً يعتد به والشك كفر صريح . ونقول : إن الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً ولا يعد إيماناً صحيحاً هو ما لوحظ فيه جواز وقوع الطرف المخالف، أى ما لوحظ فيه طرفان متقابلان . أحدهما : أن هذا الأمر ثابت ، وثانيهما : أنه يحتمل احتمالا ضعيفا أن لايكون ثابتا ، فإن جزم الذهن بأنه ثابت فلم يتصور الطرف المخالف، وهو عدم الثبوت ، كان جزمه هذا إيمانا وإن لم يكن ناشئا عن برهان مؤلف من المقدمات اليقينية فى عرف علماء المنطق ، على طريقتهم أو غير طريقتهم ، ولا ملاحظا فيه استحالة الطرف المخالف . وأكثر المؤمنين بالله ورسله والمؤمنين بالجبت والطاغوت فى هذه المرتبة من الإيمان ، ويصح أن يطلق على أهلها لفظ « الموقنين » . ولو كان الإيمان لا يصح إلا ببرهان منطقى على إثبات قضاياه واستحالة ضدها ، لمـا تصور أن يرتد أحد عن الإسلام بعد دخوله فيه ؛ لأن اليقين بهذا المعنى لا يمكن الرجوع عنه وإن أمكن مكابرته ومجاحدته باللسان ، ولذلك قال الأستاذ الإمام : « الرجوع عن الحق بعد اليقين فيه كاليقين فى العـلم ، كلاهما قليل فى الناس » يعنى بذلك اليقين ـ المنطق الذى تنتهى مقدماته إلى البديهيات . ولـكن الردة ثابته نقلا ووقوعا .

هذا ولليقين مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضا ، وحصرها بعضهم فى ثلاث : علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين . فالارتقاء من درجة إلى أخرى زيادة فى نفس اليقين . ويروى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال « لو كشف الغطاء ماازددت يقينا » وهذا القول مبنى على أن اليقين يقبل الزيادة فى نفسه ، ومن أيقن بأن فلانا طبيب ماهر لأنه رآه نجح فى معالجة بعض المرضى يضعف يقينه إذا رآه خاب فى معالجة آخرين ، ويزداد إذا رآه ينجح آونة بعد أخرى ، ولاسيما فى معالجة الأمراض الباطنية التى يعسر تشخيصها . ثم إن فائدة الإيمان إنما تـكون بإذعان النفس الذى يحرك فيها الخوف والرجاء ، وغيرهما من وجدانات الدين التى يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ،

ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة فى إصلاح حال البشر . وهل يقول عاقل : إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التى لاتقبل الزيادة والنقصان ؟ أما أنه لوكان إذعان جميع المؤمنين فى درجة واحدة لتساووا فى الأعمال ، ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتا عظيما كما هو ثابت بالمشاهدة ، فثبت أنهم متفاوتون فى منشئها من النفس وهو الإذعان ، الذى يقوى ويضعف بالتبع للإيمان ، وهذا عين قبول الزيادة والنقصان . ومن هنا نفهم معنى إدخال السلف الصالح الأعمال فى مفهوم الإيمان ، فإن كل اعتقاد له أثر فى النفس يتبعه عمل من الأعمال ، فهى سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضا ، والإمام الغزالى يعبر عنها بالعلم والحال والعمل ، فيقول : إن العلم بأن كذا يرضى الله تعالى أو كذا يسخطه مثلا يحدث فى النفس حالا يترتب عليها فعل مايرضيه ويقتضى مثوبته ، وترك مايسخطه ويقتضى عقوبته ، ويقول: إن ترتب بعضها على بعض واجب، وعبارته : إن العلم يوجب الحال والحال يوجب العمل : فارجع إليه فى كتاب التوبة وغيره من كتب المجلد الرابع من الاحياء . ؛وأما زيادة الإيمان بزيادة متعلقاته وهى الوسائل التى يؤمن بها المؤمن التى يعبر عنها بشعب الإيمان فهى ظاهرة لاتحتاج فى بيانها إلى شرح طويل . فإن هذه المسائل لايمكن أن تتلقى إلا بالتدريج ؛ فكلما تلقى المؤمن مسألة منها ازداد إيمانا . وليس هذا خاصا بالكفر الذى يدخل فى الإسلام؛ فإن الناشىء بين المؤمنين مثله فى ذلك . وليست المسائل التى تزيد الإنسان معرفتها إيمانا محصورة فى النصوص التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإن القرآن هدانا إلى التفكر والنظر فى ملكوت السموات والأرض لنزداد إيمانا ونعتبر ونستفيد . وذلك يفتح لنا أبوابا من العلم بالله وسننه لانهاية لها ؛ فكل مانهتدى إليه فى بحثنا ونظرنا من أسرار الكائنات وسنن الله تعالى فى المخلوقات فإنا نزداد به علما بالله وإيمانا بقدرته وحكمته البالغة ،وقد قال سبحانه لأقوى الناس إيمانا وأوسعهم علما بسننه : وقل رب زدنى علماً . وكذلك آيات القرآن تزيد من يتلقاها إيمانا كلما تلقى شيئا منها ، وقد يتدبرها المؤمن بعد العلم بها بأيام أو سنين ، فيفهم منها مالم يكن يفهم فيزداد إيمانا ، قال تعالى

«وإذا ما أنزلت سورة فنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون» .

وقوله تعالى : «واتبعوا رضوان الله» أى الذى هو مناط الفوز بخير الدارين، بجرأتهم وبطولتهم وتصميمهم على الجهاد فى سبيل الله ، وعلى الخروج فى سبيل نشر الدين ، وإعزاز كلمة الإسلام والمسلمين . «والله ذو فضل عظيم» أى قد تفضل عليهم بالتثبت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد ، والكفاح فى سبيل الدين ، والاستبسال من أجل الوقوف فى وجه أعداء الإسلام ، وفى هذا الأسلوب تحسر للمتخلف ، وتخطئة لرأيه حتى حرم نفسه مافازوا به

« وإنما ذلكم » أى المثبط وأبو سفيان « الشيطان يخوف أولياءه » أى من الذين قعدوا عن الخروج ، أو يخوفكم أولياءه، وهم أبو سفيان وأصحابه ، ويدل على ذلك التوجيه الأخير قوله تعالى «فلا تخافوهم وخافون» أى فى مخالفة أمرى، فجاهدوا مع رسولكم الأمين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . «إن كنتم مؤمنين» أى حقا ، فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله على خوف الناس ، وقراءة أبى عمرو بإثبات ياء «وخافونى» وصلا وحذفها وقفا ، وقراءة الباقين بحذفها وصلا ووقفا .

قيل: إن المراد بالشيطان فى هذه الآية شيطان الإنس الذى غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم ، واختلف فى تعيينه : فقيل : هو أبو سفيان ؛ فإنه أراد بعد أحد أن يكر ليستأصل المسلمين، وأرسل إليهم يخوفهم فى بدر الثانية أو الصغرى، وقيل : هو نعيم بن مسعود الذى أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين عن الخروج إلى بدر الموعد ، وقيل هو وفد عبد القيس ، وقيل : بل المراد به شيطان الجن الذى يوسوس فى صدور الناس ، والمعنى على الأول : ليس ذلك الذى قال لكم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، أومن أوعز إليه بأن يقول ذلك ، أو من وسوس به ، إلا الشيطان يخوفكم أولياءه ، وهم مشركو مكة ، ويوهمكم أنهم

جمع كثير أولو بأس شديد ، وأن من مصلحتكم ان تقعدوا عن لقائهم وتجبنوا عن مدافعتهم . والمعنى على الثانى : أن الشيطان يخوف أولياءه ، ولا سلطان له على أولياء الله المؤمنين ، فهو عاجز عن تخويفهم . وفى التفسير الكبير للرازى : أنه يخوف أولياءه المنافقين ، فيسول لهم القعود عن قتال المشركين ، ويزين لهم خذلان المسلمين ، وإذا صح هذا من جهة المعنى ، فإن الإشارة فيه ليست جلية كجلائها فى الوجه الأول ولا الثانى أيضا ، ولا يظهر عليه قوله . وفى الآية ـ على مايقول الإمام محمد عبده كما ذكر الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار ـ التنبيه إلى الموازنة بين أولياء الشيطان من مشركى مكة وغيرهم ، وبين ولى المؤمنين القادر على كل شىء ، كأنه يقول : عليكم أن توازنوا بين قوتى وقوتهم ونصرتى ونصرتهم ، فأنا الذى وعدتكم النصر ، وأنا وليكم ونصيركم ماأطعتمونى وأطعتم رسولى ، وفى هذا المقام شبهة تعرض لبعضهم ، يقولون: إن تكليف عدم الخوف من تكليف مالا يستطاع ولا يدخل فى الوسع ، فإن الإنسان إذا علم أن العدد الكثير ذا العدد العظيمة يريد أن يواثبه وينزل به العذاب بأن رآه أو سمع باستعداده من الثقات فإنه لا يستطيع أن لا يخافه ، فكان الظاهر أن يؤمروا بإكراه النفس على المقاومة والمدافعة مع الخوف ، لا أن ينهوا عن الخوف . والجواب : أن هذه الشبهة حجة الجبناء فهى لا تطوف إلا فى خيال الجبان ، فإن إعمال النفس من الخوف والحزن والفرح يتراءى للإنسان أنها اضطرارية ، وأن آثارها كائنة لامحالة مهما حدث سببها . والحقيقة أن ذلك اختيارى من وجهين :

١ — أن هذه الأمور تأتى بالعادة والمزاولة ، ولذلك تختلف باختلاف الشعوب والأجيال ؛ فمن اعتاد الإحجام عند الحاجة إلى الدفاع يصير جبانا والعادات خاضعة للاختيار بالتربية والتمرين ، ففى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف ويعود نفسه الاستهانة بها .

٢ — أن هذه الأمور إذا حدثت بأسبابها . فالإنسان مختار فى الإسلاس لها والاسترسال معها حتى يتمكن أثرها فى النفس وتتجسم صورتها فى الخيال ،

ويختار فى ضد ذلك ، وهو مغالبتها والتعمل فى صرفها وشغل النفس بما يضادها ويذهب بأثرها . أو يتبدل به أثراً آخر مناقضا له . فهذا الأمر الاختيارى هو مناط التكليف ، كأنه يقول : إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا فى نفوسكم قدرة الله على كل شىء وكونه بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وتذكروا وعده بنصركم وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فإذا هو زاهق ، وتذكروا قوله « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ؛ ثم خذوا أهبتكم وتوكلوا على ربكم ، فإنه لا يدع للخوف غيره مكانا فى قلوبكم ، وقوله تعالى « إن كنتم مؤمنين » يفيد وجوب توثيق الإيمان بالله فى القلب قبل كل شىء ، لأن تلك الخواطر والهواجس التى تحدث الخوف من أولياء الشيطان لا يمحوها من لوح القلب إلا الإيمان الصحيح الثابت ، وفى قوله « إن كنتم » إشارة إلى أن إيمان من يرجح الخوف من أولياء الشيطان على الخوف من الله تعالى مشكوك فيه . أقول : فليزن كل مؤمن نفسه بهذه الآية ، ويقارن بين عمله وعمل الصحابة الكرام وبين إيمانهم ، لكيلا يكون من المغرورين . ويقول الشيخ رشيد رضا : إن من تدبر هذه الآية حق التدبر علم أن المؤمن الصادق لا يكون جبانا ؛ فالشجاعة وصف ثابت للمؤمنين ، إذا شاركهم فيه غيرهم فإنه لا يدرى فيه مداهم ولا يبلغ شأوهم . ومن بحث عن علل الأشياء يرى أن علة الجبن هى الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وكل من الخوف والحرص مما لا يتسع له قلب المؤمن كقلب غيره قال تعالى فى سياق الكلام على اليهود « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » ولا يزال العالم كله يشهد أن الجيش الإسلامى أشجع جيوش الملل كلها ، هذا مع ما منى به المسلمون من ضعف الإيمان والجهل بالإسلام .

١٧٦ — وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

١٧٧ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
١٧٨ - وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .
١٧٩ - مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

فى هذه الآيات الأربع تسلية للرسول ، وتثبيت له ، وتخفيف من آلامه، وتهوين له من شأن خصوم الإسلام من الكافرين والمشركين ، ومن الكائدين للسلمين ولرسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه أجمعين ، من المنافقين وأشباه المنافقين .

وفى الآية الأخيرة منها تهديد للمنافقين ، وتحذير لهم ، وتأكيد لهم كذلك بأن الله فاضح نفاقهم ، ومظهر مكنون صدورهم ، ومبدى مايخفونه من كيدهم ومكرهم ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليظهر المسلم بحق من المسلم نفاقا وخداعا .

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » أى يقعون فيه وقوعا سريعا حرصا عليه ، وهم المنافقون من المتخلفين ، أو قوم ارتدوا عن الإسلام ، أى لا تهتم لكفرهم « إنهم لن يضروا الله شيئا » بفعلهم ، وإنما يضرون به أنفسهم « يريد الله ألا يجعل لهم حظا » أى نصيبا « فى الآخرة » أى الجنة ، فلذلك خذلهم ، وهو يدل على تمادى طغيانهم وموتهم على الكفر « ولهم » مع حرمان الثواب « عذاب عظيم » فى النار « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » أى

أخذوه بدله ، لن يضروا الله ، بكفرهم ، شيئا ولهم عذاب أليم ، أى مؤلم ، وكرر ذلك للتأكيد أو هو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المخلفين أو ارتدوا من الأعراب .

ونزل فى مشركى مكة كما قال مقاتل ، أو فى قريظة كما قاله عطاء ، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى ، أى نمهل ، لهم ، بتطويل الأعمار ، خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، بكثرة المعاصى ، ولهم عذاب مهين ، أى ذو إهانة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل : أى الناس خير؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ، قيل: فأى الناس شر؟ قال : من طال عمره وساء عمله ، ما كان الله ليذر ، أى ليترك ، المؤمنين على ما أنتم عليه ، أى الناس من اختلاط المسلم بغيره ، حتى يميز ، أى يفصل ، الخبيث ، أى المنافق ، من الطيب ، واختلف فى سبب نزول هذه الآية ، فقال الكلبى : قالت قريش : يامحمد تزعم أن من خالفك فهو فى النار والله عليه غضبان ، وأن من اتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه راض ، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن ، فنزلت ، وقال السدى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرضت على أمتى فى صورتها فى الطين كما عرضت على آدم ، وأعلمت من يؤمن ومن يكفر ، فبلغ ذلك المنافقين ، فقالوا استهزاء : زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ، ونحن معه وما يعرفنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على المنبر وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : مابال أقوام طعنوا فى علمى ، لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة إلا نبأتكم به ، فقام عبد الله بن حذافة السهمى ، فقال: من أنا يارسول الله ؟ قال: حذافة ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ، فقال يارسول الله: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبك نبيا ، فاعف عنا ، عفا الله تعالى عنك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فهل أنتم منتهون ؟ ثم نزل عن المنبر ، فنزلت ، فإن قيل : لمن الخطاب فى « أنتم » أجيب بأنه للمصدقين جميعا من أهل النفاق والإخلاص ، كأنه قيل : ما كان الله ليذر المخلصين منكم على

الحال التى أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعا، حتى يميزهم منكم بالوحى إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التى لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخلص المخلصين منكم، كبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله، فيختبر بها بواطنكم ويستدل بها على عقائدكم، ففعل ذلك يوم أحد حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى» أى يختار ويصطفى «من رسله من يشاء» فيوحى إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها «فآمنوا بالله ورسله» أى بصفة الإخلاص أو بأن تعلموا أن الله وحده مطلع على الغيب ويعلموهم عبادا مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، ولا يقولون إلا ما يوحى إليهم. روى أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقا فليخبرنا بمن يؤمن ومن يكفر، فنزلت الآية «وإن تؤمنوا» حق الإيمان «وتتقوا» النفاق «فلكم أجر عظيم» أى لا يقادر قدره والمعنى: إن أنتم آمنتم بما جاءوا به من خبر الغيب وقرنتم بالإيمان تقوى الله تعالى بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الاستطاعة، فلكم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه. واقتران التقوى ههنا مع الإيمان وترتيب الأجر عليهما معا، هو الموافق للآى الكثيرة فى الذكر الحكيم، وقد ذهب وهم بعض الناس إلى أن الآية تدل على أن من اجتباهم الله من رسله يعلمون الغيب كله، واستثنى بعضهم علم الساعة لكثرة ما ورد من الآيات التى تنفى علمها عن نبينا صلى الله عليه وسلم.

١٨٠ — وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

١٨١ — لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

١٨٢ — ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

١٨٣ — الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١٨٤ — فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ .

١٨٥ — كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

هذه الآيات الست فيها إنذار شديد للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويمنعون حقوق الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل فى أموالهم ، وفيها وعيد مابعده من وعيد لهؤلاء الطائفة من اليهود الذين يظنون أن الله فقير إلى إحسانهم ، وأنه محتاج لفضل أموالهم الذى يبخلون به ، ويمنعون حق الفقير واليتيم والمسكين فيه ، والذين كفروا بالرسول ، وكفر أجدادهم بالرسل من قبل . ثم ينذر الله عز وجل عباده بأنهم لابد لهم أن يلاقوا الموت ، وأن يحاسبوا على ماقدموا ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والذين يكون حظهم الجنة والبعد عن النار هم الفائزون برضوان الله ونعيمه المقيم .

ويقول الإمام محمد عبده : إن هذا كلام جديد مستقل لايتعلق بواقعة أحد

لاعلى سبيل القصد ولا الاستطراد . لقد جاء فى سياق القصة آيات فى شئون الكافرين فى أنفسهم وما يليق بهم من الخزى والعقوبة ونحو ذلك تذكر للمناسبة ثم يعود الكلام إلى ما يتعلق بالواقعة ، وقد انتهى ذلك بالآيات التى قبل هذه الآيات ، وأما هذه وما بعدها إلى آخر السورة فهى فى ضروب من الإرشاد ، وذلك لايمنع أن يكون بينها وبين ما قبلها تناسب ، بل التناسب فيها ظاهر . وأقول : إن الوجه فى وصل هذه الآيات بما قبلها هو أن الكلام قبلها كان فى واقعة أحد وما كان فيها من شأن المنافقين ، وكان الكلام قبلها فى حال اليهود ، وقبلها فى حال النصارى مع الإسلام ، بمناسبة الكلام فى أول السورة فى التوحيد والكتاب العزيز واختلاف الناس فيه ؛ فلما انتهى ما أراد الله بيانه فى هذا السياق ، ومنه أنه أيد دينه ، وأعز حزبه حتى إنه جعل خطأهم فى الحرب مفيدا لهم ، عاد إلى بيان حال اليهود وإقامة الحجة عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن الآية الأولى من هذه الآيات نزلت فى أهل الكتاب الذين كتموا صفة النبى صلى الله عليه وسلم ونبوته . فالبخل على هذا هو البخل بالعلم وبيان الحق وروى عن الصادق وابن مسعود والشعبى والسدى وغيرهم أنها نزلت فى مانعى الزكاة . وقال الإمام محمد عبده : أكثر المفسرين على أن المراد بما آتاهم الله من فضله المال وأن البخل به هو البخل بالصدقة المفروضة فيه وعدم التصريح بذلك من ضروب إيجاز القرآن ، فكثيرا ما يترك التصريح بالقول لأنه مفهوم من السياق والقرائن دالة عليه ، واللبس مأمون . فلا يخطر ببال أحد أن الوعيد هو على البخل بجميع ما يملك الإنسان من فضل ربه عليه ، فإن الله أباح لنا الطيبات والزينة فى نص كتابه ، والعقل يجزم أيضاً بأن الله لايكلف الناس بذل ما يكسبون ، وأن يبقوا جائعين عراة بائسين . وذهب آخرون إلى أن ذلك هو العلم ، وأن الكلام فى اليهود الذين أوتوا صفات النبى صلى الله عليه وسلم فكتموها . والأولى أن تبقى على عمومها فان المال من فضل الله ، وكذلك العلم والجاه ، والناس مطالبون بشكر ذلك . والبخل على الناس به كفر لا شكر ، قال : والحكمة فى ترك النص على أن البخل المذموم هنا هو البخل بما يجب بذله مما يتفضل الله به على المكلف هى

أن فى العموم من التأثير فى النفس ما ليس للتخصيص ، وهذه السورة متأخرة فى النزول ، وكانت أكثر الأحكام إذا أنزلت مقررة ، فإذا طرق سمع المؤمن هذا القول تذكر فضل الله عليه ، وأن عليه فيه حقا للناس ، وأن هذا الخطاب يذكر به سواء منه : ما هو معلوم معين وما ليس بمعلوم ولا معين ، بل هو موكول إلى اجتهاده الذى يتبع عاطفة الإيمان . وإنما نفى أولا كونه خيرا ثم أثبت كونه شراً ، مع أن الثانى هو الظاهر الذى لا يمارى فيه ؛ لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن فى منعه خيرا له ، لما فى بقاء المال فى اليد مثلا من الانتفاع به بالتمتع باللذات ودفع الغوائل والآفات ، وتوهم التمكن من قضاء الحاجات ؛ فإن قيل : إن التحديد كان أوضح وأنفى للإبهام ، قلنا : إن القرآن كتاب هداية ووعظ ، يخاطب الأرواح ليجذبها إلى الخير بالعبارة التى هى أحسن تأثيراً ، لا ككتب الفقه وغيره من كتب الفنون التى تتحرى فيها التعريفات الجامعة المانعة . وكتاب هذا شأنه لا يجرى على السنن الذى لا يليق إلا بضعفاء العقول الذين فسدت فطرهم بالتعاليم الفاسدة ، وإن مثل هذه العبارة المطلقة التى تخطر فى البال بذل كل ما فى اليد ، وتكاد توجبه لولا الدلائل الأخرى ، تحدث فى النفس أريحية للبذل تدفعها إلى بذل الواجب وزيادة عليه . وأقول : إن هذه العبارة الأخيرة مبنية على القول بأن المراد بما يبخل به هو المال ، فإذا جرينا على القول الآخر المختار ، وهو أنه يعم المال والعلم والجاه ، وكل فضل من الله على العبد يمكنه أن ينفع به الناس يمكننا أن نجعلها من قبيل المثال ، ونقول إن التحديد فى بيان ما يجب بذله للناس من الجاه والعلم متعذر ، إذا فرضنا أن ما يجب تحديد بذله فى المال متيسر ، وبهذا كانت الآية شاملة لما لا يتأتى تفصيله إلا بصحف كثيرة وكان الجواب أظهر ، والإيجاز أبلغ فى الإعجاز وأكبر .

قوله تعالى « ولا يحسبن » أى لا يظنن . . « الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » أى من مال وغنى وثروة . . « هو » أى بخلهم « خيرا لهم » فى الدنيا أو الآخرة «بل هو » أى بخلهم « شر لهم » أى لأنه يؤدى بهم إلى العذاب الأليم ،

والعقاب المهين . وقد اختلف المفسرون فى المراد بهذا البخل ، فقال أكثرهم : المراد به منع الواجب ، واستدلوا بأدلة عديدة :

منها : أن الآية دالة على الوعيد الشديد ، وذلك لايليق إلا بالواجب .

ومنها : أن الله تعالى ذم البخل ، والإنفاق فى غير الواجب ، مما هو على سبيل التبرع والصدقة والإحسان لايذم على تركه .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم « وأى داء أدوأ من البخل » ، وتارك التطوع لا يليق به هذا الوصف .

هذا والإنفاق الواجب على أقسام : إنفاق الرجل على نفسه وعلى أقاربه الذين تلزمه نفقتهم ، والزكاة ، والمال الذى تحتاج إليه الدولة فى تقوية الاستعداد لدفع الأعداء عن الوطن الإسلامى حماية لدماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، والمال الذى يدفع به ما يسد رمق المضطر « سيطوقون » أى سوف يطوقون . . « ما بخلوا به يوم القيامة » اختلف فى معنى هذا الوعيد : فقال ابن عباس وابن مسعود : يجعل ما منعه من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة ، تنهشه من فرقه إلى قدمه وتنقر رأسه ، وتقول : أنا مالك . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ما له يوم القيامة شجاعا أقرع يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بشدقيه ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا « ولا تحسبن الذين يبخلون » الآية ، وعن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ، أو والذى لا إله غيره ، ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه ، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلما جازت عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس ، وقال مجاهد : معنى « سيطوقون » سيكلفون أن يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة أى يؤمرون بأداء ما منعوا فلا يمكنهم الإتيان به ، فيكون ذلك توبيخا .

وقيل: إن هذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وأراد بالبخل كتمان العلم كما فى سورة النساء «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله»، ومعنى قوله على هذا (سيطوقون) أى يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى «يحملون أوزارهم على ظهورهم»، وقوله «ولله ميراث السموات والأرض» فى معناه وجهان:

أحدهما: أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فهو الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فمالهم يبخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه فى سبيله، ونحوه قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه».

والثانى ـ وبه قال الأكثرون: أن معناه أنه يفنى أهل السموات والأرض ويفنى الأملاك ولا مالك لها إلا الله، فجرى هذا مجرى الوراثة، قال ابن الأنبارى: يقال: ورث فلان علم فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه، وقال تعالى: «وورث سليمان داود» لأنه انفرد بذلك بعد أن كان داود مشاركا له فيه «والله بما تعملون» من المنع والإعطاء «خبير» فيجازيكم به.

وقوله تعالى «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» قال الحسن ومجاهد: لما نزل قوله تعالى «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» قالت اليهود: إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء، وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حيى بن أحطب؛ وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن إسحاق: كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا، فدخل أبو بكر ذات يوم مدراسهم، فوجد أناسا كثيرين من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فنحاص بن عازوراء) وكان من علمائهم، ومعه حبر آخر يقال له (أشيع)، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة، فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة

ويضاعف لك الثواب ، فقال فنحاص : ياأبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض من أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، فإن كان ماتقول حقاً ، فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء ، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ماأعطانا الربا ، يعنى فى قوله « فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » فغضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد انظر ماصنع بى صاحبك ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم لأبى بكر : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال يارسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما زعم أن الله فقير وهم أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص ، فأنزل الله عز وجل رداً على فنحاص وتصديقا لأبى بكر رضى الله تعالى عنه « لقد سمع الله » الآية . وهذا لايدل على أن غيره لم يقل ذلك ؛ لأن الآية دالة على أن القائل جماعة لقوله تعالى « الذين قالوا » . « سنكتب » أى نأمر بكتابة « ماقالوا » من الإفك والفرية فى صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ونحوه « وإنا له كاتبون » ، أو سنحفظه فى علمنا لانهمله لأنه كلمة عظيمة ، إذ هو كفر بالله واستهزاء بالله والرسول ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء ، كما قال تعالى « وقتلهم » أى وسنكتب قتلهم « الأنبياء بغير حق » وفى قرنه به تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول « ونقول » أى الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة « ذوقوا عذاب الحريق » أى النار ، وهى بمعنى المحرق كما يقال : عذاب أليم أى مؤلم ، ويقال لهم إذا ألقوا فى النار « ذلك » أى العذاب « بما قدمت أيديكم » من الافتراء وقتل الأنبياء وغير ذلك من المعاصى ، وعبر بالأيدى عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن « وأن الله ليس بظلام » أى بذى ظلم « للعبيد » فيعذبهم بغير ذنب . وظلام للمبالغة المقتضية للتكثير فهو أخص من ظالم ، ولا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم ، والجواب عن هذا أنه لما قوبل بالعبيد وهم كثيرون ناسب ان يقابل الكثير بالكثير ، وبأنه إذا نفى الظلم الكثير نفى القليل ؛

لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم . فإذا ترك كثير مع زيادة نفعه فى زمن يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه أشد تركا ، وبأن ظلام للنسب لما قدرته فى الآية الكريمة ، أى لاينسب إليه ظلم أبدا . وقوله تعالى « الذين » نعت للذين قبله «قالوا» لمحمد صلى الله عليه وسلم: تزعم أن الله بعثك بالحق رسولا وأنزل عليك كتابا وأن نؤمن بك وقالوا «إن الله » قد « عهد إلينا » أى أمرنا وأوصانا فى كتبه « ألا نؤمن لرسول » أى لا نصدق رسولا بأنه جاء من عند الله « حتى يأتينا بقربان تأكله النار » أى حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التى كانت لأنبياء بنى إسرائيل ، فيكون دليلا على صدقه، والقربان : هو كل مايتقرب به العبد إلى الله تعالى من نسيكة وعمل صالح ، وكانوا إذا قربوا قربانا وغنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لادخان لها ولها دوى شديد ، فتأكل ذلك القربان وتأكل الغنيمة ، ومعنى أكلها أن تحيل ذلك إلى طبعها بالإحراق، فيكون ذلك علامة القبول ، وإذا لم يتقبل بقى على حاله ، وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم ، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات فى ذلك سواء ، وقال السدى : هذا الشرط جاء فى التوراة ولكنه مع شرط ، وهو أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل: من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد ، فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان ، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم « قل » لهم يامحمد « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات» أى المعجزات « وبالذى قلتم » من القربان كزكريا ويحيى فقتلتموهم « فلم قتلتموهم » والخطاب لمن كانوا فى زمن نبينا، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضائهم به « إن كنتم صادقين » فى أنكم تؤمنون بالرسل عند الإتيان بذلك ، ثم قال الله تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه واليهود « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » أى المعجزات « والزبر » أى الصحف ، كصحف إبراهيم «والكتاب» أى التوراة والإنجيل «المنير» أى الواضح ، فاصبر كما صبروا ، وقوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت » زيادة تأكيد فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ومبالغة فى

إزالة الحزن عن قلبه ، فإن من علم أن عاقبته الموت زالت عن قلبه الغموم والأحزان، «وإنما توفون أجوركم» أي جزاء أعمالكم «يوم القيامة» إن خيرا فخير وإن شرا فشر «فمن زحزح» أي أبعد «عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» أي بالنجاة ونيل المراد والفوز بالظفر وبالنظر إلى وجه الله تعالى الكريم «وما الحياة الدنيا» أي العيش فيها «إلا متاع الغرور» أي الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى ، روى أن الله تعالى يقول: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرأوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» ، وإن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرأوا إن شئتم «وظل ممدود» ، ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، واقرأوا إن شئتم «فمن زحزح عن النار» الآية ، وروى : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي الناس ما يحب أن يؤتى إليه . أي يصنع معهم ما يحب أن يصنعوه معه ، ووجه اتصال هذه الآية الأخيرة بما قبلها هو أن في التي قبلها تسلية للرسول، عن تكذيب اليهود وغيرهم له ببيان طبيعة الناس في تكذيب الأنبياء السابقين، وصبر أولئك على المجاحدة والمعاندة والكفر . وفي هذه تأكيد للتسلية ، كما قال الإمام الرازي: من حيث إن الموت هو الغاية وبه تذهب الأحزان ، ومن حيث إن بعده دارا يجازى فيها كل بما يستحق ، وقال الأستاذ الإمام : إنها تسلية أخرى ، كأنه يقول: لا تضجر ولا تسأم لما ترى من معاندة الكافرين فإن هذا منته ، وكل ماله نهاية فلا بد من الوصول إليه ، فالذي يصير إليه هؤلاء المعاندون قريب فيجاوزن على أعمالهم ، ولا تنتظر أن يوفوا جزاء عملهم السيء كله في هذه الدار، كما أن أجرك على عملك لا توفاه في هذه الحياة ، فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن، وحسبهم ما أصيبوا وما يصابون به من الجزاء السيء في الدنيا . واعلم أنه لا يوفى أحد جزاءه في هذه الدار لأن توفية الأجور إنما تكون في الآخرة . وقال: ويصح وصلها بما قبلها من قوله تعالى «ولا تحسبن الذين يبخلون» الخ أي إن أولئك البخلاء الذين يمنعون الحقوق وأولئك المتجرئين

على الله والظالمين لرسله، والذين عاندوا خاتم النبيين ؛ كل أولئك سيموتون كما يموت غيرهم ويوفون أجورهم يوم القيامة ؛ وكذلك لا يحسبن أحد من المؤمنين الذين يقاومون هؤلاء ويلقون منهم فى سبيل الإيمان ما يلقون أنهم يوفون أجورهم فى الدنيا . كلا إنهم إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . وأقول : إن الكلام هنا هو تصريح بما فى ضمن الآية السابقة من التسلية للنبى عليه الصلاة والسلام ولمن اتبعه ، والتفات إلى خطابهم ، فإن توفية الأجور متبادرة فى الخير، فهذه الآية تمهيد لما بعدها ليسهل على المسلمين وقع إنبائهم بما يبتلون به .

وأما القربان الذى ذكر فى هذه الآيات فقد قال المفسرون : إنهم أرادوا شيئا كان شائعا عندهم ، وهو أن يذبح القربان من النعم أو غيرها فيوضع فى مكان معين فتأتى نار بيضاء من السماء لها دوى فتأخذه أو تحرقه . وروى ابن جرير عن ابن عباس أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة ، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلته . أى أكلت ما تصدق به . هذا ما أورده - وردوه بأن هذا القربان إنما كان يوجب الإيمان لأنه معجزة لا لذاته ، إذ هو كغيره من المعجزات . وذكر الشيخ رشيد رضا أن القربان فى عبادة بنى إسرائيل كان على قسمين : دموى وغير دموى ، فالقرابين الدموية كانت تكون من الحيوانات الطاهرة : كالبقر والغنم والحمام ، وغير الدموية هى باكورات المواسم والخمر والزيت والدقيق ، والقرابين عندهم أنواع : منها المحرقات والتقدمات وذبائح السلامة وذبائح الخطيئة وذبائح الإثم . وكانوا يحرقون المحرقات بأيديهم. وقد جاء فى الفصل الأول من سفر اللاويين فى ذلك ما نصه :

« ودعا الرب موسى . وكلمه من خيمة الاجتماع قائلا : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : إذا قرب إنسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم ، إن كان قربانه من البقر فذكراً صحيحاً يقرب إلى باب خيمة الاجتماع يقدمه للرضا عنه أمام الرب ، ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عنه

للتكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هرون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع ، ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل بنو هرون الكهنة نارا على المذبح ويرتبون حطبا على النار ، ويترتب بنو هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذى على النار التى على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقه وقود رائحة سرور للرب » .

ثم ذكر تفصيل قربان الغنم بصنفيه : الضأن والمعز ، والطير وهو صنفان أيضا : الحمام واليمام بنحو ما تقدم ، كما بين بقية أنواع القرابين . فمن هنا تعلم أنهم كانوا يوقدون النار بأيديهم ويحرقون بها القرابين المحرقات ، ولكن اليهود كانوا يلقون إلى المسلمين أخباراً من خرافاتهم أو مخترعاتهم ، ليودعوها كتبهم ، ويمزجوها بدينهم ، ولذلك نجد فى كتب قومنا من الإسرائيليات الخرافية ما لا أصل له فى العهد القديم ، ولا يزال يوجد فينا من يقدس كل ما روى عن أوائلنا فى التفسير وغيره ، ويرفعه عن النقد والتمحيص ، ولا يتم تمحيص ذلك إلا لمن اطلع على كتب بنى إسرائيل .

وأضخم مافى هذه الآيات هو هذا التصوير الغريب للبخيل وجزائه فى الآخرة ، ولعل هذا ورد على سبيل التمثيل للمبالغة والتهديد . وفى تصوير أخلاق البخيل وأخلاق الكريم ، وأثرها فى حياة هذين الصنفين من الناس ورد الحديث الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص وأعمى وأقرع ، بدا لله عز وجل أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن. قد قذرنى الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلداً حسناً فقال: أى المال أحب إليك؟ قال: الإبل ، فأعطى ناقة عشراء فقال يبارك لك فيها، وأتى الأقرع فقال: أى شىء أحب إليك؟ فقال: شعر حسن ويذهب عنى هذا قد قذرنى الناس، قال: فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسناً، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر قال: فأعطاه بقرة حاملا وقال: يبارك لك فيها، وأتى الأعمى

فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بى الجبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله. فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى فى صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الجبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصرى. وفقيراً فقد أغنانى، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

وبذلك ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء، وقد صور الله عز وجل فيه فضل المخلصين من أصحاب رسول الله، والمصممين على الجهاد فى سبيله، والزائدين عن حمى الإسلام ببسالة وقوة وبطولة وتضحية. دون أن ترهبهم قوة أعداء الإسلام، أو تنال منهم ومن روحهم المعنوية تهديد الأعداء والخصوم والكائدين للإسلام وحزبه كما اشتمل على تهديد قوى للكافرين والمنافقين، وعلى تحذير البخلاء الذين يبخلون بأموالهم فلا ينفقونها فى سبيل الله، وفى آخر هذا الربع تصوير جليل لليهود وكفرهم برسالة محمد. كما كفر آباؤهم من قبل بالرسل والنبيين، وقتلوا فريقا منهم بالإثم والطغيان. ويحتوى هذا الربع فى ختامه على تقرير الجزاء على العمل فى الآخرة بعد الموت والبعث، وأن السعيد هو

من ظفر برضاء الله يوم الحساب وهو من أدخل الجنة وزحزح من النار ، وأولئك هم الفائزون الناجون المستحقون للنعيم المقيم .

١٨٦ — لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

١٨٧ — وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

١٨٨ — لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

ثلاث آيات كريمة تنطق أولاها بوجوب الصبر على أذى أهل الكتاب والمشركين ، وتحبب للمسلمين التضحية فى سبيل رسالتهم السامية ، وهدفهم النبيل. وتتحدث الثانية عن نقض أهل الكتاب للعهود والمواثيق التى أخذها الله عليهم ، وكتمانهم لما فى كتبهم من وجوب الإيمان بمحمد ورسالته ، وتصور الثالثة فرح هؤلاء بما أتوه من نبذ كتاب الله والاتجار بآياته ، وحبهم لأن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ومصيرهم فى الآخرة وما سوف ينالهم من عذاب الله .

وقوله تعالى « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما سلى الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « كل نفس ذائقة الموت » زاد فى تسليته بهذه الآية ؛ فبين أن الكفار بعد أن آذوا الرسول والمسلمين يوم أحد فسيؤذونهم أيضاً فى المستقبل بكل طريق يمكنهم من الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال . والغرض من هذا الإعلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع، وذلك

لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه ، فإذا نزل البلاء شق ذلك عليه ، أما إذا كان عالما بأنه سينزل ، فإذا أنزل لم يعظم وقعه عليه ، وعبارة الكشاف : خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها ، حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه .

ويصح اتصال هذه الآية ـ كما قال الإمام محمد عبده ـ بما قبلها من قوله تعالى « ولا تحسبن الذين يبخلون » الآيات ، فان فيها ذكر البخل بالمال وذكر حال اليهود ، وهذه تذكر البلاء بالمال وما سيلاقى المؤمنون من أولئك اليهود وغيرهم ، ويصح أن يكون على ماقاله بعضهم متصلا بما هو قبل ذلك من أول واقعة أحد إلى هنا ، كأنه يقول : إن ماوقع من الابتلاء فى الأنفس والأموال والطعن فى تلك الواقعة ليس آخر الابتلاء ، بل لابد أن تبلوا بعد ذلك بكل هذه الضروب منه ، وتجرى فيكم سنته تعالى فى خلقه ، فلا تظنوا أنكم جلستم على عرش العزة واعتصمتم بالمنعة وأمنتم حوادث الكون ، فإنه لابد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الأمم ، معاملة المختبر المبتلى ، لا ليعلم مالم يكن يعلم من أمركم فهو علام الغيوب ، بل ليميز الخبيث من الطيب من بعد ، كما ماز الكثيرين فى واقعة أحد . والابتلاء فى الأموال يفسر بفرض الصدقات وبالبذل فى سبيل الله ـ وهو كل ما يوصل إلى الخير ـ وبالجوائح والآفات ، وهذا الجمع أولى مما ذهب إليه بعضهم من تخصيصه بالأول وبعضهم من تخصيصه بالثانى . والابتلاء فى الأنفس يكون بتكليف بذلها فى سبيل الله وبموت من يحب الإنسان من الأهل والأصدقاء ، والابتلاء بالتكليف هو أهم الابتلاءين وذلك أن الله تعالى لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لأنهم مسلمون ، وإنما يكلفهم الجرى على سنته تعالى كغيرهم ، فلابد لهم من الاستعداد للمدافعة دائما ، وذلك يقتضى بذل المال والنفس ، ومن هنا تعلم خطأ الذين يفسرون الابتلاء بالمال والأمر ببذله والجهاد به ، كل ذلك بالزكاة ، وما الزكاة إلا نوع من أنواع الحقوق التى جعلها الله فى المال ، وهى كثيرة تشمل كل ما به صلاح الأمة ورفع شأنها من

الأعمال وكل مايدفع عنها الأعداء ويرد عنها المكاره ، ومن ذلك الابتلاء فى المدافعة عن الحق سواء كان بالمال أو بالنفس ، فهو يوطن نفوسهم على الأخذ بالاحتياط فى الأمور العامة والاستعانة عليها بالمال وتحمل المكاره ، ويحذرهم من الشره والطمع فى المال، حتى إذا طمعوا أو قصروا فى الاحتياط كما وقع لهم فى أحد علموا أنهم ما أصيبوا إلا بما كسبت أيديهم أو قصرت فيه هممهم فلا يتعللون ، ولا يقولون : كيف أصبنا ونحن مسلمون ؟ وقدم ذكر المال لأنه هو الوسيلة التى يكون بها الاستعداد لبذل النفس ، فبذل المال يحتاج اليه قبل بذل النفس، أو لأن الإنسان كثيرا مايبذل نفسه دفاعا عن ماله، فالذين قالوا : إن المال شقيق الروح لاحظوا الغالب ، ومن غير الغالب أن يقدم الإنسان ماله على نفسه ، علمنا أن فائدة الابتلاء هى تمييز الخبيث من الطيب ، وأما الإخبار به ففائدته التعريف بالسنن الإلهية وتهيئة المؤمن لها وحمله على الاستعداد لمقاومتها فإن من تحدث له النعمة فجأة على غير استعداد ولا سعى ترجى هى من ورائه تدهشه وتبطره ، وربما تهيج عصبه فيقع فى داء أو يموت فجأة ، وكذلك من تقع به المصيبة فجأة على غير استعداد، يعظم عليه الأمر ويحيط به الغم حتى يقتله فى بعض الأحيان . أما المستعد فإنه يكون ضليعا قويا .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » أى اليهود والنصارى « ومن الذين أشركوا » أى مشركى العرب « أذى كثيرا » وذلك أنهم كانوا يقولون : عزير ابن الله والمسيح ابن الله وثالث ثلاثة ، وكانوا يطعنون فى النبى صلى الله عليه وسلم بكل مايقدرون عليه . وهجاه كعب بن الأشرف ، وكانوا يحرضون الناس على مخالفته صلى الله عليه وسلم ، ويجمعون الجيوش لمحاربته ويثبطون المسلمين عن نصرته « وإن تصبروا » على ذلك « وتتقوا » الله « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من صواب التدبر والرشد الذى ينبغى لكل عاقل أن يقدم عليه. واختلف فى سبب نزول هذه الآية : فقال ابن جريج والكلبى ومقاتل : نزلت فى أبى بكر وفنحاص ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فنحاص اليهودى يستمده وكتب إليه كتابا : لا تفتاتن

عليّ بشيء حتى ترجع إلى ، فجاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهو متوشح بالسيف ، فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال : أمحتاج ربك إلى أن نمده ؟ فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ، فتذكر أبو بكر قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وكف عنه فنزلت ؛ وقال الزهرى : نزلت فى كعب بن الأشرف ، فإنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره ، ويسب المسلمين ، ويحرض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فى شعره ، ويتغزل بنساء المسلمين .وفى الآية تأويلان : أحدهما : المراد بالمصابرة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على الابتلاء فى النفس والمال ، وتحمل الأذى ، وترك المعارضة والمقاتلة ، وذلك أنه أقرب إلى دخول المخالف فى الدين ، كقوله تعالى « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقال تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله » ، وقال تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » ، وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم » ، وقال تعالى « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » قال الواحدى : هذا قبل نزول آية السيف ، وقال القفال : والذى عندى أن هذا ليس بمنسوخ ؛ والظاهر أنها نزلت عقب قصة أحد ، والمعنى أنهم أمروا بالصبر على مايؤذون به الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم فى كثير من الأحوال ، والأمر بالقتال لاينافى الأمر بالمصابرة ، والتأويل الثانى : أن المراد الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والإنكار عليهم ، فالصبر عبارة عن احتمال المكروه ، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لاينبغى.

أما الآية الثانية ، وهى « وإذ أخذ الله » الخ ، فوجه الاتصال بينها وبين ما قبلها ، هو أن الآيات التى قبلها كانت فى أهل الكتاب ، وقد تقدم أنه تعالى ذكر أحوال النصارى منهم وحاجهم فى أول السورة ، ثم ذكر بعض أحوال اليهود قبل قصة أحد، ثم عاد إلى بيان بعض شؤونهم بعدها فكان منه مافى هذه الآية وهو كتمان ما أمروا ببيانه واستبدال منفعة حقيرة به لم يفصل بينه وبين

ماقبله فيهم إلا بآيتين قد عرفت حكمة وضعهما فى موضعهما . وقال الرازى : إعلم أن فى كيفية النظم وجهين :

١ — أنه تعالى لما حكى عن اليهود شبها طاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها أتبعه بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أوجب فى التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا مافى هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم ، كأنه قيل : كيف يليق بكم إيراد الطعن فى نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صحة نبوته .

٢ — أنه تعالى لما أوجب فى الآية المتقدمة على محمد صلى الله عليه وسلم احتمال الأذى من أهل الكتاب ، وكان من جملة إيذائهم للرسول صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يكتمون مافى التوراة والإنجيل من الدلائل على نبوته فكانوا يحرفونها ويذكرون لها تأويلات فاسدة ، فبين أن هذا من تلك الجملة التى يجب فيها الصبر ، وقد علمت ما هو المراد بالأذى فى تفسير الآية السابقة .

ويروى الإمام محمد عبده : أن وجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها هو أن ماذكر فى الآية السابقة من البلاء الذى يصاب به المؤمنون إنما يصابون به لأخذهم بالحق ودعوتهم إليه ومحافظتهم فى الشدائد عليه ، فناسب بعد ذكر البلاء الذى أخبر الله به المؤمنين ووطن عليه نفوسهم ليثبتوا ويصبروا أن يذكرلهم مثل الذين خلوا من قبلهم ، إذ أخذ عليهم الميثاق ببيان الحق ، فكان من أمرهم ما استحقوا به الوعيد المذكور فى الآية . فهو يذكر المؤمنين بذلك ، كأنه يقول لهم : إنكم إذا كتمتم ما أنزل عليكم يكون وعيدكم كوعيدهم .

وقوله تعالى « وإذ» أى اذكر وقت ذلك ، والمراد ذكر ذلك نفسه « أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » أى العهد عليهم فى التوراة على علمائهم « لتبيننه » أى الكتاب « للناس ولاتكتمونه» أى بكتم تبليغه للناس أو بتحريفه «فنبذوه» أى طرحوا الميثاق « وراء ظهورهم » أى لم يعملوا به ولم يلتفتوا إليه

« واشتروا به » أى أخذوا بدله « ثمنا قليلا » من حطام الدنيا وأعراضها من سفلتهم برياستهم فى العلم ، فكتموه خوف فوتها عليهم ؛ وقوله تعالى « فبئس مايشترون » أى يشترونه ، قال قتادة رضى الله تعالى عنه : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فانه هلكة . وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء.. ثم تلا هذه الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، وقال أبو الحسن بن عمارة رضى الله تعالى عنه : أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت : إن رأيت أن تحدثنى ، فقال : أما علمت أنى تركت الحديث؟ فقلت : إما أن تحدثنى وإما أن أحدثك ، فقال : حدثنى ، فقلت : حدثنى الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار قال : سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ، قال : فحدثنى أربعين حديثا « لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا » أى فعلوا من إضلال الناس « ويحبون أن يحمدوا » بما أوتوا من علم التوراة « أو »بمالم يفعلوا « من التمسك بالحق وهم على ضلال وهذا أيضا فى اليهود ، أى يحبون أن يحمدوا بأنهم أهل البر والصدق والتقوى ، ولاشك أن الإنسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الأحوال ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها ، روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه ، وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وسلاه بما أنزل من وعيدهم ، أى لاتحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب ؛ وقيل : هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف واستحمدوا به ، وقيل : هم المنافقون ؛ فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذين لم يفعلوه على الحقيقة ، ويجوز أن

يكون شاملا لكل من يأتي بحسنة ، فيفرح بها فرح إعجاب ، ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه .

وروى الشيخان وغيرهما عن طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن ، فقال ابن عباس : مالكم وهذه ، إنما نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه . واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ماسألهم عنه . وأخرج الشيخان أيضاً من حديث أبى سعيد الخدرى : أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق فى تفسيره عن زيد بن أسلم أن رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عندمروان ، فقال مروان : يارافع فى أى شىء أنزلت هذه الآية « لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا » ؟ قال رافع : أنزلت فى ناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم اعتذروا وقالوا : ماحبسنا عنكم إلا الشغل فلوددنا لوكنا معكم . فأنزل الله فيهم هذه الآية ، وكأن مروان أنكر ذلك فجزع رافع من ذلك ، فقال لزيد بن ثابت : أنشدك الله هل تعلم ما أقول ؟ قال : نعم . قال الحافظ ابن حجر : يجمع بين هذا وبين قول ابن عباس : بأنه يمكن أن تكون نزلت فى الفريقين معا ، قال : وحكى الفراء أنها نزلت فى قول اليهود : نحن اليهود نحن أهل الكتاب الأول والصلاة والطاعة ، ومع ذلك لايقرون بمحمد — ولا مانع أن تكون نزلت فى كل ذلك — ومما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس فى ذلك أنه قال : هم أهل الكتاب ، أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فرحوا بأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل الله ، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله ويصلون ويطيعون الله . وروى

عن الضحاك أنهم فرحوا بما أتوا من تكذيب النبي والكفر به ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا وهو قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أهل الصلاة والصيام وهذا وجه وجيه ، وهو الذي اختاره ابن جرير ، وبمثل هذا العموم يوجه نزولها في المنافقين . ويقول الإمام محمد عبده : كان الكلام في أهل الكتاب لتحذير المسلمين من مثل فعلهم في سياق الحض على الاستمساك بعروة الحق وحفظه والدعوة إليه ، إذ أخذ على أولئك الميثاق فقصروا فيه ، وتركوا العمل بالكتاب وتبيينه للناس واشتروا به ثمنا قليلا ، فاستحقوا العقاب من الله تعالى بعد هذا بين في هذه الآية حالا آخر من أحوال أولئك الغابرين ليحذر المؤمنين منه ، لأنهم عرضة له ، وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ، ويرون لأنفسهم شرفا فيه وفضلا بأنهم أئمة يقتدى بهم ، وهذا فرح بالباطل ، وكانوا يحبون أن يحمدوا بأنهم حفاظ للكتاب ومفسروه وعلماؤه ومبينوه والمقيمون له ، وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك بل فعلوا نقيضه ، إذ حولوه عن الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام وأهواء سائر الناس ، يطلبون بذلك حمدهم ـ بين الله هذه الحال في أسلوب عجيب بين فيه حكما آخر ، وهو أن هؤلاء الفرحين المحبين للمحمدة الباطلة قد اشتبه أمرهم على الناس ، فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماء كتابه ، وأنهم أبعد الناس عن عذابه وأقربهم من رضوانه فبين الله كذب هذا الحسبان ونهى عنه وسجل عليهم العذاب . ويقول الشيخ رشيد رضا : إن هذه الآية على عمومها مبينة لشيء من الثمن الذي استبدلوه بكتاب الله وكونه بئس الثمن ، وهو أمران :

١ — فرحهم بما أتوه من الأعمال فرح غرور وخيلاء وفخر ، على أن منه نبذ كتاب الله بترك العمل به وعدم تبيينه على وجهه : إما بتحريفه عن مواضعه ليوافق أهواء الحكام ، أو أهواء الناس ، وإما بالسكوت عنه والأخذ بكلام العلماء السابقين تقليدا بغير حجة ، إلا ادعاء أنهم كانوا أعلم بالكتاب ، وأنهم إن خالفوا بعض نصوصه فلا بد أن يكون عندهم دليل أوجب عليهم ذلك .

٢ — حب المدح والثناء بالباطل، فإنهم يتبعون أهواء الحكام والناس فى الدين، ويحبون أن يحمدوا بأنهم يبينون الحق لوجه الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، فإن الحاكم أو غير الحاكم إذا احتاج إلى عمل يرضى به هواه وشهوته مما يحظره عليه الدين فلجأ إلى العالم فعلمه حيلة شرعية يسلم بها من نقد الناقدين وذم المتدينين، فلا شك أنه يحمد ذلك العالم ويطريه بأنه العالم التقى المحقق، لامكافأة له فقط، بل يرى من مصلحته أن يعتقد الناس العلم والصلاح فى مفتيه ليأخذوا كلامه بالقبول، وقوله تعالى: «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب». أى لا تظن يا محمد أو أيها المخاطب أنهم بنجاة من العذاب الدنيوى، أى متلبسون بالفوز والنجاة منه، وهو العذاب الذى يصيب الأمم التى فسدت أخلاقها وساءت أعمالها وكابرت الحق والعدل، وألفت الفساد والظلم، وهو على قسمين:

١ — عذاب هو أثر طبيعى اجتماعى للحال التى يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله فى الاجتماع البشرى، وهو خذلان أهل الباطل والإفساد وانكسارهم وذهاب استقلالهم بنصر أهل الحق والعدل عليهم وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم، ليحل الإصلاح محل الإفساد والعدل مكان الظلم «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد».

٢ — وعذاب لا يكون أثراً طبيعيا بل يسمى سخطاً سماوياً، كالزلزال والخسف والطوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التى نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بهم وكذبوهم وآذوهم، فكان الله يوفق بين أسباب ذلك العذاب المعتادة وأقدارها، فينزلها بالقوم عند اشتداد عتوهم وإيذائهم لرسوله فيكونون من الهالكين.

وقوله تعالى: «ولهم عذاب أليم» أى فى الآخرة، فإن فساد أخلاقهم وفرحهم وبطرهم وصغارهم الذى زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل جعل أرواحهم مظلمة دنسة، فهى التى تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله تعالى « فلا تحسبنهم » تأكيد لقوله « ولا تحسبن الذين » ، كما هو معهود فى الكلام العربى من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله . قال الزجاج : إن العرب إذا أطالت القصة تعيد « حسبت » وما أشبهها إعلاما بأن الذى جرى متصل بالأول . فتقول : لا تظنن زيداً إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا ، فيفيد لا تظنن توكيدا وتوضيحا ، والفاء زائدة . ويرى الإمام محمد عبده أن جملة قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » فيها حذف ، والتقدير : لا تحسبنهم مطيعين لربهم أو عاملين بهدايته ، وقوله « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » جملة أخرى مرتبة على الجملة الأولى وهى منها بسبب .

١٨٩ — وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

١٩٠ — إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ .

١٩١ — ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ .

١٩٢ — رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ .

١٩٣ — رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ .

١٩٤ — رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .
١٩٥ — فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ .

سبع آيات رائعات جامعات فيها تمجيد لله وقدرته ، وتنويه بخلقه وسلطانه وعظمته ، وتصوير لإخلاص المؤمنين لذاته ، وتطلعهم إلى وجهه ، وتضرعهم لمقامه الكريم ، وفيها إنابة عن كامل قدرة الله في السماء والأرض وما بينهما ، وهو القادر الحكيم ، والعلى العظيم ، والمالك المهيمن العزيز الكبير .

وأولى هذه الآيات قد عطفت على ما قبلها لاتصالها بالآيات التى قبلها ، فالواو فيها عاطفة للجملة المستقلة على مثلها . كأنه يقول : لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا واصبروا واتقوا ولا تخورن عزائمكم ، وبينوا الحق ولا تكتموا منه شيئاً ، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، ولا تفرحوا بما عملتم ، ولا تحبوا أن تحمدوا بما لم تفعلوا ، فإن الله تعالى يكفيكم ما أهمكم ويغنيكم عن هذه المنكرات التى نهيتم عنها ، فإن ملك السموات والأرض كله له ، يعطى منه ما يشاء وهو على كل شىء قدير ، لا يعز عليه نصركم على الذين يؤذونكم بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين ، وإليه ترجع الأمور ، لأنه هو الذى يدبرها بحكمته وسننه فى خلقه . وفى هذا التذييل حجة على كون الخير فى اتباع ما أرشد إليه تعالى ، وتسلية للنبى ﷺ وللمؤمنين ، ووعد لهم بالنصر ، وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين الذين سبق وصفهم فى الآيات التى قبل هذه الآية ، وهو أنهم لا يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحا يظهر أثره

فى أخلاقهم وأعمالهم ، وإلا لما تركوا العمل بكتابه وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا ، فأن هذا لا يكون إلا من عدم الثقة بوعده تعالى والخوف من وعيده واليقين بقدرته وتدبيره .

والآية الثانية وما بعدها جاءت بعد أفاعيل أهل الكتاب وغيرهم مع المؤمنين ، فهى تدل على أن أولئك المجاهدين لو كانوا يتفكرون فى خلق السموات والأرض لكفوا من غرورهم ، ولعلموا أنه يليق بحكمته تعالى أن يرسل إلى الناس رسولا من أنفسهم ، ولكنه جعل الآية مطلقة موجهة إلى أولى الألباب ، ليطلق النظر لكل عاقل . وقال الرازى : اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم : جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق ، إلى الاستغراق فى معرفة الحق ، فلما طال الكلام فى تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين، عاد إلى إنارة القلوب بذكر مايدل على التوحيد والألوهية والكبرياء ، والجلال ، فذكر هذه الآية . ويقول الشيخ رشيد رضا فى ذلك : وقد بينا فى وجه اتصال هذه السورة بما قبلها عند الابتداء بتفسيرها أن كلا منهما مفتتحة بذكر الكتاب وشئون الناس فيه . ومختتمة بالثناء على الله عزوجل ودعائه . وقد ذكروا سببا لنزول هذه الآية على عدم تعلقها بالحوادث . فقد أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود ، فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات ؟ فقالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه فنزلت آية « إن فى خلق السموات » الخ ..

وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض » أى فهو يملك أمرهما ومافيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغير ذلك « والله على كل شىء قدير » ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين « إن فى خلق السموات والأرض » ومافيهما من العجائب ـ والسموات : ماعلاك مما تراه فوقك ، والأرض : ماتعيش عليه ، والخلق : التقدير والترتيب « واختلاف الليل والنهار » أى بالمجىء

والذهاب والزيادة والنقصان « لآيات » أى دلالات واضحة على قدرته تعالى وباهر حكمته «لأولى الألباب» أى لذوى العقول الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولاينظرون إليها غافلين عما فيها من عجائب الخلق ـ أيها المؤمن : املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب ، متفكرا فى قدرة مقدرها ، متدبرا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها : أخبرينى بأعجب ما رأيت من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وأطالت ثم قالت : كل أمره عجب ، أتانى فى ليلة فدخل فى لحافى حتى التصق جلده بجلدى ، ثم قال: ياعائشة هل لك أن تأذنى الليلة فى عبادة ربى؟ فقلت : يارسول الله إنى لأحب قربك وأحب هواك فقد أذنت لك ، فقام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ، ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى ، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ، ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى ، فقال يارسول الله : أتبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال يابلال : أفلا أكون عبدا شكورا، ثم قال : ومالى لا أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة « إن فى خلق السموات والأرض » ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وروى : « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها » وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول « إن فى خلق السموات والأرض » .. الخ .

وفى خلق السماء وما فيها من كواكب ونجوم وسدم ، وفى خلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ورمال ، ومدن عامرة وصحارى مقفرة ، ومن معادن ومنافع ، ومن زرع ونبات ، وأشجار وغابات ، ومن أراض شاسعة، وأقطار مترامية الأطراف . فى ذلك كله دلائل واضحة على قدرته وعظمته وكامل تدبيره فى خلقه ـ إن فى اختلاف الليل والنهار بتعاقبهما على الأرض ، يجىء هذا عقب ذاك ، ويجىء ذاك عقب هذا ، وفى اختلافهما بالزيادة والنقصان

والمجيء والذهاب ؛ فى كل ذلك عبرة وعظة بالغة لذوى العقول الذين يجب عليهم أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض ودلائل هذا الخلق على وجود الله وقدرته، ولذلك قال الله تعالى عقب ذلك « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى مضطجعين، أى يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، لأن الإنسان قل أن يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث ، وروى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال: من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : هذا فى الصلاة يصلى قائما فإن لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب ، وعن عمران بن حصين قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال: يصلى قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، والمعنى يذكرونه قياما وقعودا ومضطجعين « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » وما أبدع فيهما ، ليدلهم ذلك على قدرة الله تعالى ، ويعرفون أن لهما مدبرا حكيما ، قال بعض العلماء : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث فى القلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع والنبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم: لا تفضلونى على يونس بن متى أى تفضيلا يؤدى إلى تنقيصه، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ، وقال صلى الله عليه وسلم: لا عبادة كالتفكر ، أى لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق ، وهذا الحديث رواه البيهقى وغيره وضعفوه ، وقال صلى الله عليه وسلم : بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال : أشهد أن لك ربا وخالقا، اللهم اغفر لى، فنظر الله إليه فغفر له .

وقوله تعالى « ربنا ماخلقت هذا باطلا » على إرادة القول أى يتفكرون قائلين ذلك ، وهذا إشارة إلى الخلق بمعنى المخلوق من السموات والأرض ، لأنهما فى معنى المخلوق ، والمعنى : ماخلقته عبثا من غير حكمة ، بل خلقته لحكم عظيمة ، من جملتها : أن يكون مبدأ لوجود الإنسان ، وسببا لمعاشه ، ودليلا يدل على معرفة الله ويحث على طاعته ، لينال الحياة الأبدية والسعادة

السرمدية « سبحانك » أى تنزيها لك عن العبث ، وهو معترض بين قوله « ربنا » وبين قوله « فقنا عذاب النار » أى للإخلال بالنظر فى خلق السموات والأرض والقيام بما يقتضيه ، وقال أبو البقاء : ودخلت الفاء لمعنى الجزاء ، والتقدير : إذا نزهناك أو وحدناك فقنا عذاب النار ، وقيل : لاحاجة لهذا التقدير إذ التسبب فيها ظاهر ، فقد تسبب عن قولهم « سبحانك » طلبهم وقاية النار .

هذا وقد يتفكر المرء فى عجائب السموات والأرض وأسرارهما فيهما من الإتقان والإبداع والمنافع الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم السابغة والقدرة التامة ، وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذى خلق ذلك فى أبدع نظام ، وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر فى باله صانعها اشتغالا بها عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض هم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، والفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فياطوبى لمن جمع بين الأمرين ، واستمتع بهاتين اللذتين ، فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ونجوا من عذاب النار فى الآخرة ، فتلك النعمة التى لا تفضلها نعمة ، واللذة التى لا تعلوها لذة ، لأنها هى التى يهون معها كل كرب ، ويسلس كل صعب ، وتعظم كل نعمة ، وتتضاءل كل نقمة ، تلك اللذة التى تتجلى مع الذكر فى كل شىء فيكون فى عين ناظره جميلا ، وفى كل صوت فيكون فى سمع سامعه مطربا ؛ وإذا تفكر الذاكر فى تقصيره من حيث هو إنسان ، عن شكر المنعم عليه بكل شىء يتمتع به ، وعن القيام بما يصل إليه استعداده من معرفته . استولى عليه سلطان الجلال ، فتعلو همته فى طلب الكمال ، فينطلق لسانه بالحمد والثناء ، والشكر والدعاء ، والتنزيه الكامل لله رب العالمين . .

ومعنى « ربنا ما خلقت هذا باطلا » الخ : هذا حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكرهم وذكر الله عز وجل ، ويستنبطون من اقترانهما الدلائل

على حكمة الله وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان التى تربط الإنسان بربه حق الربط وقد أكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم وفكرهم، فطى هذه وذكر تلك من إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى عند ما يهتدون إلى شىء من معانى إحسانه وكرمه وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله فى هذه الأحوال، بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال، وكون هذا ضربا من ضروب التعليم والإرشاد، لا يمنع أن بعض المؤمنين قد نظروا وذكروا وفكروا ثم قالوا هذا أو ما يؤدى معناه، فذكر الله حالهم وابتهالهم، ولم يذكر قصتهم وأسماءهم، لأجل أن يكونوا قدوة لنا فى عملهم وأسوة فى سيرتهم.

وأما معنى كون هذا الخلق لا يكون باطلا، فهو أن هذا الإبداع فى الخلق، والإتقان للصنع، لا يمكن أن يكون من العبث والباطل، ولا يمكن أن يفعله الحكيم العليم لهذه الحياة الفانية فقط، كما أن الإنسان الذى أوتى العقل الذى يفهم هذه الحكم، ودقائق هذا الصنع، وكلما ازداد تفكيراً، ازداد علماً، حتى أنه لا حد يعرف لفهمه وعلمه؛ لا يمكن أن يكون وجد ليعيش قليلا ثم يذهب سدى، ويتلاشى فيكون باطلا، بل لا بد أن يكون باستعداده الذى لا نهاية له قد خلق ليحيا حياة لا نهاية لها، وهى الحياة الآخرة التى يرى كل عامل فيها جزاء عمله، ولهذا وصل الثناء بهذا الدعاء، ومعناه: جنبنا السيئات، ووفقنا للأعمال الصالحات، حتى يكون ذلك وقاية لنا من عذاب النار، وهذه هى نتيجة فكر المؤمن

«ربنا إنك من تدخل النار» أى للخلود فيها «فقد أخزيته» أى أهنته «وما للظالمين» أى للكافرين «من أنصار» أى ليس لهم أنصار أى أنصار و«من» للتأكيد «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى» أى يدعو الناس «للإيمان» إليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم «أن» أى بأن «آمنوا بربكم فآمنا» به. وفائدة الجمع بين مناديا وينادى أنه ذكر المبدأ مطلقا ثم مقيدا بالإيمان تفخيما لشأن المنادى، لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى

للإيمان ، نحو قولك: مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإغاثة المكروب أو نحو ذلك . وكذا الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك ، فإذا قلت : ينادى للإيمان ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته ، ويقال دعاه لكذا وإلى كذا « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا » أى الكبائر منها « وكفر عنا سيآتنا » أى الصغائر منها ، أو يكون ذلك من باب التعميم والاستيعاب كقوله « الرحمن الرحيم » ، ولأن الإلحاح والمبالغة فى الدعاء أمر مطلوب « وتوفنا مع الأبرار » أى مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم، وهم الأنبياء والصالحون ، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ـ رواه الشيخان « ربنا وآتنا » أى أعطنا « ما وعدتنا » به « على » ألسنة « رسلك » من الرحمة والفضل . . وسؤالهم ذلك وإن كان وعده تعالى لا يخلف ـ هو سؤال أن يجعلهم من مستحقيه ، لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة ، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها، وتكرير « ربنا » مبالغة فى التضرع « ولا تخزنا » أى ولا تعذبنا ولا تفضحنا ولا تهنا « يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » أى الموعد ، أى الوعد نفسه ، وعن ابن عباس : الميعاد : البعث بعد الموت « فاستجاب لهم ربهم » أى دعاءهم، وهو أخص من أجاب ، لأنه يفيد حصول جميع المطلوب « أنى » أى بأنى « لا أضيع عمل عامل منكم » وقوله تعالى « من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » أى يجمع ذكركم وأنثاكم أصل واحد ، فكل واحد منكم من الآخر ، أى الذكور من الإناث والإناث من الذكور ، وقيل : المراد وصلة الإسلام . وروى أن أم سلمة قالت : يارسول الله ، أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء ، فنزلت .

فقد بين الله تعالى علة هذه المساواة بقوله « بعضكم من بعض » ، فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل ، فلا فرق بينهما فى البشرية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال ، أى وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو

عليها من العلوم والأخلاق . وفيه وجه آخر ـ على مايرى الشيخ رشيد رضا ـ وهو أن كلا منهما صنو وزوج وشقيق للآخر، وفى معنى ذلك حديث « النساء شقائق الرجال » قالوا : أى مثلهم فى الطباع والأخلاق كأنهن مشتقات منهم ، أو لأنهن معهم من أصل واحد . ووجه ثالث : أنه بمعنى حديث : « سلمان منا » وحديث « ليس منا من دعا إلى عصبية » فمعنى « منا » أى على طريقتنا وما نحن عليه لا فرق بيننا وبينه . وهذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات فى أنفسهن وعند الرجال المسلمين . ومن علم أن جميع الأمم كانت تهضم حق المرأة قبل الإسلام وتعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجال وشهوته ، وعلم أن بعض الأديان فضلت الرجل على المرأة بمجرد كونه ذكرا وكونها أنثى ، وبعض الناس عد المرأة غير أهل للتكاليف الدينية ، وزعموا أنها ليس لها روح خالدة . من علم هذا قدر هذا الإصلاح الإسلامى لعقائد الأمم ومعاملاتها حق قدره ، وتبين له أن ما تدعيه أوربا من السبق إلى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها للرجل باطل . ولا تزال شرائعهم وتقاليدهم الدينية والمدنية تميز الرجل على المرأة .

ويقول الإمام محمد عبده : إنه لم يكتف بربط الجزاء بالعمل حتى بين أن العمل هو الذى يستحقون به ما طلبوا : من تكفير السيئات ودخول الجنة فقال « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم » ، ذكر الإخراج من الديار بعد الهجرة من باب التفصيل بعد الإجمال ، فالهجرة إنما كانت وتكون بالإخراج من الديار ، وتستتبع ما ذكر فى قوله « وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا » أى فى سبيل الله ودينه الحق . .

وقوله تعالى « لأكفرن عنهم سيئاتهم » أى أغفرها لهم وأصفح عن ذنوبهم « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى يتمتعون بما فيها من مناظر بديعة ، وحياة شريفة ، ومشاهد عجيبة .

وهكذا يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبهنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا

ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات ، فإن رأيناها تحتمل الإيذاء فى سبيل الله حتى القتل فلنبشرها بالصدق منها والرضوان منه تعالى ، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التى لا ينجى عنده غيرها . وإنما كلف الله المؤمنين الصادقين الموقنين المخلصين هذا التكليف الشاق ، لأن قيام الحق مرتبط به وإنما سعادتهم ، من حيث هم مؤمنون بقيام الحق وتأييده ، والحق فى كل زمان ومكان محتاج إلى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه . والحق والباطل يتصارعان دائما ، ولكل منهما حزب ينصره ، فيجب على أنصار الحق أن لا يفشلوا ولا ينهزموا ، بل عليهم أن يثبتوا ويصبروا . حتى تكون كلمته العليا ، وكلمة الباطل هى السفلى .

وهذه الصفات تجتمع وتفترق ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا ـ فمن المهاجرين من ترك وطنه مختاراً ولم يخرج منه إخراجا ، بل من الصحابة من هاجر مستخفياً لئلا يمنعه المشركون . ولكن قد يقال : إنهم إذا لم يكونوا أمروهم بالهجرة أمرا . وأخرجوهم من ديارهم قسراً . فإنهم قد ضيقوا عليهم المسالك حتى ألجؤوهم إلى ذلك . ومنهم من أوذى ولم يخرجه المشركون ولا مكنوه من الخروج .

وقوله تعالى «ثوابا من عند الله» معناه : لأكفرن عنهم سيئاتهم وأدخلنهم الجنات ، أثيبهم بذلك ثواباً من النوع العالى الكريم الذى عند الله لا يقدر عليه غيره ، والثواب : اسم من مادة ثاب يثوب ثوبا أى رجع ، يقال : تفرق عنه أصحابه ثم ثابوا إليه ، والمجاز : ثاب إليه عقله وحلمه ـ إذا كان خرج عن مقتضى العقل والحلم بنحو غضب شديد ثم سكت عنه غضبه ؛ ومنه : جعل البيت الحرام مثابة للناس ، فإنهم يعودون إليه بعد مفارقته ، ولذلك قال الراغب : الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصورا أنه هو هو ، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس الفعل فى قوله : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» ولم يقل جزاءه ، والثواب يقال فى الخير والشر ، لكن الأكثر المتعارف فى الخير ، وعلى هذا قوله عز وجل «ثوابا

من عند الله والله عنده حسن الثواب ». ولفظ الثواب والمثوبة حيث وقع وما فى معناه من ذكر الجزاء بالعبارات التى تدل على أنه عين العمل ، كل ذلك يؤيد أن الجزاء أثر طبيعى للعمل - كما يقول الشيخ رشيد رضا - أى أن للأعمال تأثيرا فى نفس العامل تزكيها ، فتكون بها منعمة فى الآخرة ، أو تدنسها ، فتكون معذبة فيها بحسب سنة الله تعالى .

وقال الإمام الرازى : « فى الآية تنبيه على أن استجابة الدعاء مشروطة بهذه الأمور ، أى العمل الصالح مع المهاجرة واحتمال الإخراج من الوطن والإيذاء فى سبيل الحق والخير والقتل والقتال فيه ، فلما كان حصول هذا الشرط عزيزا كان الشخص المجاب الدعاء عزيزا ». وليس المراد أنه لا يضيع نفس العمل؛ لأن العمل كلما وجد تلاشى وفنى ؛ بل المراد أنه لا يضيع ثواب العمل ، والإضاعة عبارة عن ترك الإثابة ، فقوله « لا أضيع » نفى للنفى فيكون إثباتاً ، فيصير المعنى: إنى أوصل ثواب جميع أعمالكم إليكم ؛ فالآية دالة على أن أحدا من المؤمنين لا يبقى فى النار مخلدا ، والدليل عليه أنه بإيمانه استحق ثوابا وبمعصيته استحق عقابا ؛ فلابد من وصولهما إليه بحكم هذه الآية ، والجمع بينهما محال . فإما أن يقدم الثواب ثم ينقله إلى العقاب وهو باطل بالإجماع ، أو يقدم العقاب ثم ينقله إلى الثواب وهو المطلوب .

ثم إنه تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة :

١ — محو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله « لأكفر عنهم سيئاتهم » وذلك هو الذى طلبوه بقولهم « فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .

٢ — إعطاء الثواب العظيم وهو قوله « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، وهو الذى طلبوه بقولهم « وآتنا ما وعدتنا على رسلك » .

٣ — أن يكون هذا الثواب ثوابا عظيما مقرونا بالتعظيم والإجلال وهو قوله « من عند الله » ، وهو الذى قالوه « ولا تخزنا يوم القيامة » ، لأنه سبحانه هو العظيم الذى لا نهاية لعظمته ، وإذا قال السلطان العظيم لعبده : إنى أخلع عليك خلعة من عندى - دل ذلك على كون تلك الخلعة فى نهاية الشرف .

« والله عنده حسن الثواب » هذا تأكيد لماقبله من أن الثواب من عند الله ليبين أن هذا الجزاء بمحض الفضل والكرم الإلهى ، وإن كان جزاء على عمل .

١٩٦ — لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ .

١٩٧ — مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ .

١٩٨ — لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ .

١٩٩ — وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

٢٠٠ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يقول الرازى : علم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم وكانوا فى الدنيا فى نهاية الفقر والشدة ، والكفار كانوا فى النعم ـ ذكر الله تعالى فى هذه الآية مايسليهم ويصبرهم على تلك الشدة . ويقول الإمام محمد عبده كما فى تفسير المنار : كان الكلام فى أولى الألباب المؤمنين ، وقد علمنا أن الله تعالى يستجيب لهم بالأعمال ، فالعبرة بالعمل ، ومنه المهاجرة وتحمل الإيذاء فى سبيل الله وبذل النفس فى القتال حتى يقتلوا ، وبذلك يستحقون ثواب الله تعالى ، ثم ذكر حال الكافرين للمقابلة وربط الكلام بما قبله بالنهى عن الاغترار بماهم فيه من نعيم وتمتع ، كأنه يقول : على المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب

الذى وعدته فهو النعيم الحقيق الباقى . وهذا الذى فيه الكافرون متاع قليل فلا تطلبوه ولا تحفلوا به ، يسهل بهذا على المسلمين ماكلفوه من تحمل الإيذاء والعناء فى إقامة الحق .

إن هذه الآيات الخمس فيها موازنة بين الكافرين والمتقين ، بين مصير هؤلاء وأولئك فى الآخرة .. وفيها رسم للمنهج المثالى لأهل الكتاب الذين يريدون النجاة فى الدنيا وفى الآخرة عند الله ، وهو أن يؤمنوا بالله وبرسالات الأنبياء من قبل ومن بعد ؛ فيؤمنوا برسالة رسولهم ، وبرسالة محمد عليه السلام خاتمة الرسالات .. وفيها دعوة للمؤمنين ليصبروا على آلام الجهاد ، ويتحملوا مسئوليات الكفاح من أجل الإسلام ونشره فى الآفاق ..

ثم فى صدرها كذلك تسلية للرسول وللمؤمنين ، حتى لا ييأسوا من فضل الله وهم يجاهدون أعداء الله ، وحتى يصمدوا فى كفاحهم فى سبيل نشر الإسلام فى الأرض .

ويروى فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات الخمس أنه لما كان المشركون فى رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون ، قال بعض المؤمنين : إن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد ، فنزل قوله تعالى : « لا يغرنك تقلب » أى تصرف « الذين كفروا فى البلاد » للتجارات وأنواع المكاسب ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، وقوله تعالى « متاع قليل » أى ذلك التقلب متاع قليل يتمتعون به فى الدنيا يسيرا ويفنى ، فهو قليل فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة ، أو فى جنب ماأعد الله للمؤمنين من الثواب ، قال صلى الله عليه وسلم : ماالدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع - رواه مسلم ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: جئت لزيارة رسول الله فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة وإنه لعلى حصير مابينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال : مايبكيك ؟ فقلت يارسول الله : إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله ، فقال : أماترضى أن تكون لهم الدنيا

ولنا الآخرة ؟ « ثم مأواهم » أى مصيرهم « جهنم وبئس المهاد » أى الفراش هى « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين » أى مقدرين الخلود « فيها نزلا من عند الله » النزل : ما يعد للضيف « وما » أى والذى « عند الله » من الثواب لكثرته ودوامه « خير للأبرار » مما يتقلب فيه الكفار من متاع الدنيا لقلته وسرعة زواله .

واختلف فى سبب نزول قوله تعالى « وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » فقال جابر وابن عباس وأنس: نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ؛ وذلك أنه لما مات نعاه جبريل صلى الله عليه وسلم للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، فقالوا : ومن هو ؟ قال : النجاشى ، فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له ، فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقال عطاء : نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم ، كانوا على دين عيسى فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن جريج : نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه ،وقال مجاهد : نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب ومن المفسرين من يقول : إن المراد بالذين كفروا فى صدر هذه الآيات : أهل الكتاب «وما أنزل إليكم» أى القرآن «وما أنزل إليهم» أى التوراة والإنجيل» وقوله تعالى « خاشعين » أى متواضعين « لله « لا يشترون » أى لا يستبدلون «بآيات الله» التى عندهم فى التوراة والإنجيل من نعت النبى صلى الله عليه وسلم « ثمنا قليلا » من الدنيا ، بأن يكتموها خوفا على الرياسة كما فعل غيرهم من اليهود « أولئك لهم أجرهم » أى ثواب أعمالهم « عند ربهم » وهو ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه ، وقوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » وفى قوله تعالى « يؤتكم كفلين من رحمته » ، « إن الله سريع الحساب » لنفوذ علمه فى كل شىء فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر بحساب الخلق ؛ قيل :

يحاسب الناس يوم القيامة فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا «يأيها الذين آمنوا اصبروا» على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ومن المعاصى «وصابروا» أى وغالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الحرب ، فلا يكونوا أشد صبرا منكم «ورابطوا» أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو ، وقال الله تعالى «ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لايفطر ولا ينتقل عن صلاته إلا لحاجة ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة «واتقوا الله» فى جميع الأحوال «لعلكم تفلحون» أى تفوزون بالجنة وتنجون من النار ، وقال بعض العلماء : اصبروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء ، لعلكم تفلحون فى دار البقاء .

فى هذه الآيات الخمس نهى الله عزوجل عباده المؤمنين ورسوله الكريم عن أن تفتنهم أحوال الكافرين ، أو تغرهم أموال الجاحدين ، وما هم فيه من نعيم ، وما عليه المؤمنون من فقر وشقاء ، وينهاهم عن الإخلاد إلى الراحة أو ترك الجهاد فى سبيل الإسلام .

وحاصل معنى النهى عن الغرور : أن تقلب الذين كفروا فى البلاد آمنين معتزين بمالهم ، لاينبغى أن يكون سببا لغرور المؤمن بحالهم وتوهمه أن هذا شىء يدوم لهم ، فإن هذا من إبقاء الأشياء على ظاهرها من غير بحث عن أسبابها وعللها . والغوص على بواطنها ودخائلها . كما يطوى الثوب على غره وكما ينظر الغر إلى ظواهر الأشياء دون بواطنها . ومن اكتنه حالهم الاجتماعية علم أن تقلبهم فى البلاد وتمتعهم بالأمن والنعمة فيها ليس قائما على أساس متين . ولا مرفوعا على ركن ركين . وإنما هو من قبيل حركة الاستمرار لمحرك من الباطل سابق لم يكن له معارض ؛ فإذا عارضه ما عليه المؤمنون من الحق لا يلبث أن يزول بالنسبة إلى مجموعهم ، وأما من يموت من أفرادهم على فراش نعيمه ولم

يفسأ له فى أجله إلى أن يظهر أمر المؤمنين فما يستقبله من عذاب الآخرة أعظم مما ناله من نعيم الدنيا .

ثم بين الله عز وجل مصير المؤمنين وما يلقونه من النعيم فى الآخرة . وبعد أن بين الله جل جلاله حال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب . وذكر حال الكافرين وما أعد لهم من العقاب ، ذكر فريقاً من أهل الكتاب ، يهتدون بهذا القرآن ، وكانوا مهتدين من قبله بما عندهم من هدى الأنبياء ، وذكر من وصفهم الخشوع لله ، وما كل من يدعى الإيمان بالكتاب خاشع لله . وهذا الخشوع هو روح الدين ، وهو السائق لهم إلى الإيمان بالنبى الجديد ، وهو الذى حال بينهم وبين أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . وهذا الثمن يعم المال والجاه ، فإن منه التمتع بما كانوا فيه من ذلك ، وإن كان صعبا على الإنسان أن يترك ما ألفه، وخص هؤلاء بالذكر على كونهم من المؤمنين الذين وعدوا بما تقدم ذكره فى مقابلة الكافرين ، لأجل القدوة بهم فى صبرهم على الحق فى الدين السابق والدين اللاحق ، وذكر إيمانهم بصيغة التأكيد لأن أهل الكتاب ـ بغرورهم بكتابهم وتوهمهم الاستغناء بما عندهم عن غيره كانوا أبعد الناس عن الإيمان ، وكان من الغرابة بعد ذلك العناد ومكابرة النبى صلى الله عليه وسلم وحسده على النبوة ، والتشدد فى إيذائه أن يؤمن بعضهم إيمانا صحيحا كاملا . ولهذا كان المؤمنون منهم قليلين ، وكانوا من خيارهم علما وفضلا وبصيرة . وإننا نرى علماءنا الأذكياء فى هذا العصر قلما يرجعون عن عقيدة أو رأى فى الدين جروا عليه وتلقوه عن مشايخهم وقرأوه فى كتبهم ، وإن كان باطلا وخطأ ظاهرا !!.

وقد وصفهم الله عزوجل بخمس صفات على ماذكر صاحب تفسير المنار:

١ ـ الإيمان بالله ـ يعنى الإيمان الصحيح الذى لا تشوبه نزغات الشرك ولا يفارقه الإذعان الباعث على العمل ، لا كمن قال فيهم « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » ، ولا من قال فيهم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

٢ ـ الإيمان بما أنزل إلى المسلمين وهو ما أوحاه الله إلى نبيهم محمد صلى

الله عليه وسلم ، وقدمه على ما بعده لأنه العمدة الذى عليه العمل وله الهيمنة ، والحكم الفصل فى الخلاف لثبوته باليقين ، وعدم طروء الضياع عليه والتحريف .

٣ — ما أنزل إليهم وهو ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم . ولا ينافى ذلك ضياع ونسيان بعضه ، وطروء التحريف بالترجمة والنقل بالمعنى على البعض الآخر ، فإن المراد هو الإيمان به إجمالا واتباع ما أرشد إليه القرآن فيه تفصيلا ، والقرآن هو العمدة ، ولا يعتد بإيمان من خالفه بعد العلم به .

٤ — الخشوع ، وهو ثمرة الإيمان الصحيح الذى يعين على اتباع ما يقتضيه الإيمان من العمل ، فالخشوع أثر خشية الله تعالى فى القلب تفيض على الجوارح والمشاعر ، فيخشع البصر بالسكون والانكسار ، ويخشع الصوت بالمخافتة والتهدج ، كما يخشع غيرهما .

٥ — عدم اشتراء شىء من متاع الدنيا بآيات الله ، كما هو فاش فى أصحاب الإيمان التقليدى الجنسى من علماء ملتهم ، ويقع مثله من أمثالهم فى سائر الملل ، وقد تقدم بيانه فى هذه السورة وما قبلها .

ثم أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ، وجعلها كلها سبب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة . . ويكثر الله عز وجل من الوصية بالتقوى . ومع ذلك نرى الناس قد انصرفوا عنها بتة ، حتى صار التقى عند الناس هو السفيه الذى لا يعقل مصلحته ولا مصلحة الناس ، ولا شىء أشأم على التقوى من فهمها بهذا المعنى . والتقوى أن تقى نفسك من الله ، أى من غضبه وسخطه وعقوبته ، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه . ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى ، وعرف سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة سلف الأمة الصالح ، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله . فمن صبر وصابر ورابط لأجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته ، واتقى ربه فى سائر شؤونه ؛ فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى .

والفلاح هو الفوز والظفر بالبغية المقصودة من العمل ، وقد يكون ذلك

خاصا بالدنيا كما فى قوله تعالى حكاية عن فرعون « وقد أفلح اليوم من استعلى » وقد يكون خاصا بالآخرة كقوله حكاية عن أهل الكهف « ولن تفلحوا إذن أبدا » ويكون مشتركا بين الدارين - وعندى أن أكثر وعد القرآن للمؤمنين من هذا النوع . وإرادة الفلاح الدنيوى من الآية التى نفسرها ظاهرة ؛ فإن الصبر ومصابرة الأعداء والمرابطة والتقوى كلها من أسباب الفوز على الأعداء فى الدنيا ، كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل - الذى هو شأن المؤمن - من أسباب سعادة الآخرة . وهذه الأعمال كلها اختيارية داخلة فى مقدور الإنسان ، ولذلك أمر بها ، فعمله إذا هو سبب فلاحه .

وبذلك ينتهى الربع السادس من هذا الجزء الكريم ؛ وهو كله فى تعويد الرسول والمؤمنين من أصحابه على تحمل ألم الكفاح فى سبيل الله ونشر الإسلام ، وفى تقوية عزائمهم ليتحملوا مشاق تبليغ رسالة السماء .. وفيه تصوير لأحوال أهل الكتاب الذين خانوا عهد الله ، وحرفوا الكتب المقدسة عن مواضعها ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله .. وفيه تمجيد لله . وتعظيم لقدرته وسلطانه ، ورسم لأخلاق المؤمنين وصفاتهم الفاضلة ، وموازنة بين الكافرين والمؤمنين ، وإشادة بطائفة من أهل الكتاب آمنوا برسالة نبيهم ، وآمنوا معها برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

وفى هذا الربع أيضا أمر للمؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فى سبيل الله ، وبيان أنها سبب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

إن هذا الربع هو نتيجة هذه السورة وخاتمها ، وهو جماع كل ما فيها من بلاغة وروعة تصوير ، وعظمة تمثيل ، وفصاحة تعبير .

* * *

وهذا هو ختام سورة آل عمران ، هذه السورة التى سميت باسم غريب هو « آل عمران » ، كما سميت السورة السابقة باسم « سورة البقرة » ، وهذا

نهج جديد فى البلاغة لم يألفه العرب من قبل ، أن تسمى قطعة كبيرة من البلاغة باسم ، وأن يختار لها اسم عجيب ، كاسم « البقرة » ، أو « آل عمران » .

وفى رأيى — كما سبق أن أشرت إليه فى إيجاز فى آخر الجزء الثالث من هذا التفسير — أن البقرة جعلت رمزا للسورة لتدل على أنها موجهة إلى اليهود أهل الكتاب من أتباع شريعة موسى عليه السلام ؛ ولذلك كثر فيها حجاج اليهود ونقاش الله عز وجل لهم ، وجداله إياهم ، ودعوته لهم للإيمان بمحمد ورسالته ، ولترك مقاومة الإسلام .. فإن جاء فيها ذكر النصارى فعرضا وعلى سبيل الاستطراد لا على سبيل القصد والأصالة ، وليست كل السورة فى شأن اليهود ودعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، بل فيها تنظيمات اجتماعية جديدة متحضرة للمجتمع الإسلامى وللأسرة المسلمة ، وفيها كثير من شئون العبادات والمعاملات فى الإسلام وغير ذلك ؛ ولكن لما كان ما فيها من حوار مع اليهود ، وجدل لهم ، أغرب شىء اشتملت عليه ؛ وكان ذلك هو الذى يلى مطالع هذه السورة بعد ذكر القرآن ، وزيادة المؤمنين به إيمانا ، وزيادة الكافرين به كفراً وبهتانا ومرضا فى قلوبهم ، وبعد ذكر بدء خلق الكون وخلق السموات والأرض ، وخلق آدم ؛ كان ذلك كله أكبر دليل على أن خطاب اليهود وجدالهم ـ كان مقصوداً قصده فى هذه السورة ، وما ورد أثناء ذلك وقبله وبعده ، مما لا يتصل بهذا ، فإنما ورد استطرادا وتبعا وضمنا ، ولأن المقام استدعاه أو استلزمه ؛ لذلك سميت هذه السورة باسم « بقرة بنى إسرائيل » التى ورد ذكرها فى سورة البقرة ، وجعلت هذه التسمية رمزاً لدلالة السورة على أنها موجهة إلى اليهود لدعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والأمر فى « آل عمران » غير ذلك ؛ فقد كانت السورة أو أهم شىء فيها ، فى خطاب النصارى أتباع عيسى عليه السلام ، وفى دعوة اليهود إلى الإيمان برسالة عيسى عليه السلام فى عصر عيسى ، ثم دعوة أتباع عيسى إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى عصر البعثة المحمدية الكريمة ، مع إيمانهم

برسالة نبيهم الكريم . . وما ورد فى « سورة آل عمران » من غير ذلك فعلى سبيل التبع ، ولأن المقام استدعاها وتبعها ، والكلام انساق إليها . .

ولذلك كثر فى « سورة آل عمران » خطاب أهل الكتاب ، وإن كان فيها كذلك توجيه الخطاب إلى المؤمنين ، ولكن فى مواضع العبرة والعظة ، التى يستدعيها المقام .

فسورة « آل عمران » — كما قلنا — هى فى خطاب أتباع عيسى وأمته على سبيل القصد ، وإن كان فيها خطاب لليهود ، لأن أتباع عيسى عليه السلام من اليهود ، ورسالته كانت لهم ؛ وإن كان فيها كذلك خطاب للمؤمنين ، وحديث عن انتصاراتهم وهزائمهم وحفز لهم على مواصلة الكفاح ، ولكن كان كل ذلك وارداً فى مواضع العبرة والعظة التى يقتضيها الحال .

ولما كان الخطاب فى « آل عمران » موجها إلى أتباع عيسى ، ناسب أن تسمى باسم يشير إلى ذلك ، وهو « آل عمران » ، وعمران والد مريم أم المسيح عليهما السلام ، وقد اشتملت السورة على قصة مولد عيسى ، وعلى بعثة عيسى ودعوته لقومه إلى رسالته المقدسة .

وفى سورة « آل عمران » نداء كثير لأهل الكتاب « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » ، وما شابه ذلك . وفى هذا النداء إشعار بأن المنادَين هم أهل الوحى السماوى والشرائع الإلهية السابقة ؛ وإيماء إلى أن هؤلاء حريون بأن يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، فهذه الرسالة هى شبيهة بالرسالات التى نزلت على أنبياء أهل الكتاب من قبل ، وهم حريون كذلك بأن يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، لأن فى كتبهم المقدسة دعوة إلى الإيمان بخاتمة الرسالات ، ولأن فى القرآن كثيراً من العقائد والتشريعات التى تشبه ما فى التوراة والإنجيل . وكذلك كان هذا النداء « يا أهل الكتاب » مشعراً بأن من هذبتهم الشرائع

السماوية التى نزلت من قبل على أنبيائهم ، جدير بهم أن يكونوا قد بلغوا مبلغ النضج والعقل الكامل ، مما يؤهلهم لفهم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والعمل بها ، والإيمان بمقتضاها ..

وفى آل عمران كذلك نداءات كثيرة للمؤمنين ، فيها الكثير من التوجيهات لهم ، ومن التشريعات اللازمة لجماعتهم .

وتشترك سورتا البقرة وآل عمران فى افتتاحهما بتمجيد القرآن وهدايته العامة للناس كافة ، وبالحديث عن إنزاله ومعجزته الخالدة ، وتقسيم الناس حيال هدايته إلى طوائف ثلاث : مؤمنين وكافرين ومنافقين . وآخر البقرة وآخر آل عمران متشابهان فى الدعوة إلى الإيمان برسالات الرسل وبرسالة محمد عليه السلام .

وإذا نظرنا إلى السور الثلاث التى يفتتح بها المصحف الشريف وهى : الحمد والبقرة وآل عمران ، نجد أنها تختلف فى الموضوع اختلافاً ظاهراً .

أما سورة الحمد أو فاتحة الكتاب فهى مكية ، وقد نزلت بعد البعثة المحمدية للدعوة إلى التوحيد ، ولاتخاذ شعار إسلامى للجماعة الإسلامية المؤمنة، يكون مظهراً عاماً للمسلمين فى صلاتهم وفى معاملاتهم . وكان نزولها بمكة بعد سورة المدثر ، وهو قول أكثر العلماء ، وقيل : إنها نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد ، وقيل : إنها نزلت مرتين : مرة بمكة وأخرى بالمدينة للتنبيه على فضلها ؛ والصحيح أنها نزلت بعد « المدثر » ، فهى خامس سورة من سور القرآن فى النزول .

وأما سورة البقرة فهى أول سورة نزلت فيما بين الهجرة وغزوة بدر بالمدينة ، وقد عالجت شئون المجتمع الإسلامى الجديد ، وحلت مشكلاته ، وكان هذا المجتمع الإسلامى يصطدم باليهود ، ومن أجل ذلك اشتملت السورة على كثير من الحوار معهم ، وكان سبب تسمية هذه السورة بالبقرة أنه قتل فى بنى إسرائيل فى عهد موسى قتيل ، ولم يعرف قاتله ، واختلف القوم فى تعيين

من هو القاتل ، ورفع القوم الأمر إلى موسى ليعين القاتل فأمرهم بلسان الوحى أن يذبحوا بقرة ثم يضربوا القتيل ببعضها فتعود إليه الحياة ، ويتكلم مخبرا عن اسم قاتله ، واستهزأت بنو إسرائيل بموسى ، وأخذوا يسألون عن صفة البقرة تعنتا ، وموسى يلح عليهم فى البيان ، وأخيرا عثروا عليها وذبحوها وما كادوا يفعلون ، ثم ضربوه ببعضها فقام وحدث عن قاتله .

وفتوى موسى لبنى إسرائيل - حين اختلفوا فى تعيين القاتل فى جريمة قتل حدثت فيهم - بأن يذبحو بقرة ويضربوا القتيل ببعضها فيحييه الله ويحدث عن قاتله ، لم تكن جزافا ، فذبح البقرة فى مثل هذه الجريمة شريعة معروفة عند بنى إسرائيل ، ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التثنية ، وهو أحد أسفار العهد القديم ما نصه[1] : « إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها ، واقعا فى الحقل ، لا يعلم من قتله ، يخرج شيوخك وقضاتك ، ويقيسون إلى المدن التى حول القتيل ، فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها ، لم تجر بالنير ، وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان ، لم يحرث فيه ولم يزرع ، ويكسرون عنق العجلة فى الوادى ، ثم يتقدم الكهنة بنو لاوى ، لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ، ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة ، ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم ، على العجلة المكسورة العنق فى الوادى ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم ، وأعيننا لم تبصر ، اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يارب ، ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل ، فيغفر لهم الدم » .

وسورة البقرة تهدف إلى توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل ، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، ولذلك كثر فى هذه السورة تذكير بنى إسرائيل بنعم الله على أسلافهم ، وبما قابل به أسلافهم هذه النعم

---

(١) ص ٢١١ الكتاب المقدس — بالعربية — نشر جمعية التوراة البريطانية والأجنبية .

من جحود وكفر وطغيان . ومن قوله تعالى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون » وذلك فى أوائل السورة إلى آخر الآية الكريمة « ليس البر » ، وقف على حجاج بنى إسرائيل وجدالهم ودعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله عليه . وما بعد ذلك هو فى التشريع الإسلامى الجديد الذى تطلبته حياة المسلمين الجديدة فى المدينة عقب الهجرة ، سواء فى العبادات أو المعاملات أو العادات ، فقد ذكر فيها شريعة القصاص والصيام والوصية والاعتكاف والنهى عن أكل أموال الناس بالباطل والحج والعمرة ، وتشريع القتال للدفاع عن النفس والعقيدة الإسلامية ، وتحريم الخمر والميسر ؛ وذكرت شئون الحيض والطلاق والعدة والخلع والرضاع والأيمان وكفارة الحنث فيها ، وشئون الربا والبيع والوثائق المالية وسوى ذلك من شئون .

وفى البقرة طلب الله من المؤمنين توحيد الاتجاه إلى القبلة فى الصلاة والدعاء وسواهما ؛ وذلك على اختلاف أقطار المسلمين . وتباين آفاقهم ، فأمرهم الله عز وجل بأن يتجهوا إلى مكان واحد ، إلى البيت الحرام ، الذى جعل قبلة المسلمين فى الصلاة وسواها . وقد تناولت آيات البقرة جدال اليهود وتفنيد مزاعمهم فى شأن القبلة ، والرد على ماخاضوا فيه من أحاديث إثر أمر المسلمين بتغيير قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة والبيت الحرام .

وأما سورة آل عمران فقد جاءت ثالث سورة فى القرآن الكريم : بعد سورة الفاتحة وسورة البقرة ، وذلك وفق ترتيب المصحف الشريف ، وقد ذكر فيها « عمران » مرتين فى آيتين متتاليتين : آية « إن الله اصطفى » الخ ، وآية « إذ قالت امرأة عمران » الخ

وهكذا نجد البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التى طلب الحواريون إنزالها من السماء على عيسى عليه السلام ، وسورة النساء سميت

بذلك لما فيها من تنظيم لأحوال الأسرة المسلمة ، ولأمور المرأة فى شريعة الإسلام .

وسورة آل عمران مدنية ، وقد نزلت بعد مدة من حياة المسلمين فيها ، وورد فيها ذكر لغزوة بدر الكبرى ، وأحد ، وحمراء الأسد ، وبدر الصغرى أو بدر الأخيرة . وكانت هذه المعركة فى شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة ، وقد نزلت « آل عمران » بعد سورة « الأنفال » التى ورد فيها ذكر غزوة بدر ، ونزلت بعدها سورة « الأحزاب » ، وموقعة الأحزاب وقعت فى السنة الخامسة للهجرة .

وهذه السورة تبتدىء كسورة البقرة بتمجيد شأن القرآن الكريم وتنزيه الله تعالى وتمجيد المؤمنين برسالة الإسلام ، وبيان مصير الكافرين بهذه الرسالة السماوية التى هى خاتمة الرسالات ، ثم اشتملت على قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى ، واشتملت على حجاج النصارى وأهل الكتاب ، واشتملت على قصة غزوة بدر وأحد ، وورد فيها تسلية للرسول على هزيمة أحد ، وحفز له وللمؤمنين على مواصلة الكفاح فى سبيل الله ورسالته الحكيمة ، التى نزلت على محمد صلوات الله وسلامه عليه والتى هى خاتمة رسالات السماء .

وقد ختمت السورة بصفات عباد الله المؤمنين ، ثم ختمت آخرا بالأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ، وهى خلال لازمة للمكافحين فى سبيل المبادىء والمثل العالية ، وعليها يتوقف نجاحهم فى تبليغ رسالة السماء المقدسة دين الإسلام الكريم .

وفى هذه السورة « آل عمران » نداء للمؤمنين برسالة محمد بترك طاعة فريق من أهل الكتاب يحقدون على الإسلام ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ونداء لهم بالتقوى والاعتصام بحبل الله وذكر نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم ، ونداء لهم بعدم اتخاذ بطانة من دونهم لا يألونهم خبالا ، ونداء لهم بترك الربا وطاعة الله وبالمسارعة إلى مغفرة من الله ورحمة ، ونداء لهم بالصبر فى الشدائد والخطوب ، وبالمصابرة وهى المغالبة فى الصبر بأن

لايصبروا فى أنفسهم فقط ، بل بأن يغالبوا أعداءهم فى الصبر ؛ وبالمرابطة. والرباط هو اللزوم والثبات ، وأصله من الربط بمعنى الشد ، وهو عزيمة يعزمها المؤمن بالشىء فيربط الله بها على قلبه ، فلا يتحول ولا يتزلزل ، وكل أمر حرص الإنسان على لزومه أو التزامه فقد رابط عليه وارتبط به ، يريد الله عز وجل حث المؤمنين بأن يكونوا ذوى عزائم قوية. ومن المادة: الرباط الذى يكون فى الثغور ، ورباط الخيل أى ربطها للحرب والجهاد وتخصيصها بذلك، والرباط الذى هو انتظار الصلاة بعد الصلاة وغير ذلك ، كما ناداهم آمرا لهم بالتقوى ، والتقوى هى جماع كل خير ، ومصدر كل فوز فى الدنيا والآخرة ، وسر كل فلاح فى الأولى والعقبى ، وإلى الله عاقبة الأمور .

(٤)

ســـورة النساء

تمهيد

سورة النساء مدنية ، وهى السورة الرابعة من كتاب الله العظيم ، وقد يطلق عليها اسم « سورة النساء الكبرى » فصلا بينها وبين سورة الطلاق التى اشتملت على كثير من أمور النساء ، والتى كانت تسمى باسم سورة النساء الصغرى .

وشئون الأسرة الإسلامية وتكوين البيت ، وأمور النساء والأزواج ، قد ذكرت فى القرآن الكريم فى سور كثيرة ، منها هذه السورة ، وسورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة النور ، والأحزاب ، والمجادلة ، والممتحنة ، والطلاق ، والتحريم ؛ وذلك كله عناية باللبنة الأولى للمجتمع الإسلامى الجديد .

والإسلام يكرم المرأة ، ويرفع منزلتها فى الحياة والمجتمع ، ويسويها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، ويجعل لها شخصية معنوية مستقلة عن الرجل ، وقد حرر الإسلام وكتابه الكريم المرأة من إسار الرجل ، وجعل لها كل ما للرجل من الحقوق والواجبات وإذا علمت أن العرب كانت تبالغ فى حجاب المرأة وإبعادها عن المجتمع ، وكانت لا تذكر اسمها على الألسنة ؛ علمت مدى عظمة الإسلام وكتابه الحكيم ، حين سمى هذه السورة بهذا الاسم ، « سورة النساء » وحين تناول شئون المرأة فى هذه السورة تناولا واضحا مفصلا طويلا .

وقد بدأ الله عز وجل هذه السورة الشريفة بخطاب الناس كافة ، يأمرهم بتقوى الله وطاعته ، ويذكرهم بأن أصلهم جميعا واحد ، مهما اختلفت شعوبهم وأجناسهم وأقطارهم .

والأمر بتقوى الله هنا معلل أو كالمعلل بأن الله مصدر الخلق ، ومصدر الوجود كافة ، وفى ذلك تذكير للناس بأولى النعم وأهمها ، وهى نعمة الخلق ؛ وتذكير لهم بالرحم التى انتظمت الناس جميعا ، ومن ثم يجب أن يعتبر الناس جميعا أسرة واحدة ، أصلهم واحد ، كما أن ربهم واحد ، ولذلك يجب أن

تسود بينهم روح التعاون والمحبة ، وأن يعيشوا شعوبا متفاهمين متآخين متصافين ، وما أجدر الناس أن يبعدوا من بينهم الخصومات والخلافات وشبح الحروب ، وأن يسودهم الوئام والسلام ، وأن يعيشوا إخوانا فى الله وفى الإنسانية .

إن شر ماتمنى به الحياة هى هذه الحروب الحديثة المدمرة التى لا طاقة للإنسانية باحتمالها ، وخاصة بعد الكشف عن القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات وسواها من وسائل الدمار .

وإذا كان الناس من أصل واحد ، وربهم واحد ، فلم لا يعودون أسرة دولية واحدة ، يسودها الحب والإخاء والسلام ، وتتبادل أمم الأرض التجارات والمصالح على قدم المساواة ؟ ولم لا ينتهى عهد الاستعمار والتفرقة العنصرية ، ويصير الناس جميعا إخوة متحابين ؟ .

وفى هذه السورة الشريفة تنظيم كامل لشئون الأسرة ، وخوض فى شئون كثيرة تمس عقيدة الإسلام وشرائعه فى العبادات ، والمعاملات ، وتتصل بالمجتمع الإسلامى وتنظيمه تنظيما تاما سليما .

وقد افتتحت هذه السورة بعد الأمر بالتقوى بأحكام اليتامى والبيوت والأموال ، ومنها الميراث ومحرمات النكاح وحقوق الرجال على النساء والنساء على الرجال . ثم ذكر فيها كثير من أحكام القتال . وجاء فيها بين أحكام البيوت وأحكام القتال حجاج لأهل الكتاب ، وفى أثناء أحكام القتال وآدابه ورد فيها شىء عن المنافقين ، ثم كانت أواخرها فى محاجة أهل الكتاب إلا ثلاث آيات هن خاتمتها ، وكل ذلك من شؤون الإسلام بعد الهجرة .

وهذه السورة تتصل بالسورة التى قبلها بسبب متين ، فقد افتتحت هذه السورة بمثل مااختتمت به تلك من الأمر بالتقوى وهو مايسمى فى البديع : تشابه الأطراف . وفى روح المعانى أن هذا آكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور . ومن وجوه مشابهتها للسورة قبلها : محاجة أهل الكتاب : اليهود والنصارى

جميعا فى كل منهما . ومنها : ذكر شىء عن المنافقين فى كل منهما وكونه فى سياق الكلام عن القتال . ومنها : ذكر أحكام القتال فى كل منهما . ومنها : أن فى النساء شيئا يتعلق بغزوة أحد التى فصلت وقائعها وحكمها وأحكامها فى آل عمران ، وهو قوله تعالى فى هذه السورة « فما لكم فى المنافقين فئتين » الخ . وكذا ذكر شىء يتعلق بغزوة (حمراء الأسد) التى كانت بعد « أحد » ، وذلك قوله تعالى فى هذه السورة « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » .

وسورة النساء مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية .

وإذا أردنا أن نحدد تاريخ نزول هذه السورة الكريمة ، فإننا نعلم أن « سورة النساء » مدنية ؛ وقد ورد عن عائشة رضى الله عنها : « مانزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله » وقد بنى الرسول صلوات الله عليه بعائشة فى المدينة فى السنة الأولى من الهجرة ، وروى عنها : « أعرس بى رسول الله على رأس ثمانية أشهر » أى بعد الهجرة ؛ وقيل فى السنة الثانية .. وذلك ماعدا آية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات » الخ ، فقد نزلت بمكة عام الفتح .

هذا ماذكر صاحب تفسير المنار ، ويبدو أنه خطأ واضح ، إذ أن المراد بذلك ليس نزولها كلها بل بعض أحكامها ، أو أنها قد بدأ نزولها بعد بناء الرسول بها ، واستمرت آياتها تنزل بعد ذلك حتى كملت بعد الهجرة بسنوات ، أو أن نزول هذه السورة وعائشة عند رسول الله لايحمل على الفور بل على التراخى ، اى نزلت بعد بناء الرسول صلى الله عليه وسلم بها بفترة طويلة . وذلك لأن هذه السورة نزلت بعد سورة الممتحنة ، وقد نزلت سورة الممتحنة عقب صلح الحديبية ، الذى حدث فى السنة السادسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة النساء فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

هذا الخطاب الإلهي الموجه إلى البشر عامة ، وإلى الناس كافة ، قد افتتحت به هذه السورة الكريمة ، وقد ورد خطاب الناس فى مطلع سورة الحج أيضا « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » ، فهنا وهناك خطاب موجه إلى الناس كافة ، لأمرهم بتقوى الله وحثهم عليها ، وإرشادهم إليها ، والتقوى هى مصدر كل خير وسعادة للناس ، وهى تشتمل على الإيمان وزيادة، ففيها إيمان وعمل وإخلاص لله فى العمل ؛ وقد علل هنا الأمر بتقوى الله بأنه هو الذى خلق الناس كافة من أصل واحد ، ولا شك أن الخلق إذا بدأ بنفس واحدة ، ثم تكاثر إلى ذكر وأنثى ، ثم تكاثر إلى ما لا يحصى من الذكور والإناث ، لاشك أنه معجزة ضخمة عظيمة تذهل العقول والألباب ، وتدعو إلى الإعجاب والتقدير ، ومن ثم جعل الأمر بالتقوى هنا وهناك معلولا لكون الله تعالى هو الذى خلق الخلق والموت والحياة والبعث والنشور .. كما أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وجعل صلتها معادلة لتقواه وطاعته ، وبصلة الأرحام تستقيم أحوال المجتمع ، وتنتظم شئونه انتظاما كاملا .

« بسم الله » إله الكون والحياة « الرحمن » الذى عم عباده بالإنعام « الرحيم » الذى خص أهل ولايته بدار السلام والنعيم « ياأيها الناس » خطاب يعم المكلفين من أولاد آدم من الذكور والإناث الموجودين منهم فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم ؛ وقيل : يختص بالعرب منهم لقوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » . إذ المناشدة بالله وبالرحم عادة

مختصة بهم ، فيقولون : أنشدك بالله وبالرحم ، وأجيب بأن خصوص آخر الآية لايمنع عموم أولها . « اتقوا ربكم » أى عذابه بأن تطيعوه « الذى خلقكم من نفس واحدة » ، أى فرعكم من أصل واحد ، وهو نفس آدم أبيكم .

وقوله تعالى « وخلق منها زوجها » أى خلقكم من شخص واحد هو آدم ، وخلق منها أمكم حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى ؛ فهو معطوف على « خلقكم » ، أو معطوف على محذوف ، كأنه قيل : من نفس واحدة أنشأها وابتدأها وخلق منها زوجها ، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه . والمعنى : شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها ، وهى أنه أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء ، وهو تقرير لخلقكم من نفس واحدة ، وقوله تعالى « وبث منهما » أى من آدم وحواء « رجالا كثيراً ونساء » أى كثيراً ، بيان لكيفية تولدهم منهما ، والمعنى : وبث أى نشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة ، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، إذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر ، إذ للرجل أن يزيد فى عصمته على واحدة بخلاف المرأة ، ولا تكرار فى الآية ؛ لأن « خلقكم من نفس واحدة » مغاير لخلق حواء منها « واتقوا الله الذى تساءلون » أى تتساءلون « به » فيما بينكم ، حيث يقول بعضكم لبعض : أسألك بالله وأنشدك بالله ؛ فإن قيل : الذى يقتضيه نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة ـ على التفصيل الذى ذكره ـ موجب للتقوى وداعيا إليها ؟ أجيب بأن ذلك يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على ذلك كان قادراً على كل شىء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدى إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم ، فحقهم أن يتقوه فى كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها ، « و » اتقوا « الأرحام » أى بأن تصلوها ولا تقطعوها ، وكانوا يتناشدون بالرحم ، وقد نبه سبحانه وتعالى ـ إذ قرن الأرحام باسمه ـ على أن صلتها منه بمكان ، وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : الرحم

معلقة بالعرش تقول : ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله . « إن الله كان عليكم رقيبا » أي حافظا لأعمالكم فيجازيكم بها ، أي لم يزل متصفا بذلك .

ويقول الإمام محمد عبده في قوله تعالى « خلقكم من نفس واحدة » هذا تمهيد لما يأتي من أحكام اليتامى ونحوها ، كأنه يقول : يا أيها الناس خافوا الله واتقوا الاعتداء على ما وضعه لكم من حدود الأعمال ، واعلموا أنكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون إلى أصل واحد ، فعليكم أن تعطفوا على الضعيف كاليتيم الذى فقد والده وتحافظوا على حقوقه . وليس المراد بالنفس الواحدة ـ عنده ـ آدم بالنص ولا بالظاهر ، فمن المفسرين من يقول : إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش ؛ فإذا صح هذا هنا جاز أن يفهم منه بنو قريش وأن النفس الواحدة هى قريش أو عدنان ، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان . وإذا قلنا : إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أى لجميع الأمم ، فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده ؛ فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم ، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون .

وحاصل معنى الآية : أن الله تعالى يقول : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى أنشأكم ورباكم بنعمه ، اتقوه فى أنفسكم ولا تتعدوا حدوده فيما شرعه من الحقوق والآداب لكم لإصلاح شأنكم ؛ فإنه خلقكم من نفس واحدة ، فكنتم جنسا واحدا تقوم مصلحته بتعاون أفراده واتحادهم وحفظ بعضهم حقوق بعض . فتقواه عز وجل فيها شكر لربوبيته وفيها ترقية لوحدتكم الإنسانية وعروج للكمال فيها . واتقوا الله فى أمره ونهيه فى حقوق الرحم التى هى أخص من حقوق الإنسانية بأن تصلوا الأرحام التى أمركم بوصلها ، وتحذروا ما نهاكم عنه من قطعها . اتقوه فى ذلك لما فى تقواه من الخير لكم الذى يذكركم به تساؤلكم فيما بينكم باسمه الكريم وحقه على عباده وسلطانه الأعلى على قلوبهم ، وبحقوق الرحم ، وما فى هذا التساؤل من الاستعطاف والإيلاف ، فلا تفرطوا

فى هاتين الرابطتين بينكم : رابطة الايمان بالله وتعظيم اسمه ، ورابطة وشيجة الرحم ، فإنكم إذا فرطتم فى ذلك أفسدتم فطرتكم فتفسد البيوت والعشائر ، والشعوب والقبائل . ومعنى « إن الله كان عليكم رقيبا » أى مشرفا على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها فى أحوالكم ، لايخفى عليه شىء من ذلك ، فهو يشرع لكم من الأحكام مايصلح شأنكم ويعدكم به للسعادة فى الدنيا والآخرة . و« الرقيب » وصف بمعنى الراقب ، من رقبه إذا أشرف عليه من مكان عال ، ومنه المرقب ، وهو المكان الذى يشرف منه الإنسان على مادونه . وأطلق بمعنى الحفظ لأنه من لوازمه ، وبه فسره هنا مجاهد . وقال الأستاذ الإمام : إن الله تعالى ذكرنا هنا بمراقبته لنا لتنبيهنا إلى الإخلاص ، يعنى أن من تذكر أن الله مشرف عليه مراقب لأعماله كان جديراً بأن يتقيه ويلتزم حدوده .

٢ — وَءَاتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

« وآتوا اليتامى » أى بعد البلوغ والرشد « أموالهم » ، وسموا يتامى بعد البلوغ مع أن اليتيم فى عرف الشرع صغير لاأب له ، على معنى أنهم كانوا يتامى ، وإن كان اليتم فى اللغة الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة ، وقيل : اليتيم فى الإنسان من قبل الآباء وفى الحيوان من قبل الأمهات وفى الطير من قبلهما ، والخطاب للأولياء والأوصياء ، روى أن رجلا كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال من عمه فمنعه ، فترافعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ، نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره أى جنته ، فلما قبض الفتى ماله أنفقه فى سبيل الله فقال صلوات الله عليه : ثبت الأجر وبقى الوزر ، فقالوا : يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بقى الوزر وهو ينفق فى سبيل الله؟ فقال : ثبت الأجر للغلام وبقى الوزر على والده ، أى لعله كان لايخرج زكاته « ولا تتبدلوا الخبيث»

أى الحرام « بالطيب » أى الحلال أى تأخذوه بدله كما تفعلوا فى أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الردىء من مالكم مكانه ، ومعنى تبدل هذا بذاك أنك أخذت هذا وتركت ذاك ، وكذا استبدلت لأن معنى : بدلت هذا بذاك - أخذت ذاك وأعطيت هذا ، قال تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان » ، ففى التبدل ما دخلته الباء متروك وما تعدى إليه الفعل بنفسه مأخوذ ، وفى التبديل بالعكس ، « ولا تأكلوا أموالهم إلى » أى مع « أموالكم » كقوله تعالى « من أنصارى إلى الله » أى مع الله أى لا تنفقوهما معا ولا تسووا بينهما ، وأكلكم مالكم حلال لكم ، وأكلكم أموالهم حرام عليكم ، فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأقل من أجرتكم ونفقتكم ، فإن قيل : قد حرم الله عليكم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالكم ، فلم ورد النهى عن أكله معها ؟ فالجواب بأنهم كانوا يفعلون كذلك فأنكر عليهم فعلهم ، وسمع لهم ليكون أزجر لهم « إنه » أى أكلها « كان حوبا » أى ذنبا « كبيرا » أى عظيما

٣ — وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

٤ — وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا .

هاتان الآيتان الكريمتان فى شريعة الزواج ، وفى إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام إلى أربع بشرط العدل بينهن ، وفى فريضة المهر فى الزواج ، ووجوب أدائها للزوجة إلا إذا تنازلت عنه عن طيب نفس ورضا كاملين .

أما الآية الأولى فلها مغزى دينى واجتماعى جليل ، ولها صدى عميق فى نفوس المسلمين فى كل عصر وجيل ، وهى من الآيات التى يدور حول موضوعها البحث كثيرا .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها سألها عروة عن قول الله عز وجل « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » فقالت يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن فى الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية ، فأنزل الله عز وجل « ويستفتونك فى النساء » الآية ، قالت عائشة: وقول الله عز وجل فى آية أخرى « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، قالت : فنهوا أن ينكحوا عمن رغبوا فى ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

ولما نزلت الآية السابقة فى اليتامى ، وعرف المسلمون جزاء أكل أموالهم من الإثم والذنب الكبير ، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك العدل فى حقوق اليتامى ، وأخذوا يتحرجون من ولايتهم، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست ولا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن فنزل قوله تعالى « وإن خفتم » أى خشيتم « أن لا تقسطوا » أى تعدلوا « فى اليتامى » فتحرجتم من أمرهم ، فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء وقللوا عدد الزوجات « فانكحوا » أى تزوجوا . وقوله تعالى : « ما طاب » أى حل « لكم من النساء » أى لأن منهن ما حرم كاللاتى فى آية التحريم « مثنى وثلاث ورباع » أى تزوجوا اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ؛ لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب ؛ لأنه إنما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه ، والقبح قائم فى كل ذنب ، وإنما عبر عنهما بـ (ما) ومن يعقل إنما يعبر عنه بـ (من) ذاهبا إلى الصفة، لأنه إنما يفرق بين من وما فى الذوات لا فى الصفات ، أو أجراهن مجرى غير العقلاء بعثا على الشفقة بهن والعطف عليهن ، وقيل : كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم

يتحرجون من ولاية اليتامى ، فقيل :خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حل لكم من النساء ، وقيل : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال فيتزوجها ضنا بها فربما يجتمع عنده منهن عدد ، ولا يقدر على القيام بحقوقهن ، فإن قيل : إن الذى أطلق فى الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؛ حتى أن بعض الرافضة قال : إن للشخص أن يتزوج بثمانية عشر ؟ فالجواب بأن الخطاب للجمع ، فوجب التكرير ليصيب كل رجل يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له ، كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم : درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، ولو أفردت لم يكن له معنى ، فإن قيل : لم جاء العطف بالواو دون (أو) حتى قال بعض الرافضة : إن له أن يتزوج بتسعة ؟ أجيب بأنه لو عطف بأو لذهب معنى تجويز أنواع الجمع بين أنواع العدد التى دلت عليه الواو « فإن خفتم ألا تعدلوا » بين هـذه الأعداد أيضا ، أى إن خفتم الجور فى القسم والنفقة « فواحدة » أى فانكحوا واحدة وذروا الجمع « أوما ملكت أيمانكم » أى اقتصروا على ذلك سواء بين الواحدة من الأزواج والعدد من السرارى ، لخفة مؤونتهن وعدم وجوب القسم بينهن . وهـذا فى حق الحر ، أما من فيه رق فلا يتزوج أكثر من اثنتين بإجماع الصحابة . وقد يعرض للحر عوارض لا يزاد فيها على واحدة لجنون أو سفه « ذلك » أى النكاح فقط ، أو الواحدة « أدنى » أى أقرب إلى « أن لا تعولوا » أى تجوروا يقال : عال الحاكم فى حكمه ، إذا جار . وروى أن أعرابيا حكم عليه حاكم فقال له : أتعول علىّ ؟ . وقد ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لا تعولوا : أن لا تجوروا ، وحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه فسر أن لا تعولوا : بأن لا تكثروا عيالكم ، قال البغوى : يقال من كثرة العيال : أعال يعيل إعالة إذا كثرت عياله ، وقال الزمخشرى : ووجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم . كقولك : ما نهم يمونهم ، إذا أنفق عليهم ، لأن من كثر عياله

لزمه أن يعولهم ، ثم قال : وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد ؛ فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : لا تظنن بكلمة خرجت من فيك ـ أو فى أخيك ـ سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملا ، وكان الشافعى رحمه الله أعلا كعبا وأطول باعا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا .

وقوله تعالى « فانكحوا ماطاب لكم من النساء » هذا حكم من أحكام السورة متعلق بالنساء بمناسبة اليتامى، وقيل متعلق باليتامى بأنفسهم أصالة وأموالهم تبعا ، وما قبله متعلق بالأموال خاصة . ففى الصحيحين وسنن النسائى والبيهق والتفسير عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : ياابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها يشركها فى مالها ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل مايعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بها أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة « ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل الله عز وجل « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ومايتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن » قالت : والذى ذكر الله أنه يتلى عليكم فى الكتاب الآية الأولى التى قال الله فيها « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهو أن ينكحوا مارغبوا فى مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن ، وفى رواية أخرى فى الصحيح عنها قالت : « أنزلت فى الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال وليس أحد يخاصم دونها ، فلا ينكحها لما لها فيضربها ويسىء صحبتها فقال « إن

خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، يقول : خذ ماأحللت لكم ودع هذه التى تظلمها ، وفى رواية صحيحة أخرى عنها فيما يحال على هذه الآية فى الآية الآخرى وهو قوله « وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن » قالت أنزلت فى اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه فى ماله فيرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يزوجها غيره فيشركه فى مالها فيعضلها فلايتزوجها ولا يزوجهاغيره . قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار: فعلى هذا تكون الآية مسوقة فى الأصل للوصية بحفظ حق يتامى النساء فى أموالهن وأنفسهن ، والمراد باليتامى فيها النساء ، وبالنساء غير اليتامى ، أى إن خفتم أن لاتقسطوا أى لا تعدلوا فى يتامى النساء فتعاملوهن كما تعاملون غيرهن فى المهر وغيره أو أحسن ، فاتركوا التزوج بهن وتزوجوا ماحل لكم أوماراق لكم وحسن فى أعينكم من غيرهن قال ربيعة: أتركوهن فقد أحللت لكم أربعا . أى وسع عليهم فى غيرهن حتى لايظلموهن . وقال الأستاذ بعد أن أورد قول عائشة بالمعنى مختصراً : كأنه يقول : إذا أردتم التزوج باليتيمة وخفتم أن تسهل عليكم الزوجية أن تأكلوا أموالها فاتركوا التزوج بها ، وانكحوا ماطاب لكم من النساء الرشيدات .

وقال ابن جرير الطبرى : بعد أن ذكر عن بعضهم تفسير الآية بما أيده بالروايات عن عائشة ، وقال آخرون : بل معنى ذلك النهى عن نكاح مافوق الأربع حذرا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم ، وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل ، فإذا صار معدما مال على مال يتيمه الذى فى حجره فأنفقه أو تزوج به، فنهوا عن ذلك، وقيل لهم:إن خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم ، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع ، وإن خفتم أيضاً من الأربع أن لاتعدلوا فى أموالهن فاقتصروا ، على الواحدة أو على ماملكت أيمانكم . ثم روى بأسانيده عن عكرمة أنهم كانوا يتزوجون كثيرا ويتغايرون فى الكثرة ويغيرون على أموال اليتامى من أجل ذلك . وروى

عن ابن عباس رضى الله عنه أن الرجل كان يتزوج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى فنهوا عن ذلك . وعنه أنه قال : قصر الرجل على أربع من أجل أموال اليتامى. ثم ذكر ابن جرير فى الآية وجها ثالثا فقال : وقال آخرون: بل معنى ذلك أن القوم كانوا يتحوبون فى أموال اليتامى ولا يتحوبون فى النساء أن لايعدلوا فيهن ، فقيل لهم: كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى فكذلك فخافوا فى النساء ألاتعدلوا فيهن ، ولاتنكحوا منهن إلامن واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك . وإن خفتم أيضاً أن لاتعدلوا فى الزيادة عن الواحدة فلا تنكحوا إلا مالاتخافون أن تجوروا فيهن من واحدة أو ما ملكت أيمانكم . وأورد ابن جرير الروايات التى تؤيد ذلك عن سعيد بن جبير والسدى وقتادة . وعن ابن عباس أيضاً من طريق عبد الله بن صالح أنه قال فى الآية : كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى وكانوا يعظمون شأن اليتيم فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم وتركوا ماكانوا ينكحون فى الجاهلية ـ أى لم يتفقدوه فى الإسلام ويتأثموا مما فيه من ظلم النساء ـ فقال « وإن خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ونهاهم عما كانوا ينكحون فى الجاهلية . وروى نحوه عن الضحاك . وفيه أنهم كانوا ينكحون عشرا من النساء ونساء آبائهم . وأنه وعظهم فى اليتامى وفى النساء ، وروى نحوه أيضاً عن الربيع ومجاهد. وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بتأويل الآية قول من قال ؛ تأويلها : وإن خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا مالا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع ؛ فان خفتم الجور فى الواحدة أيضا فلا تنكحوها . ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم ، فانه أحرى أن لاتجوروا عليهن . وإنما قلنا : إن ذلك أولى بتأويل الآية لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التى قبلها بالنهى عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخلطها بغيرها من الأموال فقال تعالى ذكره « وآتوا اليتامى أموالهم » الآية . ثم أعلمهم أنهم إن اتقوا الله فى ذلك فتحرجوا فيه ، فالواجب عليهم من اتقاء الله والتحرج فى أمر النساء مثل الذى عليهم من التحرج فى أمر اليتامى ، وأعلمهم كيف التخلص

لهم من الجور فيه ، كما عرفهم المخلص من الجور فى أموال اليتامى ، فقال : انكحوا إن أمنتم الجور فى النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهن مثنى وثلاث ورباع، الخ ماتقدم عنه آنفا : فى الكلام إذا كان المعنى ماذكرنا متروك استغنى بدلالة ماظهر من الكلام عن ذكره ، وذلك أن معنى الكلام : وإن خفتم أن لاتقسطوا فى أموال اليتامى فتعدلوا فيها ، فكذلك فخافوا أن لاتقسطوا فى حقوق النساء التى أوجبها الله عليكم ، فلا تتزوجوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور.. الخ . وذكر أن جواب الشرط فى قوله تعالى : « وإن خفتم ألاتعدلوا فى اليتامى » هو قوله « فانكحوا ماطاب لكم » مع ضميمة قوله « ذلك أدنى أن لا تعدلوا » فإن هذا أفهم أن اللازم المراد من قوله « فانكحوا ماطاب لكم » هو العدل والإقساط فى النساء والتحذير من ضده ، وهو عدم الإقساط فيهن الذى يجب أن يخاف كما يخاف عدم الإقساط فى اليتامى ؛ لأن كلا منهما مفسدة فى نظام الاجتماع تغضب الله وتوجب سخطه ويؤكده قوله تعالى « ذلك أدنى أن لا تعولوا » ، وقد بيناه بأوضح مما بينه هو به . قال الشيخ رشيد رضا : وعلى هذا الوجه الذى اختاره ابن جرير يكون الكلام فى العدل فى النساء وتقليل العدد الذى ينكح منهن مع الثقة بالعدل مقصودا لذاته . وهو الذى يليق بالمسألة فى ذاتها ، لأنها من أهم المسائل الاجتماعية ، ويناسب أن يكون فى أوائل السورة التى سميت سورة النساء . وأما على الوجه الذى قالته عائشة وهو الذى اختاره الأستاذ الإمام فى الدرس فمسألة تعدد الزوجات جاءت بالتبع لا بالأصالة . وكذلك على الوجه الثالث الذى يقول : إن المراد منعهم من التعدد الذى يحتاجون فيه إلى أموال اليتامى لينفقوا على أزواجهم الكثيرات ، وهذا أضعف الوجوه وإن قال الرازى إنه أقربها . وقد يصح أن يقال : إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعانى من قبيل رأى الشافعية الذين يجوزون استعمال اللفظ المشترك فى كل ما يحتمله الكلام من معانيه واستعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا . والذى يقرره كاتب هذا الكلام فى دروس التفسير دائما ، هو أن كل ما يتناوله اللفظ من المعانى المتفقة يجوز

أن يكون مرادا منه ، لا فرق فى ذلك بين المفردات والجمل ، وعلى هذا تكون الآية مرشدة إلى إبطال كل تلك الضلالات والمظالم التى كانت عليها الجاهلية فى أمر اليتامى وأمر النساء من التزوج باليتامى بدون مهر المثل والتزوج بهن طمعا فى أموالهن يأكلها الرجل بغير حق ، ومن عضلهن ليبقى الولى متمتعا بمالهن لاينازعه فيه الزوج ، ومن ظلم النساء بتزوج الكثيرات منهن مع عدم عدله بينهن ـ فمن لم يفهم هذا كله من هذه الآية فهمه من مجموع الآيات هنا .

ويقول الإمام محمد عبده ـ كما ذكر الشيخ رشيد رضا ـ : جاء ذكر تعدد الزوجات فى سياق الكلام عن اليتامى والنهى عن أكل أموالهن ولو بواسطة الزوجية فقال : إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم أن لا تتزوجوا بها ، فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ، ولكن إن خفتم أن لا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضاً ، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو من علم بمثل هذه الأمور ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفاً . ولما قال « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » علله بقوله « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب من عدم الجور والظلم ، فجعل البعد من الجور سبباً فى التشريع ، وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه إلى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى فى آية أخرى من هذه السورة « وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ، ولولا ذلك لكان بمجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعد ما تقدم من الآية « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يميل فى آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ، ولكنه لا يخصها بشىء دونهن . أى بغير رضاهن وإذنهن ، وكان يقول « اللهم هذا

قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » أي من ميل القلب . فمن تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها ، بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور . وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربي أمة فشا فيها تعدد الزوجات، فإن البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة . وكان للتعدد في صدر الإسلام ضرورات قصوى ومنافع شديدة ، أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن ، لأن الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى غيرها من أقارب الزوج وأولاده ، فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء : تغري ولدها بعداوة إخوته ، وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بحماقته يطيع أحب نسائه إليه ، فيدب الفساد في العائلة كلها ، ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ، بل منها القتل، حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته ، كل ذلك واقع ثابت في المحاكم ـ وناهيك بتربية المرأة التي لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد ، وهي جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات وضلالات تلقفتها من أمثالها ، يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل . فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة، لما كان هنالك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وإنما كان يكون ضرره قاصراً عليهن في الغالب . أما والأمر على ما نرى ونسمع ، فلا سبيل إلى تربية الأمة

مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار . فإذا ترتب على شيء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك فى وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة ـ على أساس أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . قال: وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل . . أما قوله تعالى « أو ما ملكت أيمانكم » فهو معطوف على قوله « فواحدة » أى فالزموا زوجا واحدة أو أمسكوا زوجا واحدة مع العدل ـ وهذا فيمن كان متزوجا كثيرات ـ أو الزموا ما ملكت أيمانكم واكتفوا بالتسرى بهن بغير شرط « ذلك أدنى أن لا تعولوا » أى أقرب إلى عدم العول وهو الجور ، فإن العدل بين الإماء فى الفراش غير واجب إذ لا حق لهن فيه ، وإنما لهن الحق فى الكفاية بالمعروف .

وكانت الأمة العربية قبل الإسلام تجعل الزواج الشرعى هو الأصل فى تكون البيوت ، والرجل هو عمود البيت وأصل النسب ، ولكن تعدد الزوجات لم يكن محدوداً بعدد ولا مقيداً بشرط ، وكان اختلاف عدة رجال إلى امرأة واحدة يعد من الزنا المذموم ، وكان الزنا على كثرته يكاد يكون خاصا بالإماء ، والزنا لم يكن معيبا ولا عاراً صدوره من الرجل ، وإنما كان يعاب من حرائر النساء . وقد حظر الإسلام الزنا على الرجال والنساء جميعا حتى الإماء ، فكان يصعب جدا على الرجال قبول الإسلام والعمل به مع هذا الحجر بدون إباحة تعدد الزوجات . ولولا ذلك لاستبيح الزنا فى بلاد الإسلام كما هو مباح فى غيرها من البلاد أو شبه مباح .

وتعدد الزوجات شريعة اجتماعية ودينية معروفة من قديم ، وكانت هى السائدة فى اليهودية ، ولم يحرم[1] التعدد فيها إلا مجتمع « ورمز الربانى »

(١) راجع ص ٧٦ / ٤ تفسير الخطيب المكى .

فى القرن الحادى عشر ، وما تزال بعض طوائف من اليهود تسير على التعدد حتى اليوم أسوة بأنبياء بنى إسرائل ، مثل يعقوب وداود وسليمان الذى كانت له ألف امرأة كما فى الفصل الخامس من سفر صموئيل الثانى ، والفصل الحادى عشر من سفر الملوك الأول . وليس فى العهد القديم أو الجديد نص صريح على منع التعدد الذى كان سائدا فى المجتمع المسيحى حتى حرمه « مجمع الترية نيتى » بعد مجمع « نيقية » ، والمسيحيون الموارنة يسيرون على التعدد حتى اليوم ؛ وكانت الكنيسة والدولة تقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر . وكان التعدد منتشراً فى أوربا أيام سيزار وعند الجرمانيين أيام «تاسيت»، ثم حرمه « جوستنيان » الرومانى . وفى « تشيكوسلوفاكيا » يقر قانونهم نظام التعدد ، وفى ألمانيا وإيطاليا تقوم بعض الجمعيات النسوية التى تطالب بنظام تعدد الزوجات .

ووضعت حكومة هتلر مشروع قانون إباحة تعدد الزوجات ، وصدرته بمذكرة إيضاحية تضمنت بحثاً مستفيضاً فى الدفاع عن نظام تعدد الزوجات ، ولكن الظروف العسكرية حالت بين الحكومة وبين صدور هذا القانون، ولكنها لم تحل دون تكوين جمعيات نسائية تطالب بتعدد الزوجات، وتقول الأنباء الواردة من أوربا أيضاً : إن أكثر حوادث القتل والانتحار بين الأزواج هناك ترجع إلى تحريم الطلاق ، فلا يجد الزوج أمامه وسيلة للانفصال إلا الانتحار ، ولذلك لم ير الباحثون الاجتماعيون هناك وسيلة لحل هذه المشكلة إلا بإباحة الطلاق، ولقد أباحته فعلا بعض الدول الغربية كأميركا .. حتى نقل « روتر » فى ٨ إبرايل — ١٩٥٨ خبراً من لندن يقول : إن أربعة عشر من كبار القسس بزعامة الأسقف كانتربرى ـ وهو من أكابر رجال الكنيسة البروستنتية ـ قد اجتمعوا مع بعض الباحثين الاجتماعيين فى لندن ، وأصدروا قراراً دافع عن نظام تعدد الزوجات ، وطالبوا بإباحته للمسيحيين من أجل المصلحة العامة ومصلحة النساء أنفسهن ، الأمر الذى حققه الإسلام من قبل مئات السنين، وقد سن له من النظم ما يكفل السعادة والخير العام للجميع ، ثم

أذاعت روتر برقية تناقلتها الصحف فى مايو عام ١٩٥٨ تقول « إذا نجحت الحركة التى يقوم بها رجال الدين فى بريطانيا الآن فإن الرجال الإنجليز سيتمتعون قريباً بالزواج من أكثر من امرأة ، ففى المؤتمر الذى سيعقد فى يونيو القادم سيبحث تقرير أعده كبار رجال الدين والباحثين الاجتماعيين وعلماء اللاهوت ، تحت إشراف الدكتور جيوفرى فيشر أسقف كانتربرى ، يدعون فيه إلى إطلاق حرية الرجال فى الزواج بأكثر من واحدة ، أى إلى تعدد الزوجات ، ودعوتهم تستند إلى أنه بات من الحماقة تجاهل الغرض الذى يحققه تعدد الزوجات فى العصر الحديث ، وأصبح من الخطأ التمسك تمسكا قانونياً بضرورة قصر زواج الرجل على امرأة واحدة وتهديد المخالفين بالحرمان من الكنيسة » .

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة ، قال تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة ، إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة . والرجل إذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشىء زهيد ـ كأن يستقضيها حاجة فى يوم الأخرى ـ امتعضت تلك الأخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه إلى من لا حق لها ، وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن إلى هذا العهد يجمعون ـ كما قال صاحب تفسير المنار ـ بين النسوة مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن ، فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات فى نوبة الأخرى إلا بإذنها ؛ ومن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو فى حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الأكتاف حفظا للعدل ، ولم يرض بالإقامة فى بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند إحدى نسائه سأل فى أى

بيت أكون غداً ؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة فأذنّ له فى المقام عندها مدة المرض؛ فقال «هل رضيتن»؟ فقلن نعم، فلم يقم فى بيت عائشة حتى علم أرضاهن. وهذا الواجب الذى حافظ عليه النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه؛ فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث، كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفى كلامه: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون، الله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم - أى أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، وقال: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهن دون الأخرى - وفى رواية: ولم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»، وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبى بقوله «اللهم هذا - أى العدل فى البيات والعطاء - جهدى فيما أملك، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك» - يعنى الميل القلبى - وكان يقرع بينهن إذا أراد سفراً.

وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة، وعقد بعد وفاتها على سودة بنت زمعة، وكانت قد توفى عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية. والحكمة فى اختيارها أنها من المؤمنات المهاجرات الهاجرات لأهلهن خوف الفتنة، ولو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها لعذبوها وفتنوها، فكفلها صلوات الله عليه، وكافأها بهذه المنة العظيمة. ثم بعد شهر عقد على عائشة بنت الصديق، والحكمة فى ذلك كالحكمة فى التزوج بحفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ببدر، وهى إكرام صاحبيه ووزيريه أبى بكر وعمر، وإقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم، كما أكرم عثمان وعليا ببناته، وهؤلاء أعظم أصحابه وأخلصهم خدمة لدينه، وأما التزوج بزينب بنت جحش فالحكمة فيه تعلو كل حكمة وهى إبطال تلك البدع الجاهلية التى كانت لاحقة ببدعة التبنى كتحريم التزوج بزوجة المتبنى بعده وغير ذلك. وقد نشر فى المجلد الثالث من المنار مقالان فى هذه المسألة أحدهما للأستاذ الإمام، فليراجعهما المستزيد. وكذلك الحكمة فى التزوج بجويرية وهى برة بنت الحارث سيد قومه بنى المصطلق،

فقد كان المسلمون أسروا من قومها مائتي بيت بالنساء والذرارى ، فأراد رسول الله أن يعتق المسلمون هؤلاء الأسرى، فتزوج بسيدتهم ، فقال الصحابة عليهم الرضوان : أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم وأعتقوهم، فأسلم بنو المصطلق لذلك أجمعون، وصاروا عونا للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم وعونا عليهم، وكان لذلك أثر حسن فى سائر العرب . وقبل ذلك تزوج رسول الله بزينب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبد الله بن جحش فى « أحد » وحكمته فى ذلك أن هذه المرأة كانت من فضليات النساء فى الجاهلية حتى كانوا يدعونها أم المساكين لبرها بهم وعنايتها بشأنهم ، فكافأها عليه السلام على فضائلها بعد مصابها بزوجها بذلك ؛ فلم يدعها أرملة تقاسى الذل الذى كانت تجير منه الناس، وقد ماتت فى حياته . وتزوج بعدها أم سلمة ـ واسمها هند ـ وكانت هى وزوجها ـ عبد الله أبو سلمة بن أسد بن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة ـ أول من هاجر إلى الحبشة ، وكانت تحب زوجها وتجله حتى أن أبا بكر وعمر خطباها بعد وفاته فلم تقبل ، ولما قال لها النبى : « سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا » قالت : ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟ فمن هنا يعلم مقدار مصاب هذه المرأة الفاضلة بزوجها ، وقد رأى رسول الله أنه لا عزاء لها عنه إلا به فخطبها ، فاعتذرت بأنها مسنة وأم أيتام ، فأحسن الرسول الجواب وتزوج بها ، وظاهر أن ذلك الزواج ليس لأجل التمتع المباح له ، وإنما كان لفضلها الذى يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية ولتعزيتها كما تقدم . وأما زواجه بأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بن حرب ، فلعل حكمته لا تخفى على إنسان عرف سيرتها الشخصية ، وعرف عداوة قومها فى الجاهلية والإسلام لبنى هاشم ورغبة النبى فى تأليف قلوبهم ، كانت رملة عند عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية، فتنصر هناك وثبتت هى على الإسلام، فانظروا إلى إسلام امرأة يكافح أبوها بقومه النبى ، ويتنصر زوجها وهى معه فى هجرة معروف سببها ، أمن الحكمة أن تضيع هذه المؤمنة الموقنة بين فتنتين؟ أم من المروءة أن يكفلها من تصلح له وهو أصلح لها ؟. وكذلك تظهر الحكمة

فى زواج صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، وقد قتل أبوها مع بنى قريظة وقتل زوجها يوم خيبر ، وكان أخذها دحية الكلبى من سبى خيبر فقال الصحابة: يارسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير لاتصلح إلا لك ، فاستحسن رأيهم وأبى أن تذل هذه السيدة بأن تكون أسيرة عند من تراه دونها، فاصطفاها وأعتقها وتزوجها ووصل سببه ببنى إسرائيل .

وفى حديث الترمذى أن صفية بلغها أن عائشة وحفصة قالتا فيها : نحن أكرم على رسول الله منها ، فذكرت ذلك للنبى فقال « ألا قلت : وكيف تكونان خيراً منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى» فهى من آل هارون معروف نسبها فى قومها . ولما فتح حصن قومها وسبيت جاء بها بلال ومعها ابنة عم لها فمر بهما على قتلى يهود ، فصكت المرأة التى معها وجهها وصاحت وحثت التراب على وجهها ، فقال رسول الله لبلال « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » وهكذا يقول ويفعل من أرسله الله رحمة للعالمين .

وآخر أزواجه ميمونة بنت الحارث الهلالية ـ وكان اسمها برة فسماها ميمونة ـ والذى زوجها منه هو العباس رضى الله عنه ، وكانت جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها الثانى أبى رهم بن عبد العزى وهى خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد ، فلا أدرى هل كانت الحكمة فى تزوجه بها تشعب قرابتها فى بنى هاشم وبنى مخزوم أم غير ذلك ؟ . وقد مات رسول الله عن تسع زوجات من أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن أجمعين .

وكان رسول الله يعيش هو وزوجاته عيشة البساطة التى يألفها من قبل فى المأكل والملبس والمسكن، كما يقول صاحب تفسير الخطيب المكى ، وكم من أيام مرت دون أن يوقد فى دار من دوره نار، بل كان غذاؤه وغذاء زوجاته التمر والماء ، ولم يكن هناك ما يمنعه من أن يرغد نساءه بشهى الطعام ويسكنهن أفضل السكن ويغمرهن بمختلف الحلى ليزيد من جمالهن فى نظره، وليس هذا بالعسير عليه ، فلديه الكثير الوفير من أموال الغنائم والفىء التى كان

يجود بها بلا حساب على ذوى الحاجة ، الأمر الذى أطمع نساءه فى تحسين حالتهن ، ويقدمن إليه يطلبن زيادة المقرر لنفقتهن ، فلم يكن منه إلا أن غضب وسكت فلم يرد على نسائه ، فدخل أبو بكر وعمر عليه فوجداه على تلك الحال وحوله نساؤه فأحسا بالأمر ، وقال أبو بكر : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة ـ يعنى زوجته ـ سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك الرسول وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر لعائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان « تسألن رسول الله ما ليس عنده؟ » فقلن : « والله لانسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده » أى أن الذى يسألنه رسول الله هو جانب بسيط مما عنده ، فلم يرض الرسول هذا منهن ، إذ أنه لم يجمعهن إلا باسم الدين وحده وقد أردن المتعة. ولذلك اعتزلهن شهراً لا يريد أن يستجيب لرغباتهن ولا هو يرضى بطلاقهن حتى أنزل الله عليه قوله « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » عندئذ بدأ الرسول بأحب النساء اليه فقال لها ياعائشة ـ إنى أردت أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت : وماهو يارسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة وقنعن بما هن فيه من شظف العيش . ولعل فى هذا مايشير إلى أنه يجب على المرأة أن تؤثر من الرجال صاحب الدين عن غيره ، ولا تجعل من المادة سبباً لمعاشرة الرجل ، نظير ماشرعه للرجال من تفضيل ذات الدين عند إرادة الزواج .

ومن أسلم وهو متزوج بأكثر من أربع اختار منهن أربعا وفارق الباقيات ، فقد روى الشافعى وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى « اختر منهن أربعا ـ وفى لفظ آخر ـ أمسك منهن أربعا وفارق سائرهن » ، وروى

نحو من ذلك عن نوفل بن معاوية الديلى ، وعن قيس بن الحارث الأسدى حين أسلما ـ وكان عند الأول خمس وعند الثانى ثمان .والظاهر أن إمساك الأربع يشترط فيه قصد العدل بينهن والثقة بالقدرة ، فإن خاف أن لا يعدل فعليه أن يمسك واحدة فقط . وما قضت به السنة من الاقتصار على أربع وما أجمع عليه أهلها من عدم جواز الزيادة عليهن هو عمدة الفقهاء فى هذا الباب ، لا لأن مثنى وثلاث ورباع يدل على جواز أكثر من أربع ، بل لأن العدد عندهم لا مفهوم له، فذكر الأربع لا يقتضى تحريم الخمس فأكثر ، فلما حتم النبى على من أسلم من المشركين وعنده أكثر من أربع أن لا يمسكوا أكثر من أربع كان ذلك بيانا منه صلى الله عليه وسلم لما فى الآية من الإجمال واحتمال جواز الزيادة . وجماهير أهل الأصول قائلون بجواز بيان خبر الواحد لمجمل الكتاب . وقد أول بذلك المجوزون للزيادة على أربع كبعض الشيعة ، بأنه يحتمل أن يكون الأمر بمفارقة مازاد عن الأربع ، لأنهن كان بينهن وبين أزواجهن سبب من أسباب التحريم الذاتى كالنسب القريب والرضاع وهو تأويل ظاهر البطلان ، إذلو كان الأمر كما قيل فى الاحتمال لما قال النبى عليه السلام : «اختر أربعا أو أمسك أربعاً» .

وأما الآية الثانية منهما ـ فخاصة بفريضة المهر فى الزواج ووجوب أدائه ، إلا إذا تنازلت الزوجة عنه لزوجها عن طيب نفس وسماحة صدر . وقوله تعالى «وآتوا» أى أعطوا «النساء صدقاتهن» جمع صدقة ، أى مهورهن ، «نحلة» أى عطية ، يقال. نحله كذا نحلة أى أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ، ونحلة : منصوب على المصدر ، لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكأن الأسلوب فى معنى : وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة . والخطاب للأولياء كما ذكر جماعة من المفسرين ، وذلك أن ولى المرأة كان إذا زوجها ، فإن كان معهم فى العشيرة لم يعطها من مهرها شيئا ، وإن زوجها غريبا حملوها إليه على بعير ولا يعطوها من مهرها غير ذلك ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ، وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله ؛ والصحيح أن الخطاب للأزواج .

وقوله تعالى : « فإن طبن لكم عن شيء منه » أى الصداق ، وقوله تعالى « نفسا » تميز محول عن الفاعل أى إن طابت نفسهن لكم عن شيء فوهبته لكم من الصداق « فكلوه » أى فخذوه وأنفقوه « هنيئا » أى طيبا « مريئا » أى محمود العاقبة لاضرر فيه عليكم فى الآخرة ، روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم فى شيء مما ساق إلى امرأته ، فقال الله تعالى : إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة فكلوه هنيئا مريئا ، قال الزمخشرى : وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال : « فإن طبن » ولم يقل فإن وهبن أو سمحن إشعارا بأنه يجب أن يكون ذلك عن رضى وطيب نفس واختيار كامل .

وعن الشعبى أن رجلا أتى مع امرأته شريحا فى عطية أعطتها إياه وهى تطلب أن ترجع ، فقال شريح : رد عليها ، فقال الرجل : أليس الله قد قال « فإن طبن لكم » قال : لوطابت نفسها عنه لما رجعت فيه ، وروى أن رجلا من آل أبى معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا لها كان عليه فلبث شهرا ثم طلقها ، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان، فقال الرجل: أعطتنى طيبة بها نفسها ، قال عبد الملك : فأين الآية التى بعدها: فلا تأخذوا منه شيئا. أردد عليها ، وعن عمر رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته أن النساء يعطين رغبة ورهبة ، فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .

وخلاصة هاتين الآيتين أنهما تنظمان أحوال الأسرة تنظيما كاملا ، وتشرعان الزواج وتوجبان المهر فريضة للزوجة ، والآية الأولى تقر مبدأ تعدد الزوجات وتضيقه وتقيده بقيود شديدة ، ومبدأ التعدد موجود فى الشرائع القديمة والحديثة ، وتحاول دول الغرب المسيحية اللجوء إليه حلا لمشكلاتها الاجتماعية . وتعدد الزوجات يقضى على مشكلات المرأة ، ويجعل الرجل مسئولا عنها وعن زواجها ، ويوجب أن يكون لكل فتاة بلغت سن الزواج الحق فى الزواج، ويترتب على هذا أن تكون الدولة والمجتمع الإسلامى مسئولين عن ذلك مسئولية كاملة . وما دام عدد النساء أكثر من عدد الذكور

فى العالم ، فمبدأ التعدد كفيل بحل المشكلات أمام الفتاة ، وبإتاحة الفرص أمامها للزواج . . أما تضييق الإسلام فى مبدأ التعدد فيرجع إلى اشتراط القرآن ثقة الرجل الثقة الكاملة بقدرته على العدل بين الزوجات ، ومن الطبيعى أن أن فقر الزوج يجعل هذه الثقة معدومة ، ومن ثم فإن الفقير لايصح له إطلاقا أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما الغنى الواثق من نفسه بالقدرة على العدل بين الزوجات فيباح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ، فإذا جار بين الزوجات قومه الحاكم ، وألزمه بالعدل بينهن . فإذا لم يثق الغنى الموسر بنفسه فى قدرته على العدل بينهن فلا يباح له أن يتزوج أكثر من واحدة والزواج المتعدد فى الإسلام خير للمرأة من أن يقيد الرجل نفسه بواحدة ثم يتخذ له خدينات كثيرات كما يشاء ويشاء له هواه .

وفى عصرنا الحاضر نجد دعاة يدعون إلى سن قوانين لمنع تعدد الزوجات ولتحريم الطلاق ، ويعللون ذلك برعاية مصالح المرأة وحقوق الأسرة ، وإذا كانوا يفهمون أنهم أشد رعاية لمصالح المرأة وحقوق الأسرة من الله العلى الحكيم خالق البشر والناس جميعا ، فبئس مايتصورون وما يفهمون . . إن مبدأ التعدد ومبدأ الطلاق لايمكن أن يقول أحد من المصلحين والمشفقين على المرأة بأنها فى صالح المرأة والرجل على السواء ، أما تنظيم هذين المبدأين فهو ماينادى به القرآن ، وما شرع الحدود والقيود من أجله ؛ فنى تعدد الزوجات لم يبح الإسلام التعدد إلا عند الثقة بالعدل ثقة كاملة كما فصلنا سابقا . وفى الطلاق لم يبح الإسلام الطلاق إلا بعد التحكيم ، حكم من أهل الزوج ، وحكم من أهل الزوجة ؛ وإذا لم يمكن التوفيق بعد التحكيم فإن الحياة الزوجية تصبح مستحيلة بالنسبة للمرأة والرجل على حد سواء ، أما ألفاظ الطلاق التى يتفوه بها الرجل فى كل مقام ، ويهدد بها المرأة فى كل وقت ، فنى رأيى أنها لا مفعول لها ، ولا أثر لها ، إلا عند العزيمة ، وإرادة الطلاق إرادة حقيقية ، وفى هذه الحالة لايقع طلاق إلا بعد التحكيم ، وبعد تعذر الوصول إلى حل حاسم ، وصعوبة التوفيق فى الخلاف بين الزوجين ، وفى رأيى أن كل إصلاح للأسرة

يجب أن يتمشى مع روح القرآن الكريم ومع منطوقه أيضاً ، وإلا فالويل لمجتمعنا ، والهلاك لبيوتنا وأولادنا. أما الدعوة إلى تحديد النسل وتنظيمه ، فهذه مسألة أخرى سوف نعرض لها ولحكمها فى موضع قريب ، عند تفسير قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم » . بتوفيق الله وعونه إن شاء الله .

٥ – وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

٦ – وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا .

لما أمرنا الله عز وجل فى الآيات السابقة بإيتاء اليتامى أموالهم ، وبإيتاء النساء صدقاتهن ومهورهن ، أتى الله عز وجل بشرط للإيتاء يعم الأمرين السابقين فى قوله الكريم « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، أى اعطوا كل يتيم ماله إذا بلغ ، وكل امرأة صداقها ؛ وإلا إذا كان أحدهما سفيها لا يحسن التصرف فى ماله ، فحينئذ يمتنع أن تعطوه إياه لئلا يضيعه ، ويجب حفظه له حتى يرشد ويصير أهلا للتصرف فى ماله . . وقوله تعالى : « ولا تؤتوا » أيها الأولياء « السفهاء » أى المبذرين من الرجال والنساء ، وقيل : هم اليتامى والنساء ، أو النساء خاصة ، أو الأطفال الصغار أو هى عامة « أموالكم » أى أموالهم ، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها فى تصرفهم وتحت ولايتهم ، وقيل : هذا نهى إلى كل أحد أن يعدل إلى ما خوله الله من المال فيعطيه امرأته وأولاده ثم ينظر إلى أيديهم ، وإنما سماهم سفهاء لأنهم فقدوا القدرة على إمعان النظر ، وعلى بعد التفكير فى الشدائد والمشكلات « التى جعل الله لكم قياما » أى تصرفا فيها ، أو جعلها لكم قياماً

تقوم بمصالحكم ومصالح أولادكم، وقياما مصدر قام «وارزقوهم» أى أطعموهم «فيها واكسوهم» فيها ، وإنما قال (فيها) لجعله الأموال ظروفا للرزق ، فيكون الإنفاق من الربح لا من الأموال التى هى الظروف ، بأن يتجروا فيها ويحصلوا من ربحها ما يحتاجون إليه ، ولو قيل منها لكان الإنفاق من نفس الأموال «وقولوا لهم قولا معروفا» أى عدوهم عدة جميلة بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا ، وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل فهو معروف ؛ وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر ـ وعن عطاء إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت فى غزاتى جعلت لك حظا . وقيل : إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل له : عافانا الله وإياك ، بارك الله فيك ، وقيل : هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء ، قريب أو أجنبى رجل أو امرأة يعلم أنه سوف يضيعه فيما لا ينبغى ويفسده «وابتلوا» أى اختبروا «اليتامى» فى دينهم وتصرفهم ، بأن يختبر ولد التاجر فى شئون التجارة وولد الزارع فى الزراعة والمرأة فى شئون المنزل ، ويشترط تكرر الاختبار مرتين أو أكثر حيث يفيد غلبة الظن برشده ، ووقت الاختبار قبل البلوغ «حتى إذا بلغوا النكاح» أى صاروا أهلا له إما بالسن وهو استكمال خمسة عشر سنة تحديدية ، لخبر ابن عمر رضى الله عنهما : عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوماً وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورآنى بلغت . رواه ابن حبان وأصله فى الصحيحين ، وابتداؤها من حين الولادة وانفصال جميع الولد ، قيل : عرض عليه سبعة عشر من الصحابة وهم أبناء أربعة عشر فأجازهم ، وإما بخروج (المنى) فى وقت إمكانه وأقله تسع سنين قمرية تحديدية سواء أخرج من نوم أم يقظة بجماع أو غيره ، وتزيد المرأة على هذين الأمرين الحيض لوقت إمكانه ، وأقله تسع سنين قمرية تقريبية : هكذا قال الفقهاء . وقد حدد القانون المصرى سن الزواج بالنسبة للشاب بالثامنة عشرة وبالنسبة للفتاة بالسادسة عشرة «فإن آنستم» أى أبصرتم «منهم رشدا» وهو صلاح الدين والمال ،

أما صلاح الدين فأن لا يرتكب محرماً يسقط العدالة من كبيرة أو إصرار على صغيرة ، وأما صلاح المال فبأن لا يضيعه فيما لا فائدة فيه أو يصرفه فى محرم ، وليس صرفه فى الخير بتبذير ؛ نعم ، إن صرفه فى ذلك أو فى الكماليات بطريق الاقتراض له حرم عليه « فادفعوا إليهم أموالهم » من غير تأخير « ولا تأكلوها » أيها الأولياء . . وقوله تعالى « إسرافا » أى بغير حق « وبدارا » حالا أى مسرفين ومبادرين إلى إنفاقها مخافة « أن يكبروا » رشدا فيلزمكم تسليمها إليهم « ومن كان » أى من الأولياء « غنيا فليستعفف » أى يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله « ومن كان فقيرا فليأكل » منه « بالمعروف » أى بقدر الأقل من حاجته وأجرة سعيه كما مر ؛ ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولى له حق فى مال الصبى ، وروى النسائى وغيره أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : فى حجرى يتيم أفآكل من ماله ؟ فقال : بالمعروف . وإيراد هذا التقسيم بعد قوله « ولا تأكلوها » يدل على أنه نهى للأغنياء منهم أن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى شيئا ، وللفقراء منهم أن يأخذوا منها شيئاً بغير المعروف ، كما أن قوله « ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا » يدل على أنه نهى للفريقين عن أكلها إسرافا ومبادرة لكبرهم ، ومعنى « المعروف » أن الفقير يباح له أن يأخذ أجرة على قيامه بحفظ أموال اليتيم وبتنميتها « فإذا دفعتم إليهم » أى اليتامى « أموالهم فأشهدوا » ندبا « عليهم » أنهم قبضوها ، فإن الإشهاد أنفى للتهمة وأبعد عن الخصومة فتحتاجون إلى البينة ، وهذا يدل على أن القيم لا يصدق فى دعواه الدفع بلا بينة ، وهو مذهب الشافعى ومالك خلافا لأبى حنيفة « وكفى بالله حسيبا » أى حافظا لأعمال خلقه ومحاسبتهم .

٧ — لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

٨ — وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُو ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

٩ — وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .

ثلاث آيات كريمة فيها ذكر للمبادىء الأساسية فى الميراث ، ووجوب إشراك المرأة والأطفال فيه ، كالرجال الكبار دون تفضيل ولا إثرة ، وعن ابن عباس : « كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا ، فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت ، وترك ابنتين وابنا صغيرا ، فجاء ابنا عمه خالد وعرفجة - وهما عصبته - فأخذا ميراثه كله ، فأتت امرأته رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال : ماأدرى ماأقول ، فنزلت « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » ، وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن ابن جريج عن عكرمة قال : نزلت فى أم كحة وابنة كحة وثعلبة وأوس بن سويد وهم من الأنصار ، كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها . فقالت : يا رسول الله توفى زوجى وتركنى وابنته فلم نورث . فقال عم ولدها : يا سول الله لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكىء عدوا ، نكسب عليها ولا تكتسب ، فنزلت الآية . وروى عن قتادة وابن زيد أنها نزلت فى إبطال ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء ولا الصغار ، ولم يذكر واقعة معينة . وجمهور المفسرين على أن هذا الكلام جديد ، وهو انصراف عن الموضوع قبله كما يقول الإمام محمد عبده ، على ما ذكر صاحب المنار ، ولكن قوله تعالى بعد ثلاث آيات « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما » الخ يدل على أن الكلام فى شأن اليتامى لا يزال متصلا ، فإنه بعد أن بين التفصيل فى حرمة أكل أموال اليتامى وأمر بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا ، ذكر أن

المال الموروث الذى يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء، خلافا لما كان فى الجاهلية من عدم توريث النساء ؛ فهذا تفصيل آخر فى المال نفسه بعد ذلك التفصيل فى الإعطاء ووقته وشرطه . ومال اليتامى إنما يكون فى الأغلب من الوالدين والأقربين . فمعنى الآية : إذا كان لليتامى مال مما تركه لهم الوالدون والأقربون فهم فيه على الفريضة . لا فرق فى شركة النساء والرجال فيه بين القليل والكثير ، ولهذا كرر « مما ترك الوالدان والأقربون » وعنى بقوله « نصيباً مفروضاً » أنه حق معين مقطوع به لا محاباة فيه وليس لأحد أن ينقصهم منه شيئاً .

وقوله تعالى : « للرجال » الذكور « نصيب » أى حظ « مما ترك الوالدان والأقربون » أى المتوفون « وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه » أى المال « أو كثر » جعله الله « نصيبا مفروضا » أى مقطوعا بتسليمه إليهم روى أن أوس بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه توفى وترك امرأته أم كحة بضم الكاف والحاء المشددة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه سويد وعرفجة ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئا ، وكل أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار وإن كان الصغير ذكرا ، إنما كانوا يورثون الرجال ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل ، وحاز الغنيمة ، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيخ ، والفضيخ : موضع بالمدينة ، قيل لعله المسجد الذى كان يسكنه أصحاب الصفة ـ فشكت إليه فقالت : يارسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك ثلاث بنات ، وأنا امرأته وليس عندى ما أنفق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته شيئا ، وهن فى حجرى لا يطعمن ولا يسقين ، فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : يارسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكأ عدوا . فنزلت هذه الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقربا من مال أوس شيئاً ، فإن الله جعل لبناته نصيبا مما ترك ـ ولم

يبين كم هو ـ حتى أنظر بما ينزل فيهن، فأنزل الله تعالى « يوصيكم الله فى أولادكم » فأعطى صلى الله عليه وسلم أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم ، وهذا دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب .

والآية الثانية هى قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة » أى للميراث « أولو القربى » أى ذوو القربى ممن لا يرث « واليتامى والمساكين فارزقوهم » أى أعطوهم « منه » أى المقسوم شيئاً ، قبل القسمة تطييبا لقلوبهم وتصدقا عليهم ، وهو أمر ندب للبالغ من الورثة ، وقيل أمر وجوب ، واختلف العلماء فى حكم هذه الآية : فقال قوم : هى منسوخة بآية المواريث كالوصية ، وعن سعيد بن جبير أن ناسا يقولون: نسخت، والله مانسخت، ولكنها مما تهاون به الناس « وقولوا لهم قولا معروفا » وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا على ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم، وعن الحسن والنخعى : أدركنا الناس وهم يقسمون على القربات والمساكين واليتامى من العين أى الذهب والفضة ، فإذا قسم الذهب والفضة وصارت القسمة إلى الأرض وما أشبه ذلك قالوا لهم قولا معروفا ، كأن يقولوا لهم : بورك فيكم « وليخش » أى وليخف على اليتامى « الذين لو تركوا » أى قاربوا أن يتركوا « من خلفهم » أى بعد موتهم « ذرية ضعافا» أى أولادا صغارا «خافوا عليهم » أى الضياع « فليتقوا الله » فى أمر اليتامى وغيرهم وليأتوا إليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم « وليقولوا » أى للمريض « قولا سديدا » أى عدلا وصوابا بأن يأمروه بأن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقى لورثته ولا يتركهم عالة ، وذلك أنه كان إذا حضر أحدهم الموت يقول له عواده : أنظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئا ، قدم لنفسك ، اعتق ، وتصدق ، وأعط حتى يأتى على عامة ماله ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ، ولا يجحف بورثته .

قال ابن جرير : ثم اختلف الذين قالوا : هذه الآية محكمة ، وأن القسمة ـ أى الرزق والعطاء ـ لأولى القربى واليتامى والمساكين واجبة على أهل الميراث

إن كان بعض أهل الميراث صغيرا وقسم عليه الميراث ولى ماله ، فقال بعضهم: ليس لولى ماله أن يقسم من ماله ووصيته شيئا لأنه لا يملك من المال شيئا . ولكنه يقول لهم قولا معروفا . قالوا : والذى أمره الله بأن يقول لهم قولا معروفا هو ولى مال اليتيم إذا قسم مال اليتيم بينه وبين شركاء اليتيم ، إلا أن يكون ولى ماله أحد الورثة فيعطيهم من نصيبه ، ويعطيهم من يجوز أمره فى ماله من انصبائهم ، قالوا : فأما من مال الصغير فالذى يولى عليه ماله لا يجوز لولى ماله أن يعطيهم منه شيئا . وساق الروايات فى ذلك عن الحسن وسعيد بن جبير والسدى وكذا عن ابن عباس ، ثم قال : وقال آخرون منهم : ذلك واجب فى أموال الصغار والكبار لأولى القربى واليتامى والمساكين ، فإن كان الورثة كبارا تولوا عند القسمة إعطاءهم ذلك ، وإن كانوا صغارا ولى ذلك ولى مالهم .. اهـ . وأورد الروايات فى ذلك عن محمد بن عبيدة ومحمد بن سيرين ، ولكنهما تأولا الرزق بإطعام الطعام ، فكانا عند القسمة يأمران بذبح شاة وصنع طعام لمن حضر القسمة ممن ذكر . وروى عن الحسن أنهم كانوا يحضرون فيعطون الشىء والثوب الخلق .

١٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

هذه الآية الكريمة فيها وعيد شديد لهؤلاء الذين يستضعفون اليتيم ، فيأكلون ماله ظلما وعدوانا ، وينهبون حقوقه زورا وبهتانا ، وقوله تعالى « يأكلون » أى يأخذون ، وعبر عن الأخذ والانتفاع بالأكل مجازا ، لأن الأكل أهم أسباب الأخذ ، أو مبالغة ؛ لأن الرجل كأنه أخذ مال اليتيم ووضعه فى بطنه وقوله تعالى « ظلما » أى بغير حق « إنما يأكلون فى بطونهم نارا » أى ملء بطونهم يقال أكل فلان فى بطنه وفى بعض بطنه ، ومعنى « يأكلون نارا » أى يأكلون ما يجر إلى النار ، فكأنه نار فى الحقيقة ، روى أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا ، فالمراد بالنار ، ماهو سبب لعذاب النار أو ما يشبه النار

فى ضررها ، وروى أن أفواههم تملأ يوم القيامة جمرا ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم رآهم ليلة المعراج يجعل فى أفواههم صخر من نار فيقذف فى أجوافهم ، أى مثل له عذابهم بما سيكون عليه . وقد جعل بعض المفسرين هذا تفسيرا للآية بجعل أكل النار حقيقة لا مجازا ، وهو إنما يصح إذا صحت الرواية بجعل « يأكلون » للاستقبال والمتبادر منه أنه للحال بقرينة عطف الفعل المستقبل عليه وهو قوله « وسيصلون سعيرا » ، وهو قرينة لفظية ، من حيث أن صلى السعير هو عبارة عن دخول النار ، وإنما يكون أكل النار لمن يأكلها بعد دخولها أى دخول دار الجزاء التى سميت باسمها ، لأن جل العذاب فيها يكون بها ، فلو كان ماذكروه هو معنى الآية لكان لفظها هكذا : « فسيأكلون نارا ويصلون سعيرا » فالأكل عذاب باطن البدن ، لأن معظم اغتيال المال يكون للأكل ، والصلى عذاب ظاهره فهو جزاء اللباس وسائر التصرفات .

١١ — يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن
كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ
وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ
مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ
فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا .

١٢ — وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ
فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ

يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .

آيتان كريمتان تبينان فريضة الميراث فى الإسلام وأحكامه على التفصيل ، وقد أمر الله تعالى فيما قبل هاتين الآيتين من أوائل السورة ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار ـ بإعطاء اليتامى والنساء أموالهم ، إلا من كان سفيها لايحسن تثمير المال ولا حفظه ، فيثمره له الولى ويحفظه له إلى أن يرشد ، ونهى عن أكل أموالهم . وأبطل ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريثهم ، فناسب بعد هذا أن يبين أحكام الميراث وفرائضه . فكان بيانه فى هاتين الآيتين وآية فى آخر السورة . فهذه هى الفرائض التى جرى عليها العمل بعد نزولها . فبطل بها وبقوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ما كان من نظام التوارث فى الجاهلية وفى أول الإسلام . أما الجاهلية فكانت أسباب الإرث عندها ثلاثة :

١ — النسب ، وهو خاص بالرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون الأعداء ويأخذون الغنائم ، وليس للطفل والمرأة منه شىء .

٢ — التبنى ، فقد كان الرجل يتبنى ولد وغيره فيرثه ويكون له غير ذلك من أحكام الدين الصحيح ، وقد أبطل الله التبنى بآيات من سورة الأحزاب ، ونفذ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بذلك العمل الشاق ، وهو التزوج بمطلقة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه قبل الإسلام .

٣ — الحلف والعهد ، كان الرجل يقول للرجل : دمى دمك وهدمى هدمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك . فإذا تعاهدا على ذلك فمات أحدهما

قبل الآخر كان للحى ما اشترط من مال الميت، وقيل: إن هذا لم يبطل إلا بآيات الميراث. وأما الإسلام فقد جعل التوارث أولا بالهجرة والمؤاخاة، فكان المهاجر يرث المهاجر البعيد ولا يرثه غير المهاجر وإن كان قريبا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يؤاخى بين الرجلين فيرث أحدهما الآخر . وقد نسخ هذا وذاك ، واستقر الأمر عند جميع المسلمين بعد نزول أحكام الفرائض أن أسباب الإرث ثلاثة: النسب والصهر والولاء ، وحكمة ما كان فى أول الإسلام ظاهرة ؛ فإن ذوى القربى والرحم للمسلمين كان أكثرهم مشركين، وكان المسلمون لقلتهم وفقرهم محتاجين إلى التناصر والتكافل بينهم ولاسيما المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وترك ذو المال منهم ماله فيها وذهب كثير من العلماء إلى أن الوصية للوالدين والأقربين قد نسخت أيضاً بآيات الميراث، ولكنك ترى أن هاتين الآيتين المفصلتين لأحكام الإرث قد جعلتا الوصية مقدمة على الإرث . وأكدت ذلك بتكراره عند كل نوع من أنواع الفرائض فيها ، وترى أن الوصية للوالدين والأقربين فى سورة البقرة مؤكدة تأكيداً ينافى النسخ ، وتقدم ذلك فى سورة البقرة «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت» ، وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى فى سننه وغيرهم من حديث جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال . فقال : يقضى الله فى ذلك . فنزلت آية الميراث «يوصيكم الله فى أولادكم» الآية ؛ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال «أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن وما بقى فهو لك» ، أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال الترمذى : ولا يعرف إلا من حديثه . قال العلماء: وهذه أول تركة قسمت فى الإسلام . هذا والخطاب فى الآية - كما يقول الإمام محمد عبده - عام موجه إلى جميع المكلفين فى الأمة ، لأنهم هم الذين يقسمون التركة وينفذون الوصية ولتكافل الأمة فى الأمور العامة . وقال غيره : إن الآية وما بعدها

تفصيل للإجمال فى قوله « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » الآية . وقالوا : إنه يدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ولا حجة لهم فيها على هذا القول ، إذ الظاهر أنها نزلت هى وما قبلها — ومنها تلك الآية المجملة — فى وقت واحد . وما ذكر فى سبب النزول لايدل على التراخى والتأخير عن وقت الحاجة . ويجوز على فرض التأخير والتراخى أن تكون الآية الأولى أبطلت هضم حق المرأة والطفل لما فيه من الظلم والقسوة . ولم يكن المسلمون وقت نزولها قد كثروا وكثر أقاربهم منهم واستعدوا بذلك لنسخ أسباب الإرث الأولى المؤقتة بأسباب الإرث الدائمة ، فلما استعدوا لذلك نزل التفصيل بعد غزوة أحد كما فى رواية جابر .

والآية الأولى من هاتين الآيتين هى قوله تعالى : « يوصيكم الله » أى يأمركم « فى أولادكم » أى فى شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة ، وهذا إجمال تفصيله قوله تعالى « للذكر » منهم « مثل حظ » أى نصيب « الأنثيين » إذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف ، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان ، وإنما فضل الذكر على الأنثى لاختصاصه بلزوم ما يلزم الأنثى من الجهاد وتحمل أعباء الأسرة وغيرهما ، وله حاجتان : حاجة لنفسه وحاجة لزوجته ، والأنثى حاجة واحدة لنفسها ، بل هى غالباً مستغنية بالتزويج عن الإنفاق من مالها ، ولكن لما علم الله تعالى احتياجها إلى النفقة وأن الرغبة تقل فيها إذا لم يكن لها مال جعل لها حظاً من الإرث وأبطل حرمان الجاهلية لها ، فإن قيل : هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر أو للأنثى مثل نصف حظ الذكر ، أجيب بأنه إنما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ، ولأن قوله « للذكر مثل حظ الأنثيين » قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان قصد إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان ، وكان فى ابتداء الإسلام بالمحالفة ، قال تعالى « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء »

ثم نسخ ذلك كله بالآية الكريمة . واختلف فى سبب نزولها : فعن جابر أنه قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت : يا رسول الله لمن الميراث إنما يرثنى كلالة فنزلت ، وقال مقاتل والكلبى فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته ، وقال عطاء : استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك امرأة وابنتين وأخا، فأخذ الأخ المال ، فأتت امرأة سعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم بابنتى سعد ، وإن سعدا قتل يوم أحد شهيداً وأن عمهما أخذ مالهما فقال صلى الله عليه وسلم : ارجعى فلعل الله سيقضى فى ذلك فنزلت ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال : أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك ، فهذا أول ميراث قسم فى الإسلام ، فإن قيل : كيف حظ الأنثيين الثلثان ؟ فكأنه قيل : للذكر الثلثان ، أجيب بأن المراد حالة الاجتماع كما مر ، أما حالة الانفراد فالإبن يأخذ المال كله والبنتان تأخذان الثلثين .

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين هى — كما ذكر الشيخ رشيد رضا — أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجه فكان له سهمان . وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها ، فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها ، وبهذا الاعتبار يكون نصيب الأنثى من الإرث أكثر من نصيب الذكر فى بعض الحالات بالنسبة إلى نفقاتهما . وما ذكره بعض المفسرين فى بيان الحكمة من نقص عقولهن وغلبة شهوتهن المفضية إلى الإنفاق فى الوجوه المنكرة فهو قول منكر ، وضعف عقولهن لا يقتضى نقص نصيبهن، بل ربما يقال : إنه يقتضى زيادته كضعف أبدانهن لقلة حيلتهن فى الكسب وعجزهن عن الكثير منه ، ولذلك روى عن بعض السلف أن الميراث جاء على خلاف القياس المعقول ، وما أرى الرواية صحيحة ، كما أن معناها غير صحيح لما علمت من الحكمة التى بيناها . وأما ما يزعمون من كون شهوتهن أقوى من شهوة الرجال ، وما بنوه عليه من إفضائه إلى كثرة إنفاق المال فهو باطل بنى على باطل ، وأننا نعلم بالاختبار أن الرجال هم الذين ينفقون الكثير

من أموالهم فى سبيل إرضاء شهواتهم ، وقلما نسمع أن امرأة أنفقت شيئا من مالها فى مثل ذلك ، فهن يأخذن ولا يعطين ، والرجال هم الذين يبذلون لأنهم أقوى شهوة وأشد ضراوة.. نعم إن النساء يملن إلى الإسراف فى الزينة وهى تستلزم نفقات كثيرة ، والشرع ينهى عن الإسراف فلا تكون أحكامه مبنية عليه ، ولكن علم بالاختبار أنهن كثيرا ما يرجحن الاقتصاد إذا كان أمر النفقة موكولا إليهن ، فإن كانت من الوالد أو الزوج فلا يكاد إسرافهن يقف عند حد . ولهذا نرى بعض الرجال المقتصدين يكلون أمر النفقة فى بيوتهم إلى أزواجهم ، فتقل النفقة ويتوفر منها ما لم يكن يتوفر من قبل . وقوله تعالى : «فإن كن» أى الأولاد «نساء» خلصا ليس معهن ذكر ، وأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات ، وقوله تعالى «فوق اثنتين» أى نساء زائدات على اثنتين ، فإن قيل : قوله تعالى «للذكر مثل حظ الأنثيين» كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد لا لبيان حظ الأنثيين فكيف صح أن يردف قوله «فإن كن نساء» وهو لبيان حظ الإناث ؟ أجيب بأنه وإن كان مسوقا لبيان حظ الذكر إلا أنه لما علم منه حظ الأنثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للأمرين جميعاً ، فلذلك صح أن يقال : فإن كن نساء «فلهن ثلثا ما ترك» أى المتوفى منكم ، ويدل عليه المعنى «وإن كانت» أى المولودة «واحدة فلها النصف» اختلف فى ميراث الأنثيين فقال ابن عباس : حكمهما حكم الواحدة ؛ لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما ، وقال الباقون : حكمهما حكم ما فوقهما ؛ لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ، ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى «فإن كن نساء فوق اثنتين» ، ويؤيد ذلك بأن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالأولى والأحرى أن يستحقه مع أخت مثلها ، ويؤيده أيضا أن البنتين أمس رحما من الأختين ، وقد فرض لهما الثلثين بقوله «فلهما الثلثان مما ترك» ، وقيل : فوق زائدة ، وقيل : لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق الثنتين من جعل الثلث للواحدة مع الذكر «ولأبويه» أى الميت :

وقوله تعالى « لكل واحد منهما السدس مما ترك » فالأب يكون له مثل ما للأم في هذا الموضع .. « إن كان له » أي الميت « ولد » ذكر أو غيره وألحق بالولد الابن وبالأب الجد « فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه » أي فقط بقرينة المقام « فلأمه الثلث » مما ترك ، وإنما لم يذكر حصة الأب لأنه لما فرض أن الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب ، وكأنه قال : فلهما ما ترك أثلاثا ، ولو كان معهما أحد الزوجين كان لها ثلث ما بقي بعد فرضه كما قال الجمهور لا ثلث المال كما قاله ابن عباس ، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب ، وهو كما قال البيضاوي خلاف وضع الشرع « فإن كان له إخوة » أي اثنان فصاعداً ذكوراً أو إناثا كما عليه الجمهور « فلأمه السدس » والباقي للأب ولا شيء للإخوة ، وقال ابن عباس : لا يحجب الأم من الثلث إلى السدس إلا ثلاثة إخوة ذكور أخذا بظاهر اللفظ . وإطلاق اللفظ يدل على أن الإخوة يردونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب شيئا ، وعن ابن عباس أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم ، وقوله تعالى « من بعد وصية يوصى بها أو دين » متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها ، أي هذه الأنصباء للورثة من بعد وصية أو وفاء دين ، وإنما عبر بأو دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومفردين ، فإن قيل : لم قدمت الوصية في الذكر على الدين مع أنها متأخرة في حكم الشرع عنه ؟ أجيب بأنها لما كانت شاقة على الورثة لكونها مأخوذة بلا عوض وهي مستحبة لكل مكلف بخلاف الدين فإنه لا يكون على كل مكلف ، فقدمت لذلك ، وقوله تعالى « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم ، فمنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له ، وإنما العالم بذلك هو الله تعالى وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه ، وقال ابن عباس : أطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة ، والله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض ، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع إليه

ولده ، وإن كان الولد أرفع درجة من أبيه فى الجنة سأل الله أن يرفع إليه فيرفع بشفاعته « فريضة » أى ما قدر من المواريث فرض « من الله إن الله كان عليما » بأمور عباده « حكيما » فيما قضى وقدر ، أى لم يزل متصفا بذلك .

وبتلك الآية ينتهى الربع السابع من هذا الجزء ، وقد تضمن ما تضمن : من أمر بالتقوى وبصلة الرحم ، ومن تقويم لروابط الأخوة بين الناس ، ومن عناية باليتيم ، وتفصيل لطريقة معاملته ، ورعاية ماله ، والسهر على تنميته واستثماره ، ومن تشريع لنظام الزواج والمهر ، وإباحة لتعدد الزوجات بقيود فصلها القرآن الكريم ، ومن الأمر بالوصية ، وشرح نظام توريث الأموال بين الورثة ، ومن إبطال لعادات الجاهلية فى الميراث ، ومنعهم لتوريث المرأة والأطفال .. إلى غير ذلك مما تضمنه هذا الربع من أحكام خطيرة ، لها أثرها فى حفظ كيان المجتمع الإسلامى .

أما الآية الثانية من هاتين الآيتين ، فهى قوله تعالى : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم » الخ ـ لما فرغ من بيان فرائض عمود النسب فى القرابة وهو الأولاد والوالدون ، وقدم الأهم منهما من حيث الحاجة إلى المال المتروك وهم الأولاد دون الأشرف وهم الوالدون ـ بين فرائض الزوجين وهما فى المرتبة الثانية لأنهما سبب لحصول الأولاد . والسبب إنما يقصد لأجل غيره والمسبب هو المقصود لذاته وهذا لا يعارض ما قلناه آنفا فى قوة رابطة الزوجية ؛ فالوجوه فى التفاضل تختلف باختلاف الاعتبارات ، قال عز وجل : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم » أى اللواتى تحققت بهن الزوجية بأكمل معناها ، وقوله تعالى : « إن لم يكن لهن ولد » ذكر أو غيره منكم أو من غيركم « فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين » وولد الإبن فى ذلك كالولد إجماعا « ولهن » أى الزوجات تعددن أو لا « الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد » منهن أو من غيرهن « فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » وولد الإبن كالولد فى ذلك إجماعا ، فقد فرض للرجل بحق العقد الصحيح ضعف ما للمرأة كما فى النسب ، وهكذا قياس كل رجل وامرأة وارثين

اشتركا فى الجهة والقرب من الميت « وإن كان رجل » أى الميت « يورث » أى منه ، من ورث صفة رجل « كلالة » اختلفوا فى الكلالة ، فذهب أكثر الصحابة إلى أنها من لا ولد له ولا والد ، قال الشعبى : سئل أبو بكر رضى الله عنه عن الكلالة ، فقال : إنى سأقول فيها برأيى ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد . وقال : لما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : إنى لأستحى من الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر ، وذهب طاووس أن الكلالة من لا ولد له ، وهى إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وأحد القولين عند عبد الله بن عمر ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ثلاث لو يكون النبى بينهن لنا أحب إلينا من الدنيا وما فيها : الكلالة والخلافة وأبواب الربا ، وقال معد بن أبى طلحة : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إنى لا أدع بعدى شيئاً أهم عندى من الكلالة ، وما أغلظ بى فى شىء ما أغلظ فيه حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال: يا عمر ألا يكفيك آية آخر سورة النساء ، وإنى إن أعش أقض فيها بقضية يقض بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار فى ذى الكلالة : هو من ليس له والد ولا ولد ، وعليه أكثر الصحابة . واللفظ مصدر كلّ يكل بمعنى الكلال ، وهو الإعياء ، ثم استعمل للقرابة البعيدة غير قرابة الولد والوالد لضعفها بالنسبة إلى قرابة الأصول والفروع . وقال بعضهم : كلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة ، وحمل فلان على فلان ثم كل عنه إذا تباعد ، ومنه سميت القرابة البعيدة كلالة ، ذكره الرازى وجها ثانيا . وذكر وجها ثالثا هو أن الكلالة فى أصل اللغة عبارة عن الإحاطة ، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ، والكل لإحاطته بما يدخل فيه ، ويقال : تكلل السحاب إذا صار محيطا بالجوانب قال : إذا عرفت هذا فنقول من عدا الوالد والولد إنما سموا بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان وكالإكليل المحيط برأسه ، أما قرابة الولادة فليست كذلك ، فإن فيها يتفرع البعض عن البعض ويتولد البعض من البعض ،

كالشيء الواحد الذى يتزايد على نسق واحد . فأما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهى كالإخوة والأخوات والأعمام والعمات ، فإنما يحصل لنسبهم اتصال وإحاطة بالمنسوب إليه . ثم بين أن الكلالة يوصف بها الميت الموروث ويراد بها من يرثه غير أولاده ووالديه ، ويوصف بها الوارث ويراد به من سوى الأولاد والوالدين ، ورجح هذا بحديث يدل عليه ، وذكر كغيره أن لفظ الكلالة مصدر يستوى فيه القليل والكثير ولا يجمع ولا يثنى ، وقال بعضهم : إنه صفة كالهجاجة الأحمق . وعن عمر أنه كان يقول : الكلالة من سوى الولد من الوارثين ، وروى أنه لما طعن قال : كنت أرى أن الكلالة من لا ولد له ، وأنا استحى أن أخالف أبا بكر : الكلالة من عدا الوالد والولد . رواهما عنه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير والبيهقى وغيرهم . والرواية الثالثة عنه التوقف ، وكان يقول: ثلاث لأن يكون النبي بينهن لنا أحب إلى من الدنيا وما فيها : الخلافة والكلالة والربا . رواه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأبو الشيخ فى الفرائض والحاكم والبيهقى وغيرهم . وروى ابن راهويه وابن مردويه عن سعيد بن المسيب بسند صحيح أن عمر سأل النبى كيف يورث الكلالة ؟ فقال « أو ليس الله قد بين ذلك » ؟ ثم قرأ : « وإن كان رجل يورث كلالة » الخ الآية ، فكأن عمر لم يفهم . فأنزل الله « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » الخ الآية ، فكأن عمر لم يفهم . فقال لحفصة : إذا رأيت رسول الله طيب نفس فاسأليه عنها ، فسألته فقال « أبوك ذكر لك هذا ؟ ما أرى أباك يعلمها أبدا » فكان يقول : ما أرانى أعلمها أبداً وقد قال رسول الله ما قال . وروى عبد الرزاق وابن أبى شيبة عن سعيد أيضاً أن عمر كتب أمر الجد والكلالة فى كتف « أى عظم كتف » ثم طفق يستخير ربه فقال : اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه ، فلما طعن دعا بالكتف ، فمحاها ثم قال : كنت كتبت كتابا فى الجد والكلالة وكنت أستخير الله فيه ، وإنى رأيت أن أردكم على ما كنتم عليه . فلم يدروا ما كان فى الكتف . وهذه الروايات غريبة فى معناها . فالأمر واضح لم يشتبه فيه من دون عمر ولا من

فى طبقته ، ولله فى البشر شؤون ، وقلما تقرأ ترجمة رجل عظيم إلا وتجد فيها أنه انفرد بشىء غريب فى بابه . إن الله تعالى أنزل آيتين فى الكلالة : الآية التى نفسرها والآية التى فى آخرهذه السورة ، فبين فى هذه الآية مايرثه الإخوة للأم من الكلالة فقط للحاجة إلى ذلك وعدم الحاجة عند نزول الآية إلى بيان ما يأخذه إخوة العصب ، وكأنه وقع بعد ذلك إرث كلالة فيه إخوة عصب ، وسئل النبى عن ذلك فنزلت الآية الأخرى التى فى آخر السورة ، التى جعلت للأخت الواحدة النصف إذا انفردت ، وللأختين فأكثر الثلثين ، وللأخ فأكثر كل التركة « فإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » فأجمع الصحابة على أن قوله تعالى هنا « وله أخ أو أخت » يعنى به الأخ أو الأخت من الأم فقط ، لأن الأخوين من العصب قد بين حكمهما فى الآية الأخرى ولأن قوله « فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » يدل على أنهم إنما يأخذون فرض الأم ، فإنه إما السدس وإما الثلث ، واستدل المفسرون على ذلك بقراءة أبىّ بزيادة « من الأم » وسعد ابن أبى وقاص بزيادة « من أم » وقالوا : إن القراءة الشاذة أى غير المتواترة تخصص لأن حكمها حكم أحاديث الآحاد . وعندى أن هذا ليس قراءة وإنما هو تفسير سمعه بعض الناس منهما فظنوا أن كلمة « من الأم » قراءة وإنهما يعدانها من القرآن . وأرى أن كل ما روى من الزيادة على القرآن المتواتر فى قراءة بعض الصحابة قد ذكر على أنه تفسير ، فإن لم يكن الصحابى هو الذى قصد التفسير بذلك كان النبى الذى تلقى ذلك الصحابى عنه هو الذى قصد التفسير ، فظن الصحابى أنه يريد القرآن . والدليل على ذلك القراءة المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم الخالية من هذه الزيادة . ولا دخل ههنا للفظ الراوى فى الترجيح لأنهم يروون الأحاديث بالمعنى . والحاصل أن الأخ من الأم يأخذ فى الكلالة السدس وكذلك الأخت لا فرق فيه بين الذكر والأنثى ، لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها . وإذا كانوا متعددين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء ، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم لما ذكرنا من العلة .

وقوله تعالى : «أو امرأة» أى أو امرأة تورث كلالة كذلك ، «وله» أى للرجل . «أخ أو أخت» اكتفى بحكم الرجل عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه، ويصح أن يعود الضمير على الموروث الكلالة فيشمل الرجل والمرأة «فلكل واحد منهما السدس» ، وقد أجمعوا أن المراد به الأخ والأخت من الأم «فإن كانوا» أى الأخت والأخوات من الأم «أكثر من ذلك» أى من واحد «فهم شركاء فى الثلث» يستوى فيه ذكورهم وإناثهم ، لأن الأولاد بمحض الأنوثة «من بعد وصية يوصى بها أو دين» وقوله تعالى «غير مضار» حال من ضمير يوصى ، أى غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث . وعن قتادة : كره الله الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث . وعن قتادة : كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه ، وعن الحسن : المضارة فى الدين أن يوصى بدين ليس عليه ، ومعناه الإقرار ، وقوله تعالى «وصية من الله» مصدر مؤكد ليوصيكم ، أى يوصيكم بذلك وصية ، كقوله : فريضة من الله «والله عليم» بما دبره لخلقه من الفرائض «حليم» بتأخير العقوبة عمن خالفه . هذا وقد خصت السنة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين .

١٣ — تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

١٤ — وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

آيتان جامعتان تشير أولاهما إلى الأحكام التى ذكرت من أول هذه السورة إلى ما قبل هذه الآية ، فقد جعل الله تلك الأحكام حدوداً لأعمال المكلفين ينتهون منها إليها ، ولا يجوز لهم تجاوزها أو تعديها ، وهكذا جميع أحكام الله تعالى من المأمورات والمنهيات والمباحات ، فإن لها حدوداً إذا تجاوزها المكلف وقع فى المحظور ، والمدار فى الطاعة على البقاء فى دائرة هذه الحدود

وهى الشريعة ، ومدار العصيان على اعتدائها ، وقوله تعالى : « تلك » أى الأحكام المذكورة فى أمر اليتامى والوصايا والمواريث « حدود الله » أى شرائعه التى حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها « ومن يطع الله ورسوله » فيما حكما به « يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقوله تعالى « خالدين فيها » حال مقدرة « وذلك الفوز العظيم » وأى فوز أعظم من ذلك الفوز « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده » أى الله « يدخله ناراً » خالداً فيها « وله عذاب مهين » أى ذو إهانة ، وروعى فى الضمائر فى الآيتين لفظ (من) وفى خالدين معناها ، وقرأ نافع وابن عامر : ندخله جنات وندخله ناراً .

هذا وطاعة الله عز وجل هى اتباع دينه ، والتمسك بما شرعه الله من الدين على لسان رسوله الكريم ، صلوات الله عليه ، وطاعة الرسول هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه عز وجل ؛ فطاعته هى عين طاعة الله عز وجل كما قال تعالى « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وسيأتى ذكر الآية مع تفسيرها ، فما هى النكتة إذاً فى ذكر طاعة الرسول مع ذكر طاعة الله تعالى؟ قد يقال : إن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول إنما تتحدان، فتكون الثانية عين الأولى فيما يسنده الرسول إلى ربه ويبين أنه بوحى منه . وقد يأمر الرسول بأشياء وينهى عن أشياء باجتهاده ، فإذا جزم بذلك ولم يقم دليل على أن الأمر للإرشاد أو الاستحباب والنهى للكراهة أو الاستهجان وجبت طاعته فى ذلك ، سواء كان فى العبادات أو الأمور السياسية والقضائية، لأنه إمام الأمة وحاكمها . وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى لا يقر رسله على خطأ فى اجتهادهم ، بل يبين لهم ذلك مع ذكر العفو عن عدم إعطاء الاجتهاد حقه الموصل إلى ما هو الصواب المرضى عنده عز وجل ، كقوله لنبينا عند ما أذن لبعض من استأذنه من المنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » الآية ، أو مع العتاب كما عاتبه على اجتهاده الموافق لاجتهاد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى قبول الفداء من أسرى بدر « ما كان لنبى أن يكون له أسرى » الآيتين ، وكما عاتبه فى الإعراض عن الأعمى المسترشد

فى أول سورة « عبس وتولى » إلخ ولا يدخل فى هذا المقام ما يقوله صلوات الله عليه فى الأمور الدنيوية المحضة كالعادات والزراعة ونحوها ، لأنه ليس دينا ولا قضاء ولا سياسة ، ولذلك قال صلوات الله عليه فى مسألة تأبير النخل : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » كما فى الصحيح .

١٥ — وَالَّـٰتِى يَأْتِينَ الْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً .

١٦ — وَالَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا .

١٧ — إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

١٨ — وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْـَٔـٰنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

هذه الآيات الأربع تتحدث عن الخيانة الزوجية وعقوبتها ، وعن التوبة إلى الله ، ووجه قبولها ووجه المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها أن هذه الآيات هى فى بعض الأحكام المتعلقة بشئون الأسرة كالآيات التى قبلها ، فذكر الله تعالى حكم إتيان النساء الفاحشة ، وحكم إتيان الرجال الفاحشة كذلك ، وسوف يلى هذه الآيات آيات أخرى يبين الله عز وجل فيها حكم ما كانت عليه الجاهلية من إرث النساء كرها وعضلهن لأكل أموالهن ، وحكم ما يحرم منهن فى النكاح .

وقوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة » أى الزنا « من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم » أى من رجال المسلمين ، وهذا خطاب للحكام . أى فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود ، وفيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود « فإن شهدوا » عليهن بها « فأمسكوهن » أى احبسوهن « فى البيوت » واجعلوها سجناً لهن ، وامنعوهن من مخالطة الناس « حتى يتوفاهن الموت » أى ملائكته « أو » إلى أن « يجعل الله لهن سبيلا » أى طريقا إلى الخروج منها ، أمروا بذلك أول الإسلام ، ثم جعل لهن سبيلا ، بجلد البكر وتعذيبها عاما ورجم المحصنة ، وفى الحديث لما بين الحد قال : خذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا . رواه مسلم .. « واللذان » أى الزانى والزانية « يأتيانها » أى فاحشة الزنا « منكم » أى الرجال « فآذوهما » أى بالسب والضرب والتأديب « فإن تابا » أى منهما « وأصلحا » أى العمل « فأعرضوا عنهما » ولا تؤذوهما « إن الله كان توابا » على من تاب « رحيما » وهو علة الأمر بالإعراض وترك المذمة ، وهذا منسوخ بالحد ، روى ابن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما أخبراه أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله ، فقال الآخر ـ وكان أفقههما ـ أجل يا رسول الله ، فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لى أن أتكلم ، فقال : إن ابنى كان أجيراً عند هذا ، فزنا بامرأته ، فأخبرونى أن على ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة وبجارية ، ثم إنى سألت أهل العلم فأخبرونى أنما على ابنى جلد مائة وتغريب سنة ، وإنما الرجم على امرأته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأقضين بينكما بكتاب الله ، أما غنمك وجاريتك فرد عليك ، وجلد ابنه مائة وغربه عاما أى لأنه كان غير محصن ، وأمر أنيسا الأسلمى أن يأتى امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها فاعترفت فرجمها ، وروى ابن عباس عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعد ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية

الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . والرجم فى كتاب الله حق من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو الاعتراف. وجملة حد الزنا أن الزانى إذا كان محصنا ـ وهو الذى اجتمع فيه أربعة أوصاف : العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح ؛ فحده الرجم مسلما كان أو ذميا ، وعند أبى حنيفة أن الإسلام من شرائط الإحصان ؛ فلا يرجم عنده الذمى ، ويرده ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا ، وإن كان الزانى غير محصن بأن لا يجتمع فيه هذه الأوصاف ـ نظر إن كان غير بالغ أو مجنونا فلا حد عليه ، وإن كان حرا عاقلا بالغا غير أنه لم يصب بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام ، ومثل الزنا اللواط عند الشافعى رضى الله تعالى عنه ، لكن المفعول به لا رجم عليه وإن كان محصنا بل يجلد ويغرب . « إنما التوبة على الله » أى أن قبول التوبة ، كالمحتوم على الله ، تفضلا منه بمقتضى وعده ، لأنه تعالى وعد بقبول التوبة فإن وعد شيئا فلابد أن ينجز وعده ، لأن الخلف فى وعده سبحانه وتعالى محال « للذين يعملون السوء » أى المعصية ، وقوله تعالى « بجهالة » فى موضع الحال ، أى يعملون السوء جاهلين ، أى سفهاء ، فإن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه السفه والشهوة ، لا ما تدعو إليه الحكمة والعقل ، وعن مجاهد : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع ـ أى يخرج من جهالته ، وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصى به الله فهو جاهل جهالة عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل « ثم يتوبون من » زمن « قريب » أى قبل أن يدركهم الموت ، لقوله تعالى « حتى إذا حضر أحدهم الموت » وقوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . وعن عطاء : ولو قبل موته بفواق ناقة . وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه فى جسده ، فقال الله : وعزتى وجلالى لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر . والغرغرة : تردد الروح فى الحلق ، ومعنى (من) فى قوله « من قريب » للتبعيض ، أى يتوبون

بعض زمان قريب ، كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضوره الموت زمانا قريبا ؛ لأن أمر الحياة قريب ، لقوله تعالى « متاع قليل » فنى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد « فأولئك يتوب الله عليهم » أى يقبل توبتهم ، فإن قيل : ما فائدة ذلك بعد قوله تعالى « إنما التوبة على الله » أجيب بأن ذلك وعد بالوفاء بما وعد به وكتبه على نفسه ، كما يعد الوفاء بما عليه « وكان الله عليما » بخلقه « حكيما » فى صنعه بهم « وليست التوبة للذين يعملون السيئات » أى الذنوب « حتى إذا حضر أحدهم الموت » أى أخذ فى النزع « قال » عند مشاهدة ما هو فيه « إنى تبت الآن » حين لا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة ، قال تعالى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق « ولا الذين يموتون وهم كفار » أى إذا تابوا فى الآخرة عند معاينة العذاب ، لا ينفعهم ذلك ولا تقبل توبتهم ، فسوى سبحانه وتعالى بين الذين يسوفون توبتهم إلى حضور الموت لمجاوزة كل منهما أوان التكليف والاختيار .

والمراد بالكفر هنا ما هو دون الشرك ، وعدم تصديق دعوة النبوة ، وهو استعمال معروف فى القرآن وقالوا : إنه يوجد كفر دون كفر ، وبه فسر أبو حامد الغزالى الحديث الصحيح « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فقد بين أن ما يجب الإيمان به قسمان : قسم يجب أن يعلم لذاته ولا يتعلق به عمل ، كالإيمان بوجود الله ووحدانيته وسائر ما وصف به نفسه وبالوحى وصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقسم يجب أن يعلم ليعمل به كالإيمان بالفرائض وكون أدائها من أسباب رضوان الله ومثوبته ، وبتحريم المحرمات وكون اقترافها من أسباب سخطه تعالى وعقابه ، أى فوق ما فى الفرائض من إصلاح النفس وحال الاجتماع ، وما فى المحرمات من الضرر فى الأفراد والجماعات ، وإن من يعمل السيئة المحرمة لا يكون مؤمنا بتحريمها وصدق الرسول فيما أخبر به من كونها موجبة لسخط الله تعالى وعذابه ،

فالإيمان يشترط فيه اليقين، ومن أيقن بأن شيئا من الأشياء يضره فهو لا يأتيه كما هو معلوم من غرائز البشر وارتباط أعمالهم بإرادتهم وإرادتهم بعلومهم المتعلقة بالنفع والضرر ، بل علم أن من عادة الإنسان وطبعه أن يحتاط فى دفع الضرر حتى إنه ليعمل فيه بقول من لا ثقة بقوله عنده لعدم عدالته . فإذا كنت جائعا ولم تجد إلا طعاما أخبرك رجل لا تثق بروايته فى إخباره أنه مسموم ، أفلا تبنى على الاحتياط وتترك الأكل من ذلك الطعام؟ بل إنك لتقول إنه يحتمل أن يكون صادقا فلا أعرض نفسى للهلاك بهذا الطعام! وقد أخبرك النبي المعصوم الصادق الأمين بأن هذه الذنوب سموم مهلكة للأرواح مفضية إلى سخط الله وعذابه ، فكيف تدعى الإيمان به والجزم بصدقه وأنت تجعل خبره دون خبر ذلك الذى تجزم بعدم عدالته !؟

وقوله تعالى « أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » أى أولئك الفريقان البعيدان عن سنة الفطرة وهداية الشريعة ، المستعبدان لسلطان الشهوة وشيطان الرذيلة ، قد أعتدنا وهيأنا لهم عذابا مؤلما فى دار الجزاء بما قدموا لأنفسهم فى دار الأعمال ، فإن إصرارهم على السيئات ، إلى أن وافاهم الممات ، قد دسى نفوسهم . وأفسد قلوبهم ، فصاروا تهبط خطاياهم بأرواحهم إلى هاوية الهوان ، وتعجز عن العروج إلى الجنان ، ومعاهد الكرامة والرضوان .

١٩ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

٢٠ — وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا .

٢١ — وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا

ثلاث آيات فى حفظ حقوق المرأة ورعاية حريتها ، وتقديس إرادتها ، وفى النهى عن استغلال ضعفها وهوانها ، وتحريم عادات شائعة عند العرب قبل الإسلام تسىء إلى المرأة وكرامتها .

والآية الأولى من هذه الآيات الثلاث يروى فى سبب نزولها عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « كان الرجل إذا مات أبوه أوحميمه وترك جارية ألقى عليها ابنه أو حميمه ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها » وفى رواية البخارى وأبى داود « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية فى ذلك . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى كبيشة ابنة معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبى قيس بن الأسلت فتوفى عنها فجنح عليها ابنه ، فجاءت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأنكح . فنزلت » . وروى مثله عن أبى جعفر . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ، فكان يعضلها حتى يتزوجها أو يزوجها من أراد ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك . وروى عن الزهرى : أنها نزلت فى الرجل يحبس المرأة عنده لا حاجة له بها وينتظر موتها حتى يرثها . وقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء » أى ذاتهن « كرها » نزلت فى أهل المدينة ، كانوا فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة وللرجل عصبة وألقى ثوبه على امرأة الميت أو على خبائها صار أحق بها من نفسها ومن غيره ، ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ، وإذا شاء عضلها ومنعها من الأزواج ، يضارها لتفتدى المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبة الميت ثوبه ، فهى أحق بنفسها وكانوا على هذا حتى توفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته ، فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها ، فلم يقربها

ولم ينفق عليها ـ يضارها لتفتدى نفسها منه ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : إن أبا القيس توفى وورث نكاحى ابنه ، فلا هو ينفق علىّ ، ولا يدخل بى ، ولا يخلى سبيلى ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والكره بالفتح ما أكره عليه ، وبالضم المشقة والبغض .

وقوله تعالى « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » عطف على أن ترثوا ، أى لا تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بإمساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضررا لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر ، وقيل : هذا خطاب لأولياء الميت ، والصحيح كما قال البغوى أنه خطاب للأزواج ، قال ابن عباس : هذا فى الرجل يكون له المرأة وهو كاره صحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد إليه ما ساق إليها من المهر ، فنهى الله عن ذلك ، قال الزمخشرى : العضل الحبس والضيق ، ومنه : عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها به فخرج « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » كالزنا والنشوز وسوء العشرة ، قال عطاء : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها ، فنسخ ذلك بالحدود . وقوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف » قال الحسن رجع إلى أول الكلام ، يعنى : فآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف ، وهو النصفة فى المبيت والإجمال فى القول ، وقيل : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له « فإن كرهتموهن » فاصبروا ولا تفارقوهن « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » أى فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأحمد ، وأحبت ما هو ضد ذلك ، وليكن نظركم ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير ، فلعل الله أن يرزقكم منهن ولدا صالحا ويعطفكم الله عليهن ، وقد نبهت الآية على إمساك المرأة مع الكراهة لها ، ونبهت على أن الإنسان لا يكاد يجد محبوبا ليس فيه ما يكره ، فليصبر على ما يكره لما يحب .

ولما كان الرجل إذا طمحت عينه إلى استظراف امرأة بهت بالتى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ، ليصرفه إلى زوج

غيرها ـ نزل « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » أى أخذها بدلها بأن طلقتموها « و » قد « آتيتم إحداهن » أى الزوجات « قنطارا » أى مالا كثيرا صداقا « فلا تأخذوا منه » أى القنطار «شيئاً» وهو قوله تعالى « أتأخذونه بهتانا» أى ظلما « وإثما مبينا » أى بينا ، أى تأخذونه باهتين وآثمين ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا فقال : أيها الناس ، لا تغالوا بصداق النساء ، فلو كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتى عشرة أوقية ؛ فقامت إليه امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، لم تمنعنا حقا جعله الله لنا ؟ والله يقول « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال عمر رضى الله عنه : كل أحد أعلم من عمر ، ثم قال لأصحابه : تسمعوننى أقول مثل هذا القول ولا تنكرونه على حتى ترد على امرأة ليست من أعلم النساء .. وقوله تعالى « وكيف تأخذونه » استفهام توبيخ وإنكار، أى تأخذونه بأى وجه ؛ « وقد أفضى » أى وصل « بعضكم إلى بعض » بالجماع المقرر بالمهر ، وكنى الله تعالى عن الجماع بالإفضاء وهو الوصول إلى الشيء من غير واسطة تعليما لعباده لأنه مما يستحى منه « وأخذن منكم ميثاقا » أى عهدا « غليظا » أى شديدا وهو ما أخذه الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . وقد قيل : صحبة عشرين يوما قرابة ، فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟

وقد استدل بعض الناس بذكر القنطار هنا على جواز التغالى فى المهور ، والآية ليست نصا فى جواز جعل القنطار مهرا — كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار — لجواز أن يكون إيتاء القنطار بوجوه متعددة كالهدايا والمنح ، ولكن روى سعيد بن منصور وأبو يعلى بسند جيد عن مسروق أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعمائة

درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول «وآتيتم إحداهن قنطارا» فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر . ا ثم رجع فصعد المنبر فقال : إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . وفى رواية أبى عبد الرحمن السلمى عند عبد الرزاق وابن المنذر أنه قال : إن امرأة خاصمت عمر فخصمته ، وفى الموفقيات للزبير بن بكار عن عبد الله بن مصعب قال : قال عمر : لا تزيدوا فى مهر النساء على أربعين أوقية - أى من الفضة - فمن زاد أوقية جعلت الزيادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ماذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : لأن الله يقول «وآتيتم إحداهن قنطارا» الآية فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ، ونقول : نعم إن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق للمرأة ، بل تركت ذلك للناس لتفاوتهم فى الغنى والفقر فيعطى كل بحسب حاله ، ولكن ورد فى السنة الإرشاد إلى اليسر فى ذلك وعدم التغالى فيه ومنه حديث : إن من خير النساء أيسرهن صداقا . رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عباس ، وحديث : إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها . رواه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث عائشة . وفى معناهما حديثها عند هؤلاء : أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا . كذا رأيته فى بعض كتب التفسير وهو فى الجامع الصغير بلفظ «أيسرهن مؤنة» . هذا والتغالى فى المهور قد صار من أسباب قلة الزواج ، لأنه يكلف الرجال مالاطاقة لهم به ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ويكون الغبن فى ذلك على النساء أكثر ، حتى إنه ربما ينتهى بالسنة الإلهية فى الخلق المعبر عنها برد الفعل إلى أن يصير النساء فى الإسلام هن اللواتى يعطين المهور للرجال ليتزوجوهن كما هى عادة النصارى . وإنك لترى هذه العادة الضارة متمكنة فى بعض الناس تمكناً غريباً ، حتى إن أحدهم ليمتنع من تزويج ابنته للكفء الصالح الذى لا يطمع فى مثله إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقا بمقامه من الصداق ، وقد يزوجها لمن لا يرضيه دينه ولا خلقه ولا يرجو لها الهناء عنده إذا هو أعطاه المقدار الكثير ، الذى يخيل إليه جهله أنه لائق

بمكانته .. ومن الواجب فى حياتنا الحاضرة تخفيف المهور إلى الحد المستطاع ليكون ذلك أبعث للشباب على الإقدام على الزواج .

٢٢ — وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

٢٣ — حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

آيتان جليلتان تبينان الحدود التى يجب أن يحافظ عليها الإنسان عند ما يفكر فى الزواج ، وتوضحان من يحل له أن يتزوجها ومن لا يحل من النساء . ويروى أنه كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه ، أو ينكحها من شاء ، فلما مات أبو قيس ابن الأسلت قام ابنه محصن فورث نكاح امرأته أم عبيد بنت ضمرة ، ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئا ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئا . فنزلت « ولا تنكحوا » الآية . ونزلت أيضا « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، أى نزلت هذه الآيات عقب وقوع هذه الحادثة وأمثالها ، وتقدم ذكر القصة بلفظ آخر عند تفسير الآية الأولى . وقال الواحدى وغيره : إنها نزلت فى محصن المذكور وفى الأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه ، وفى صفوان بن أمية بن خلف

تزوج امرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب ، وفى منظور بن رباب تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة . وقوله تعالى « ولاتنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء » وإنما عبر بـ (ما) دون (من) لأنه أريد به صفة ذات معينة وهى كونهن منكوحات ، وقيل(ما) مصدرية ، وقوله تعالى « إلاما قد سلف» استثناء من المعنى اللازم للنهى فكأنه قيل: تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف ، أو من اللفظ للمبالغة فى التحريم ، والمعنى : لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوه ولا يمكن ذلك ، والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق إلى إباحته ، أى لكن ما قد سلف من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه وقوله تعالى « إنه » أى نكاحهن « كان فاحشة ومقتا » علة للنهى ، أى إنه فاحشة، فـ(كان) مزيدة أى قبيحا عند الله ، مارخص فيه لأمة من الأمم ، ممقوتا عند ذوى المروءات من الجاهلية وغيرهم ، وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه « المقتى » ويسمى به الرجل المذكور أيضا ، قال فى القاموس : نكاح المقت أن يتزوج امرأة أبيه بعده ؛ فالمقتى ذلك المتزوج أو ولده ، ومن ثم قيل : ومقتا ، كأنه قيل: هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح لقبح ممقوت فى المروءة ، ولا مزيد على ما يجمع القبيحين « وساء » أى بئس « سبيلا » أى طريقا ذلك . روى عن البراء بن عازب أنه قال : مر بى خالى ومعه لواء فقلت :أين تذهب ؟ فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج إلى امرأة أبيه آتيه برأسه . واعلم أن أسباب التحريم المؤبدة ثلاثة: قرابة ورضاع ومصاهرة ، وضابط المحرمات بالنسب والرضاع أن يقال:تحرم نساء القرابة إلا من دخلت تحت ولد العمومة أو ولد الخؤولة، وقد بدأ الله بالسبب الأول وهو القرابة فقال « حرمت عليكم أمهاتكم » أى العقد عليهن ، وكذلك يقدر فى الباقى ؛ لأن تحريم نكاحهن هو الذى يفهم تحريمهن ، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله ، والأمهات جمع أم، والأم كل من ولدتك فهى أمك حقيقة ، أو ولدت من ولدتك ذكرا كان أو أنثى، كأم الأب وإن علت، وأم الأم كذلك ، فهى أمك مجازا ، وإن شئت

قلت: كل أنثى ينتهى إليها نسبك « وبناتكم » جمع بنت وضابطها كل من ولدتها فهى بنتك حقيقة ، أو ولدت من ولدها ذكرا كان أو أنثى ، كبنت ابن وإن نزل ، وبنت بنت وإن نزلت فبنتك مجازا ، وإن شئت قلت : كل أنثى ينتهى إليك نسبها ، وخرج بالبنت هذه البنت المخلوقة من زنا الرجل لأنها تحل له لأنها أجنبية عنه ، بدليل منع الإرث بالإجماع ، ويحرم على المرأة ولدها من زنا بالإجماع كما أجمعوا على أنه يرثها ، والفرق أن الإبن كالعضو منها وانفصل منها إنسانا ، ولا كذلك النطفة التى خلقت منها البنت بالنسبة للأب « وأخواتكم » جمع أخت ، وضابطها هو : كل من ولدها أبوك أو أحدهما فهى أختك « وعماتكم » جمع عمة ، وضابطها هو : كل من هى أخت ذكر والدك بلا واسطة فعمتك حقيقة أو بواسطة كعمة أبيك فعمتك مجازا ، وقد تكون العمة من جهة الأم كأخت أبى الأم « وخالاتكم » جمع خالة وضابطها هو : كل من هى أخت التى ولدتك بلاواسطة فخالتك حقيقة ، أو بواسطة كخالة أمك فخالتك مجازا ، وقد تكون الخالة من جهة الأب كأخت أم الأب « وبنات الأخ وبنات الأخت » من جميع الجهات ، وبنات اولادهم وإن سفلن ، ثم ثنى بالسبب الثانى وهو الرضاع فقال « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » وضابط أمك من الرضاع هو : كل من أرضعتك أو أرضعت من أرضعتك أو صاحب اللبن ، أو أرضعت من ولدك بواسطة أو غيرها ، أو ولدت مرضعتك بواسطة أو غيرها صاحب لبنها وهو الفحل بواسطة أو غيرها فأم رضاع « وأخواتكم من الرضاعة » وضابط أخت الرضاع هو : كل من أرضعتها أمك وارتضعت بلبن أبيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل ، ويلحق بذلك الستة باقى السبع لخبر الصحيحين : يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة، وفى رواية : حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب ، وضابط بنت الرضاع: كل أنثى ارتضعت لبنك أو ابن من ولدته بواسطة أو غيرها وكذا بناتها من نسب أو رضاع وإن سفلن ، وضابط عمة الرضاع هو : كل أخت للمرضعة أو أخت أنثى ولدت المرضعة بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع ، وضابط بنات الإخوة وبنات الأخوات من الرضاع: كل أنثى من

بنات أولاد المرضعة والفحل من الرضاع والنسب ، وكذا كل أنثى أرضعتك أختك أو ارتضعت بلبن أخيك ، وبناتها وبنات أولادها من نسب أو رضاع ، وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين : أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين لقوله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء » وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا رضاع إلا ما نشر العظم وأنبت اللحم . وإنما يكون هذا فى حال الصغر ، وعند أبى حنيفة : مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وهى عند الأكثرين لأقل الحمل ، وأكثر مدة الرضاع وأقل مدة الحمل ستة أشهر ، وابتداء الحولين من تمام انفصاله ، والشرط الثانى أن يوجد خمس رضعات متفرقات ، لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت فيما أنزل الله فى القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى فيما يقرأ من القرآن أى يقرؤهن من لم يبلغه نسخهن ، فقد نسخت تلاوتهن وبقى حكمهن ، وهذا ما ذهب إليه الشافعى ، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم ، وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب ، وإليه ذهب سفيان الثورى ومالك والأوزاعى ، وعبد الله بن المبارك وأبو حنيفة ويقوى الأول قوله صلى الله عليه وسلم : لا تحرم المصة من الرضاع والمصتان ـ ثم ثلث بالسبب الثالث وهو النكاح فقال « وأمهات نسائكم » أى بواسطة أو بغيرها من نسب أو رضاع سواء أدخل بزوجته أم لا لإطلاق الآية « وربائبكم » جمع ربيبة وهى بنت الزوجة من غيره ، وسميت ربيبة لأنه يربيها كما يربى أبناءه ولو فى غالب الأمر ثم اتسع فيه ، وسميت بذلك وإن لم يقم بتربيتها ، وقوله تعالى « اللاتى فى حجوركم » صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » أى جامعتموهن سواء كان ذلك بعقد صحيح أم فاسد لإطلاق الآية « فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم » أى فى نكاح بناتهن إذا فارقتموهن . تنبيه : قضية

كلام الشيخ أبي حامد وغيره أنه يعتبر في الدخول أن يقع في حياة الأم ، فإن قيل: لم لم يعتبر الدخول في تحريم أصول البنت واعتبر في تحريمها الدخول؟ أجيب بأن الرجل يبتلى عادة بمكالمة أمها عقب العقد لترتيب أموره ، فحرمت بالعقد ليسهل ذلك عليه بخلاف بنتها «وحلائل» أى أزواج «أبنائكم» واحدتها حليلة والذكر حليل، سميا بذلك لأن كل واحد يحل إزار صاحبه ، من الحل وهو ضد العقد ، وقوله تعالى «الذين من أصلابكم» احترازعن حليلة المتبنى ، فإنها لا تحرم على الرجل الذى تبناه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد بن حارثة ، وكان تبناه صلى الله عليه وسلم، لا عن حليلة ولده من الرضاع فإنها تحرم عليه، ولا عن حلائل أبناء الولد وإن سفلوا ، ثم ذكر سبحانه وتعالى تحريم الجمع بقوله تعالى «وأن تجمعوا بين الأختين» أى ولا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين فى نكاح ، سواء كانتا من نسب أم رضاع ، وسواء أنكحهما معا أم مرتبا ؛ فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها . ويلحق بالأختين الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من نسب أو رضاع ولو بواسطة ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ، ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ، لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى . رواه الترمذى وغيره وصححوه ، لما فيه من قطيعة الرحم وإن رضيت بذلك ، فإن الطبع يتغير، وإليه أشار صلى الله عليه وسلم فى خبر النهى عن ذلك بقوله : إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامهن . وضابط تحريم الجمع ابتداء ودواما ، هو : كل امرأتين بينهما قرابة أو رضاع، لو فرض أن إحداهما ذكر وحرم تناكحهما حرم أيضا الجمع بينهما بنكاح . وقوله تعالى «إلا ما قد سلف» استثناء عن لازم المعنى وهو المؤاخذة فكأنه تعالى قال : تؤاخذون بذلك إلا ما قد سلف قبل النهى فلا تؤاخذون به ، أو منقطع ، أى لكن ما سلف من نكاح بعض ما ذكر فإنه مغفور لكم ، ويؤيد هذا قوله تعالى «إن الله كان غفورا» لما سلف منكم قبل النهى «رحيما» بكم فى ذلك .

وأخيرا ينتهى الربع الثامن من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، الذى اشتمل على كثير من أحكام فريضة الميراث ، واشتمل على تحديد واضح لحدود الله ، وجزاء الطائعين والعاصين ، واشتمل كذلك على أحكام ومبادىء فى معاملة النساء اللاتى يأتين الفاحشة ، وعلى التوبة المقبولة وغير المقبولة ؛ وفيه إبطال لعادات جاهلية مذمومة ، كاعتبار النساء متاعا يورثن كما يورث ، وكعضل النساء - أى منعهن - عن الزواج ، وفيه أمر إلهى بمعاشرة النساء بالمعروف ، ودعوة إلى سماحة الصدر ولين الجانب فى معاملتهن ، وفيه كذلك نهى عن استرداد الرجل لشىء من مهر زوجته عند رغبته فى الانفصال عنها . وفيه بيان للمحرمات من النساء على المسلم أن يتزوجهن ؛ وما أعظم إنسانية الإسلام الكريم ومعاملته للمرأة حين نهى أن تورث المرأة ، وبهذا اعتبرها القرآن ذات شخصية مساوية لشخصية الرجل تماما ، ولم ينظر إليها على أنها سلعة تباع وتشترى وتوهب وتورث - كما كان يفعل فى الجاهلية - ؛ ثم ما أروع هذا التعبير القرآنى البليغ : « أفضى بعضكم إلى بعض » ، وما أروع تمثيل أحكام الإسلام وأوامره ونواهيه بحدود الله .

* * *

نظرة عامة

فى الجزء الرابع من القرآن الكريم

الجزء الرابع من القرآن الكريم يشمل كثيرا من سورة آل عمرآن، وربعين من ثمانية من سورة النساء.

ففى سورة آل عمران تقرأ فى الربع الأول من الجزء الرابع: حجاجا لبنى إسرائيل، ودعوة لهم إلى اتباع شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام، وتعظيما للبيت الحرام بناء إبراهيم، ثم تقرأ فيه توبيخا لأهل الكتاب لكفرهم بدعوة محمد ورسالته. ولمقاومتهم لدينه وشريعته. وفى هذا الربع كذلك نهى للمؤمنين عن طاعة فريق من أهل الكتاب، يسعون لزعزعة عقيدة المسلمين، ولردهم بعد إيمانهم كافرين؛ وفيه أمر إلهى للمؤمنين بتقوى الله حق تقواه، وبالاعتصام بالإسلام والتآخى فيه، ودعوة لهم إلى وجوب الدعوة للإسلام ومبادئه، وفيه كذلك رفع لمنزلة أمة الإسلام على سائر الأمم، ودعوة لأهل الكتاب ليؤمنوا برسالة محمد عليه السلام كما آمنوا برسالة أنبيائهم ورسلهم.

وفى الربع الثانى تنويه بطائفة من أهل الكتاب آمنت بنبيها وبرسول الإسلام، كما اشتمل آخر الجزء السابق على ذكر طائفة منهم مناقضة لهذه الطائفة، طائفة كفرت بالكتب السماوية، واعتدت على أنبياء الله بالقتل، وعصوا أوامر الله.

وصف القرآن الكريم الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب – التى جمعت إلى الإيمان برسالة نبيهم الإيمان برسالة نبى المسلمين – بهذه الصفات الجليلة، وبأنهم:

أمة قائمة.

يتلون آيات الله أناء الليل.

وهم يسجدون.

يؤمنون بالله

ويؤمنون باليوم الآخر .
ويأمرون بالمعروف .
وينهون عن المنكر
ويسارعون فى الخيرات .

ثم ذكر القرآن الكريم الكافرين وعقابهم الشديد فى الآخرة عند الله .

وفى هذا الربع أيضا نهى للمؤمنين عن اتخاذ بطانات لهم من الكافرين الذين يسعون فى الخبال والدمار للمؤمنين، والذين يضمرون الحقد والكراهية للمسلمين ، ويحزنون لما ينالهم من خير ونعمة ونصر ، ويفرحون لما يصيب المسلمين من شر وهزائم ومحن وخطوب . واشتمل كذلك على ذكر بدر وانتصار الإسلام فيها ، وأهمية هذا الانتصار فى حياة الإسلام والمسلمين . وفيه كذلك نهى عن الربا ، وإرشاد إلهى للمؤمنين بأن يعملوا على اتقاء النار دائما وأبدا ، وأمر لهم بطاعة الله وطاعة الرسول ، وتعليق الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة على هذه الطاعة .

أما الربع الثالث ففيه دعوة للمؤمنين ليسارعوا إلى مغفرة من الله وإلى جناته الواسعة العظيمة التى أعدت للمتقين ، وفيه شرح لصفات المتقين من بذل وجود وكظم للغيظ ، وعفو عن الناس ، وتوبة وترك للإصرار على الذنوب . وفيه كذلك دعوة إلى الاعتبار بمصائر الأمم « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، وفيه عزاء للرسول والمسلمين عن هزيمة أحد ، وتقوية لروح المسلمين المعنوية ، وبعث لهم على الجلد والصبر ، ووعد من الله بالخبال والهلاك للمشركين والكافرين .

وفى الربع الرابع تصوير لهزيمة المسلمين فى أحد وأسبابها . وعزاء للمؤمنين فى هذه الهزيمة . وفيه نهى عن الخيانة فى الغنائم ، وما أروع ما قال الله عز وجل فى تصوير إحسان الله العظيم ببعثة محمد خاتم النبيين .

لقد من الله على المؤمنين :

إذ بعث فيهم رسولا .
من أنفسهم .
يتلو عليهم آياته .
ويزكيهم .
ويعلمهم الكتاب .
والحكمة .
وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

ولو حاولنا أن نفصل معنى ذلك ودلالته على ما أصاب الإنسانية كلها ببعثة محمد ، وعلى ما أصاب المؤمنين كذلك ، وعلى ما أصاب العرب خاصة ، من خير ومجد وعزة وهدى وفلاح ، بنزول القرآن ، وبعثة محمد ورسالته ، وهو رسول عربي من العرب الذين نزلت فى وسطهم رسالة الإسلام ؛ لو حاولنا ذلك لضاق الوقت ، وتعسر البيان ، وتعذر التفصيل .

واحتوى هذ الربع كذلك على تعظيم منازل الشهداء عند الله ، وعلى تصوير ما يلحقهم من خير بسبب استشهادهم وتضحياتهم وجهادهم فى سبيل الإسلام ، وقد حدث الله عز وجل عنهم بأنهم :

أحياء عند ربهم .
يرزقون .
فرحون بما آتاهم الله من فضله .

كما تحدث القرآن الكريم فى الربع الخامس كذلك عنهم ، ووصفهم بأنهم يستبشرون بنعمة وفضل من الله .. وقد أمعن المفسرون فى تفسير معنى الرزق الذى ينالهم ، وما يصيبون من مآكل وملذات فى القبر ، وهذا خطأ وعدم فهم لكتاب الله ، لو دروا أن الرزق كما يكون بالمال والأكل يكون كذلك بالرضاء والرعاية والعطف ، لفسروا الآية تفسيرا آخر ، فمعنى « يرزقون » أنهم ينالون ما كانوا يطمعون فيه من رضاء الله ومثوبته وإكرامه وفضله .

وفى الربع الخامس تنويه كذلك بالشهداء وجهادهم وتضحياتهم وثباتهم فى سبيل الإسلام ورسوله الكريم . وفيه إشادة بمواقف رائعة لصحابة رسول الله فى جهاد المشركين ، وفى الدفاع عن الإسلام ، وفى نضال أعداء المسلمين . وفيه تصوير رائع للبخلاء وجزائهم فى الآخرة عند الله ، ولمواقف جماعة من اليهود ، قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . وقالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

وفى الربع السادس تعزية للمسلمين عما يصيبهم من محن وشدائد وخطوب وإيذاء كثير ، ودعوة لهم إلى التمسك بالصبر والتقوى ، وفيه بيان لما ألزم الله عز وجل به أهل الكتاب فى كتبهم المقدسة من بيان أحكام الله كاملة وعدم كتمان شىء منها . ولو كان هذا الشىء هو بشارة الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس عامة إلى الإيمان بهذه الرسالة ، وفيه تمجيد لله وتعظيم لخلقه ، ولما صنع فى الأرض والسماء وفى الكون والحياة من معجزات ، وفيه شرح لصفات المؤمنين ، وبيان لجزائهم عند الله ، وفيه كذلك تسلية للرسول ، وتقوية لروحه ، وربط على قلبه ، وحفز له على مواصلة الجهاد ، وعلى عدم المبالاة بالكافرين ، وبألا يغره تقلبهم فى البلاد ، ويبين الله عز وجل مصير الكافرين فى الدنيا والآخرة ، ومصير المتقين المؤمنين كذلك . كما يبين جزاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالإسلام مع الإيمان برسالة أنبيائهم . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى الصبر والمصابرة وقوة العزيمة فى سبيل نشر الإسلام ودعوة الناس جميعا إلى الإيمان برسالته ، ويعلق على ذلك الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

وبذلك تنتهى سورة آل عمران ، وينتهى بنهايتها الربع السادس من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، هذه السورة العظيمة التى جمعت أعظم وأروع الأصول ، والتى فصلت مبادىء الدعوة إلى الإسلام تفصيلا كثيرا ، والتى رفعت من منزلة الإسلام والمسلمين فى الحياة ، والتى فرضت الدعوة إلى الإسلام فرضا على المسلمين ، والتى دعا فيها الله عز وجل أهل الكتاب من

اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالات أنبيائهم وبرسالة رسول الإسلام ، وبذلك أقام الإسلام أساس الأخوة الإنسانية فى الدين ، وأساس النهضة الروحية للبشر كافة .

إن سورة آل عمران مثل عظيم فى معانيها وحكمها ودعواتها ، وفى آرائها وأفكارها ، وفى بلاغاتها وأسلوبها ونظمها ؛ وهى جديرة بوجوب التأدب بآدابها ، لينال المسلمون من وراء هذه التوجيهات الإلهية ـ لو عملوا بها ـ القوة والعزة والمجد والخير والفلاح ، فى الدنيا والآخرة ، وفى الأولى والعقبى ؛ وإلى الله ترجع الأمور ، وتصير الحياة والأحياء جميعا .

أما الربعان الباقيان من هذا الجزء فهما فى أول سورة النساء ، السورة الرابعة من سور القرآن الكريم .

ويصور الربع الأول من سورة النساء مدى عناية القرآن الكريم باليتامى فى أنفسهم وأموالهم ، ويجيز تعدد الزوجات فى الإسلام إلى أربع ، ويوصى برعاية أموال السفهاء واليتامى وتدبيرها واستثمارها وترك الطمع فيها ، ويرعى حقوق النساء ويحافظ عليها ويدافع عنها ، ويشرح حقوق الإرث وفريضة المواريث شرحا وافيا .

وفى الربع الثانى يتمم الله عز وجل حديث فريضة الميراث ومستحقيه، ويفصل أحكام المواريث ، ويرسم الله عز وجل حدود شريعته : « الإسلام » آمرا من أطاعه باتباعها ، ومحذرا من عصاه من اجتنابها .

ثم يشرح عدة أحكام تتعلق بالمرأة ورعاية حقوقها والمحافظة على كرامتها ، وإبطال عادات جاهلية كانت تضر بالمرأة ومعنويتها ، ويفيض القرآن الكريم فى ذكر المحرمات من النساء على الرجل . وبذلك ينتهى الربع الثانى من هذه السورة ، وينتهى بانتهائه الجزء الرابع من أجزاء القرآن الكريم .

وإذا استعرضنا الموضوعات التى ذكرت فى هذين الربعين من سورة النساء نجدها على التوالى هكذا :

١ — الأمر بتقوى الله وبصلة الأرحام ورعايتها وأداء حقوقها .. والكلام

على الأرحام هنا هو المقصود ، ولتأكيد الأمر بحفظ حقوق الرحم وبتقوى الله فى الأرحام صدرت السورة بالأمر بتقوى الله فى كل حال ؛ تمهيدا للأمر بتقوى الله فى الأرحام .

٢ — إعطاء اليتامى أموالهم عند انتهاء الوصاية عليهم .

٣ — جواز تزوج المسلم بواحدة وباثنتين وبثلاث وبأربع ، بشرط أمن العدالة فى معاملتهن ، وهذا العدل بالنظر إليهما معا بأن يسوى بينهن فى كل شىء ، وبالنظر إليهما واحدة واحدة بأن يستطيع أن ينفق عليهما وعلى كل واحدة منهما ، وعلى أولاده من كل واحدة .

٤ — فرض المهر وجعله حقا للزوجة عند العقد عليها ، ولا يجوز أخذ الصداق كله أو بعضه من الزوجة إلا إذا تنازلت عنه عن طيب نفس .

٥ — وجوب تحرى سن الرشد بالنسبة لليتيم عند انتهاء مدة الوصاية عليه ، لرفع الحجر عنه ، ولدفع أمواله كاملة إليه ، وعدم أخذ شىء منها إلا بالمعروف الذى يتعارف عليه الناس ، ويرضى عنه ضمير المسلم .

٦ — شريعة الميراث وتقرير حق الرجل والمرأة فيها على حد سواء .

٧ — إخراج شىء من التركة حين قسمتها للأقرباء المحتاجين واليتامى والمساكين ، على سبيل الصدقة ، رعاية لحقوق الفقراء ، وصدقة على الميت، لعل الله أن يكرمه فى القبر ، وعند البعث والحساب ؛ وهذا منشأ العادة الإسلامية الجارية بتلاوة القراء للقرآن الكريم أيام وفاة الميت وبصنع الأكل وتقديمه للفقراء . وجواز ذلك بشرط القصد وعدم الإسراف. وأن يكون القصد هو وجه الله تعالى لا الفخر والمباهاة

٨ — وجوب معاملة الوصى اليتيم ، كما يحب الوصى أن يعامَل به أولاده بعد وفاته

٩ — النهى عن أكل مال اليتيم ظلما وعدوانا لا بالمعروف .

١٠ — تقرير فريضة الميراث وتحديد أنصبة الوارثين .

١١ — بيان جزاء الطائعين والعاصين ممن يخالفون دين الله . وخاصة فى

فريضة الميراث ، فيقسمونه دونما أمر الله ، أو يجعلون أموالهم لواحد دون الآخر من أولادهم وورائهم .

١٢ — جزاء الزوجات اللاتى يأتين الفاحشة وتقرير العقوبة على جريمة الزنى على الرجل والمرأة على السواء ، وقد قرر القرآن الكريم هذه العقوبة بقوله « آذوهما » ، والإيذاء يتناول القليل والكثير منه ، وقد فصلت سورة النور هذه العقوبة وقررتها وبينت تحديدها بوضوح ودون خفاء ، والله عز وجل يتوب على من تاب من عباده .

١٣ — بيان التوبة ، ومتى تكون مقبولة ، ومتى لاتكون مقبولة .

١٤ — إبطال ماكان متبعا قبل الإسلام من وراثة النساء ، والنهى عن منعهن من الزواج ، ووجوب معاشرتهن بالمعروف ، وتحمل هفواتهن ، والتسامح فى معاملتهن .

١٥ — تقرير عدم جواز استرداد شىء من المهر لأى سبب من الأسباب ، اللهم إلا إذا تنازلت الزوجة عنه برضائها وطيب نفس منها ، ودون طلب من الزوج أو إلحاح أو إكراه من جانبه .

١٦ — بيان المحرمات من النساء على الرجال ، لايتزوج بهن ولايقربهن .

ومن هذا السرد يتضح مدى عناية القرآن الكريم بالأسرة وحفظها ورعايتها ، وسن القوانين الإسلامية اللازمة لحمايتها .

والآيات الواردة فى اليتيم هى دستور المجالس الحسبية التى نشأت فى العصر الحديث ، وقامت لتطبيق هذه المبادىء الجليلة فى معاملة الأوصياء لليتامى وفى المحافظة على أموالهم وأدائها إليهم كاملة عند بلوغهم سن الرشد ، وهذه هى شريعة الإسلام التى نزلت من السماء منذ أربعة عشر قرنا من الزمان لتهذب الإنسانية ، وترقى بمستوى الحياة ، وتدافع عن حقوق الضعفاء ، فى عصر كانت القوة وكان الطغيان فيه هما كل شىء .

هذا هو الإسلام ، وهذه هى مبادئه التهذيبية المتحضرة ، التى كانت هى

الشعاعة الأولى التى أنارت للإنسانية الطريق ، وسارت بالحياة إلى الغاية ، وقادت الإنسان إلى عصر الإخاء الإنسانى ، حتى أوصلته أخيرا إلى عصر البخار والكهرباء والذرة ، ولا تزال تقوده لتسير به فى عصر الفضاء الكونى والصواريخ لتجعله يعود إلى الإيمان من جديد ، قوى الروح ، قوى الثقة والإيمان بالله العلى والعظيم .

ونحن لانملك أنفسنا إلا أن نخر ساجدين لله رب العالمين ، صاغرين أمام عظمة كتابه الحكيم ، وقرآنه الكريم ، وبيانه المعجز ، وفرقانه الناطق بأنه من عند الله الذى أحسن كل شىء صنعا ، والذى أنزل من السماء كتابه هاديا للناس ، وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للجاحدين ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا ، وماأعظم ما قال الله عز وجل : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

صدق الله العظيم ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، ومنه نستمد السداد والعون إنه نصير المؤمنين ، وولى المخلصين ؟

خاتمة هـــذا الجزء

(١)

بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . فى ختام هذا الجزء من تفسيرنا للقرآن الكريم نتحدث عن طائفة من الموضوعات التى تتصل بالكتاب الحكيم ، وبالدراسات القرآنية .

وأولى هذه المسائل هى بيان الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم، قال الآلوسى فى تفسيره: روى واحد وعشرون صحابيا حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، حتى نص أبو عبيدة على تواتره ، وعن عثمان رضى الله عنه قال وهو على المنبر: أذكر الله رجلا سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف » لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا ، فشهدوا بذلك . فقال عثمان : وأنا أشهد معهم . واختلف فى معناه على أقوال :

١ ـ أنه من المشكل الذى لا يدرى لاشتراك الحرف .

٢ ـ أن المراد التكثير لا حقيقة العدد ، قد جروا على تكثير الآحاد بالسبعة والعشرات بالسبعين والمئات بسبعمائة ، وإليه جنح عياض ، ويرد عليه حديث رواه النسائى أن جبريل وميكائيل أتيانى فقعد جبريل عن يمينى وميكائيل عن يسارى، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل: استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف ، وفى رواية أبى بكرة فى آخر هذا الحديث : « فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة » وهذا أقوى دليل على إرادة الانحصار .

٣ ـ أن المراد بها سبع قراآت ، ويرد على هذا أن ذلك لا يوجد فى كلمة واحدة إلا نادرا ، والقول بأن كلمة تقرأ بوجه أو وجهين إلى سبع يشكل عليه ما قرىء على أكثر، اللهم إلا أن يقال : ورد ذلك مورد الغالب . ويقول

السيوطى : قد ظن كثير من القوم أن المراد بها القراآت السبعة، وهو جهل .

٤ — أن المراد بها سبعة أوجه من المعانى المتفقة على ألفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعالى وهلم وعجل وأسرع ، وإليه ذهب ابن عيينة وجمع كثير، وأيد برواية « حتى بلغ سبعة أحرف كلها شاف كاف ، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب ، ويرد على هذا أن ذلك كان رخصة لعسر تلاوته بلفظ واحد على الأميين ، ثم نسخ ؛ وإلا لجازت روايته بالمعنى، ولذهب التعبد بلفظه ، ولفات كثير من الأسرار والأحكام .

٥ — أن المراد بها كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق ، ويرد عليه أن ذلك ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى . واللفظ الواحد بهذه الصفات باق على وحدته فليس فيه حينئذ جليل فائدة .

٦ — أن المراد سبعة أصناف ، وعليه كثيرون ، ثم اختلفوا فى تعيينها ، فقيل: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصص. وقيل: إظهار الربوبية وإثبات الوحدانية وتعظيم الألوهية ، والتعبد لله ومجانبة الإشراك ، والترغيب فى الثواب . والترهيب من العقاب ، وقيل : أمر ونهى ووعد ووعيد وإباحة وإرشاد واعتبار . وقيل : غير ذلك ، والكل محتمل ، بل وأضعاف أمثاله ، إلا أنه لا سند له ولا وجه للتخصيص به .

٧ — ان المراد سبع لغات ، وإليه ذهب ثعلب وأبو عبيد والأزهرى ، وصححه البيهقى . واعترض بأن لغات العرب أكثر . وأجيب بأن المراد ، أفصحها وهى لغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر ، واستنكر هذا القول ابن قتيبة قائلا: لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش بدليل « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وعليه يلتزم كون السبع لغات هى لغات فروع قريش ، وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل إنها مفرقة فيه ولعل بعضها أسعد من بعض وأكثر نصيبا ، وقيل: السبع فى مضر خاصة،

لقول عمر رضى الله عنه : نزل القرآن بلغة مضر : وقال بعضهم : إنهم هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسيد بن خزيمة وقريش ، وقيل: أنزل أولا بلسان قريش ، ومن جاورهم من الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن تقرأه بلغاتها دفعا للمشقة ، ولما كان فيهم من الحمية ، ولم يقع ذلك وفق آراء الناس . بل المرعى فيه هو السماع من النبي صلى الله عليه وسلم . قال السيوطى: هذا كله هو مردود بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهشام بن حكيم كلاهما قرشى من لغة واحدة وقبيلة واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، فدل على أن المراد بالأحرف السبعة غير اللغات .

(٢)

أما المسألة الثانية فهى تحقيق الكلام فى جمع القرآن الكريم ؛ وترتيبه ؛ قال الألوسى : اعلم أن القرآن جمع أولا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، روى عن زيد بن ثابت قال : كنا عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نؤلف القرآن فى الرقاع . وثانيا بحضرة أبى بكر رضى الله تعالى عنه . فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت أيضا قال : « أرسل إلى أبو بكر فى مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر ـ أى اشتد وكثر ـ بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد : قال لى أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف[1] وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره « لقد جاءكم رسول » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، ويروى أن أبا بكر قال لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه ، والغرض من الشاهدين أن يشهدا على أن ذلك كتب بين يدى الرسول صلى الله تعالى عليه، وإنما اكتفوا فى آية التوبة بشهادة خزيمة لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين ،ويروى عن عبد خير قال : سمعت عليا يقول : أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله ، وعن أبى بريدة قال : أول من جمع القرآن فى مصحف : سالم مولى أبى حذيفة، أقسم لا يرتدى برداء حتى يجمعه ، ولعله كان أحد الجامعين بأمر أبى بكر رضى الله عنه ، كما قال السيوطى ، ولكن الصحيح أن سالما هذا قتل فى وقعة اليمامة كما يدل عليه كلام ابن حجر فى الإصابة ، ونص عليه السيوطى نفسه فى كتابه « الإتقان »..

وفى سنة خمس وعشرين حمل عثمان على القراءة بوجه واحد ، باختيار وقع بينه وبين من شهد من المهاجرين والأنصار ، لما خشى الفتنة من اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فقد روى البخارى عن أنس أن حذيفة ابن اليمان قدم عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فتح ارمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ؛ فأرسل إلى حفصة أن

---

(١) العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها والذى لم ينبت عليه الخوص من السعف .. واللخاف ، بوزن كتاب : حجارة بيض رقاق واحدها لخفة بالفتح .

أرسلى إلينا بالصحف ننسخها ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث ابن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ؛ حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القراءات فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، قال زيد بن ثابت : ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ألحقناها فى سورتها فى المصحف ، وقد ارتضى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد أسقط فى زمن الصديق ما نسخت تلاوته من القرآن الكريم ، ولم يأل جهدا رضى الله عنه فى تحقيق ذلك . كما روى عن حميدة بنت يونس أنه كان فى مصحف عائشة رضى الله عنها « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأول ، وما روى من أن رسول الله قرأ « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ، حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله ، يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتو الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، إن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل ذلك فلن يكفره » . ويروى أن الثناء على الله كان مكتوبا فى القرآن ثم نسخت تلاوته ، وهو : « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق » .

هذا وسور القرآن مائة وأربع عشرة، وقيل: ثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، وهى فى مصحف بن مسعود مائة واثنتا عشرة سورة لأنه لم يكتب المعوذتين، وكان يقول: إنما أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتعوذ بهما، ولهذا عوذ بهما الحسن والحسين، ولم يتابعه أحد من الصحابة على ذلك، وقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأهما فى الصلاة.

(٣)

وأما المسألة الثالثة فهى حول إعجاز القرآن الكريم، قال الألوسى: فى تفسيره: اختلف الناس فى بيان إعجاز القرآن الكريم:

١ — فذهب بعض المعتزلة إلى أن وجه إعجازه اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من العرب فى مطالعه وفواصله ومفاصله.

٢ — وذهب الجاحظ إلى أنه اشتماله على البلاغة التى تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات.

٣ — وقيل: إن وجه الإعجاز فى القرآن هو فى كونه مع طوله وامتداده غير متناقض ولا مختلف.

٤ — وقيل: وجه الإعجاز موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى.

٥ — وقيل: إعجازه قدمه.

٦ — وقال أبو إسحاق الاسفراينى والنظام: إعجازه بصرف دواعى بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التى لا بد منها فى فى المعارضة. ويرد على هذا أن التحدى وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له، على أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتحدثوا به، ولشاع ذلك وعرف بين الناس، وهو ما لم يحدث.

٧ — وقال الآمدى وغيره : الإعجاز بجملته وبالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب ، وارتضاه الكثير .

وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن ، وأتوا بوجوه شتى ، الكثير منها خواصه وفضائله ، مثل الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأنه لا يمله تاليه ، بل يزداد حبا له بالترديد ، مع أن الكلام يمل إذا أعيد ، وكونه آية باقية مابقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه ، إلى غيرذلك من الوجوه التى ذكرها العلماء فى قضية الإعجاز وأسبابها ، والله ولى التوفيق .

كلمة أخـــيرة

بسم الله عليه توكلت ، وإليه أنبت ، وإليه المصير . . وبعد :

فهذه هي خاتمة الجزء الرابع من تفسير كتاب الله ، وسوف تتلوه أجزاء عدة تصل بهذا التفسير إلى الثلاثين جزءا .. مما سوف يجعله موسوعة جديدة عن كتاب الله وعن مبادىء الإسلام وأصوله وأهدافه ومناهجه فى قيادة الحياة والإنسانية .

وهذا التفسير الجديد العصرى ، الذى يتمشى مع منطق العقل العلمى ، ومع فهم القرن العشرين للدعوات الدينية ؛ إن هو إلا محاولة من محاولاتنا فى خدمة كتاب الله ، وتيسير فهمه على جيلنا وعلى الأجيال المسلمة المقبلة .

وإنا لنضرع إلى الله ، أن يوفقنا إلى خير القول ، وخير العمل ، وأن يهدينا إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وما توفيقى إلا بالله .

فهرست الجزء الرابع

للمؤلف

قصة الأدب فى مصر ـ ٥ أجزاء
« « الأندلس ـ ٥ «
« « المعاصر ـ ٤ «
الأزهر فى ألف عام ـ ٣ «
صور من الأدب الحديث ـ ٤ «
رائد الشعر الحديث ـ جزءان
ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ـ طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ـ طبعة ثانية ٥١٠ «
دراسات فى الأدب والنقد
مع الشعراء المعاصرين
الذكر الحكيم
الشعر والتجديد
مواكب الحرية فى مصر الإسلامية
فى ظلال الإسلام ـ بالاشتراك